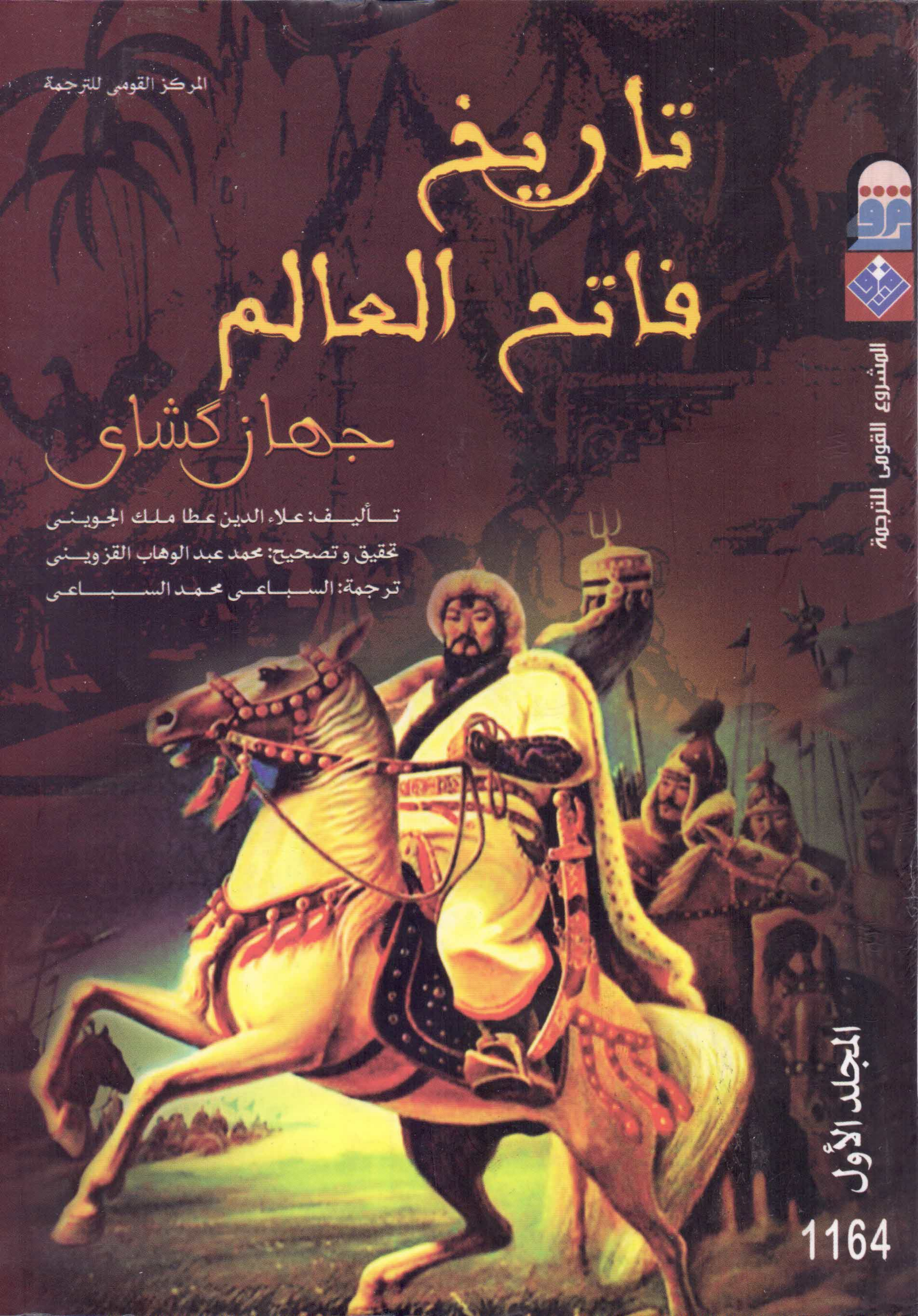

المركز القومى للترجمة
تاريخ
فاتح العالم
جهان گشاى
تـأليـف: عـلاء الدين عطا مـلـك الجـويـنى
تحقيق و تصحيح: محمد عبد الوهاب القزوينى
ترجمة: السبـاعـى محمـد السبـاعـى
المشروع القومى للترجمة
المجلد الأول
1164



يُعدُّ كتاب "تاريخ فاتح العالم" أو "تاريخ جهان گشاى" - جنبًا إلى جنب "جامع التواريخ" و"تاريخ وصَّاف" ومؤلفات أخرى- أحد المصادر المهمة التى تعكس مسيرة تطور الأدب الفارسى، حيث وجد النثر الفارسى فيها متنفَّسًا يواصل من خلاله تطوره وازدهاره.

كان المؤلف (الجوينى ـ ت : 681هـ) واحدًا من رجالات الدولة المغولية، شاهد أحداثها وكتب كتابه هذا. بينما الأحداث المتلاحقة لا تزال تترى، فكان كتابه مرجعًا بالغ الأهمية لتلك الفترة. كما قدَّم محقِّق الكتاب (محمد ابن عبد الوهاب القزوينى) مقدمة ضافية وضعت الكتاب فى سياقه التاريخى والثقافى بالغ الأهمية الذى تجلَّى بطريقة لافتة للنظر فى وضوح عبارات الترجمة وجمال أسلوبها ورهافته.

تصميم الغلاف / وائل أحمد



تاريخ فاتح العالم
(المجلد الأول)

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١١٦٤
- تاريخ فاتح العالم (المجلد الأول)
- علاء الدين عطا ملك الجوينى
- محمد بن عبد الوهاب القزوينى
- السباعى محمد السباعى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب

تاريخ جهانـــگشاى

تأليف: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين بن محمد الجوينى
جلد أول

بسعى واهتمام وتصحيح

محمد بن عبد الوهاب قزوينى

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤.
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

تاريخ فاتح العالم

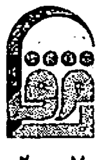
جهان گشاى

(المجلد الأول)

تـــأليف : علاء الدين عطا ملك الجوينى

تحقيق وتصحيح : محمد بن عبد الوهاب القزوينى

تــرجمــة : السبـاعى محمد السباعى



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الجوينى، علاء الدين عطا ملك
تاريخ فاتح العالم / علاء الدين عطا ، تحقيق وتصحيح :
محمد بن عبد الوهاب القزوينى؛ ترجمة : محمد السباعى ،
ط ١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٢٨٣ ص ، ٢٤ سم المشروع القومى للترجمة
١ -
(أ) السباعى، السباعى محمد (مترجم)
(ب) القزوينى، محمد بن عبد الوهاب (تحقيق وتصحيح)
(ج) العنوان

رقم الإيداع ١٦١١٣ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437 - 428 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

فهرس المحتويات

مقدمة المترجم

كان الغزو المغولي - ولا يزال - أكبر ضربة أصابت العالم الإسلامي، فمزقت أوصاله الواهنة، وكان العالم الإسلامي وما أصابه من تدهور تدريجي من أكبر العوامل التي ساعدت المغول على نجاحهم، وتحقيق أكثر مما كانوا يطمعون فيه ويهدفون إليه.

وحَّد جنكيز خان - القائد المغولي - المغول والتتار والترك بعد تفرقهم إلى قبائل وبطون وعشائر ردحا طويلا من الزمان، ثم حاربوا الإمبراطورية الصينية، أقوى جيرانهم، وطهروا ما يجاورهم من مناطق من المخالفين لهم، المعارضين الانضمام إلى دولتهم، كما هاجموا الدولة الخوارزمية أكبر الدول الإسلامية وأقواها، بعد أن سحقت جميع مراكز القوى المناوئة لها، فأشاعوا فيها الخراب والدمار، وتركوا أرضها قاعا صفصفا، ولم يتركوا فيها على الأرض من المسلمين ديارا، سوى من يحتاجون إليهم. ودفع هذا الحدث الجلل ابن الأثير إلى القول : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا"، ثم يقول : "وهذا البيان يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبْلَ بمثلها لكان صادقا، فإن التاريخ لم يتضمن ما يقاربها أو يدانيها".

كتب ابن الأثير قوله هذا قبل حدوث النكبة النهائية بثلاثين عاما، حين سقطت بغداد على يد هولاكو ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م، فكانت النكبة أشد وأنكى،

والمصيبة أعم وأشمل، وتم القضاء على الحضارة الإسلامية التى أزهـرت وتلألأت أنوارها سبعة قرون أسهم فيها العرب والفرس والترك.

أثارت هذه النكبة اهتمام الباحثين فى الشرق والغرب علـى السواء، وطرحت أسئلة كثيرة ظلت الألسن ترددها وتلهج بها:

كيف تكونت دولتهم بعد تفرقهم؟

هل ما حققوه من انتصارات راجع إلى قوتهم الذاتية؟

هل المغول قوم لا يُغلبون ؟

لا تزال آثار هذه النكبة بادية السمات واضحة القسمات علـى العـالم الإسلامى، لم توحده وحدة ولم تجمعه قوة، انعكست آثارهـا علـى جميـع مظاهر الحياة السياسية والأدبية والاجتماعية.

تأثر الأدب الفارسى بهذه الأحداث، فقد سقطت الدولة الخوارزمشاهية وسُويت المراكز الأدبية بالأرض، وقُتل غالبية العلماء والأدباء، وهاجر من بقى منهم فأداروا ظهورهم إلى الفنون الأدبية التى سادت الأدب فى المرحلة السابقة، واتجهوا إلى فنون أخرى تواكب الآلام التى قاسوها.

على الرغم من هذا فإن علما واحدا بلغ الأوج ووصل إلـى مـدارج الرقى، أعنى به علم التأريخ، قد ازدهر ازدهارا كبيرا فى هذه الفترة فساعد على بقاء الصلة بين القديم والحديث وواصل مسيرة تطور الأدب الفارسـى، فأُلفت كتب تاريخية كثيرة ساعد المغول على تأليفها هى:

- "تاريخ جهان گشاى" لعلاء الدين عطا ملك الجوينى ، أُلف فى حـدود عام ٦٥٨هـ.

- "جامع التواريخ" الذى ألّفه رشـيد الـدين فـضل الله وزيـر غـازان وأولجايتو، وأُلف فى حدود عام ٧٤٠هـ.

- " تجزية الأمصار وتزجية الأعصار"، المعروف بتاريخ وصاف الـذى

ألفه عبد الله بن فضل الله الشيرازى فى حدود عام ٧٣٨هـ.

- "تاريخ گزيده" الذى ألفه حمد الله بن أبى بكر بن أحمد بن نصر المستوفى القزوينى، وهو خلاصة لكتاب "جامع التواريخ"، وألف فى حدود عام ٧٣٠هـ.

- "ظفرنامة" وهو كتاب منظوم يبلغ عدد أبياته ٧٥,٠٠٠ خمسة وسبعين ألف بيت على بحر المتقارب على طراز شاهنامة أبى القاسم الفردوسى (٢٥,٠٠٠ خمسة وعشرون ألف بيت فى تاريخ العرب، و ٢٠,٠٠٠ عشرون ألف بيت فى تاريخ إيران، و ٣٠,٠٠٠ ثلاثون ألف بيت فى تاريخ المغول) وألف فى عام ٧٣٥هـ.

- "روضة الألباب فى تواريخ الأكابر والأنساب" المعروف بتاريخ بناكتى، لأبى سليمان داود بن أبى الفضل محمد بناكتى، وألف فى حدود ٧١٧هـ.

- "نظام التواريخ" وهو كتاب مختصر فى طبقات إيران المختلفة ألّفه ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن على البيضاوى صاحب التفسير المعروف بـ "تفسير البيضاوى" وألف فى حدود عام ٦٧٤هـ.

- "مجمع الأنساب" لمحمد بن على بن محمد بن حسين بن أبى بكر الشبانكاره، وألف إبان السلطان أبى سعيد عام ٧٣٣هـ.

وغير ذلك من الكتب.

لا شك أن أهم هذه الكتب على الإطلاق هى الكتب الثلاثة الأولى : جهان گشاى، جامع التواريخ، وتاريخ وصاف، فقد سجلت أحداث هذه الحادثة، ووجد النثر الفارسى فيها متنفسا يواصل فيها تطوره.

يتقدم الأول على الآخرَين زمانا، وتوفرت لمؤلفه ظروف لم تتوافر لكثيرين غيره، فقد كان واحدا من رجالات الدولة المغولية، وشاهد أحداثها وكتب كتابه والأحداث لا تزال تترى، وسمع عما جرى قبل ذلك من الثقات

الذين التقى بهم فى رحلاته إلى موطنهم الأصلى، فأصبح مرجعًا من أهم المراجع التى تؤرّخ لتلك الفترة، فاكتسبت الكتب الأوربية وغيرها التى اعتمدت عليه واقتبست منه قيمة كبرى.

لهذا كان الإقدام على ترجمة هذا المصدر المهم أمرًا مهمًّا، كما كان الإقدام على دراسته ونقده وتحليله فى مجال الدراسات الجامعية أمرًا واجبًا، وقد تمّ بعضها والحمد لله.

هذا مدخل رأيته لازما كجزء رئيسى للتقديم لهذا الكتاب الذى حققه وجمع نسخه العالم الإيرانى الكبير الأستاذ "محمد بن عبد الوهاب القزوينى" والذى ذكر أنه جمع سبع نسخ خطية منها، وأن النسخة (آ) هى أقدم تلك النسخ، وهى موجودة فى المكتبة الأهلية بباريس، وجعلها النسخة الأساسية فى طبع هذا الكتاب، والتى تقع فى ١٧٤ ورقة تشتمل على ٣٤٨ صفحة، وتعود كتابتها إلى الرابع من شهر ذى الحجة عام ٦٨٩ هـ، أى بعد وفاة المؤلف بثمانى سنوات فقط حيث توفى فى الرابع من ذى الحجة عام ٦٨١هـ.

قدّم الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزوينى مقدمة إضافية للطبعة الأولى لهذا الكتاب بمجلداته الثلاثة، والتى طُبعت فى مطبعة بريل فى ليدن بهولاندا عام ١٣٢٩هـ الموافق ١٩١١م.

اتخذتُ هذه المقدمة أساسا لتقديمى لهذا الكتاب، فاستوعبتها، وأضفت إليها، ومع هذا رأيت من الواجب أن يُنسَب الفضل إلى أهله، وأن تُذكر المقدمة التى كتبها المحقق الإيرانى تحت عنوان "مقدمة المصحح" ، فذكرتها بتصرف وإضافات.

والله من وراء القصد

السباعى محمد السباعى

مقدمة المصحح

أسرة الجوينيين

علاء الدين عطا ملك

أ- أسرته :

يختلف الكتاب والمؤرخون فى نسب هذه الأسرة، فينسبها بعضهم إلى إمام الحرمين الجوينى[1]، وينسبها آخرون إلى الفضل بن الربيع.

يقول ابن الفوطى : هو الصدر العظيم صاحب الديوان علاء الدين أبو المظفر عطا بن بهاء الدين محمد بن شمس الدين محمد بن بهاء الدين محمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن محمد بن أحمد بن إسحق بن أيوب بن الفضل بن الربيع ابن يونس بن محمد بن عبد الله بن كيسان[2]، جده الأعلى كيسان الملقب بأبى فروة مولى الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه.

كان الربيع فى بداية أمره حاجبا للمنصور (١٣٦هـ) ثم وزيرا له فحاجبا للمهدى ووزيرا للهادى، وكان ابنه الفضل حاجبا للمنصور والمهدى والهادى والرشيد ثم وزيرا للرشيد[3].

---

(١) هدايت مجمع الفصحا جـ١- ٣١١ تهران ١٢٩٥هـ. ويعلق القزوينى على هذا الرأى بقوله: "وهذا خطأ ويرجع السبب فى هذا إلى اشتراكهما فى لقب الجوينى"، وذكر ابن خلكان نسب إمام الحرمين على النحو التالى : هو أبو المعالى عبد الملك بن الشيخ أبى محمد عبد الله بن أبى يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجوينى الفقيه الشافعى الملقب ضياء الدين، ولد فى ١٨ من محرم سنة ٤١٩ وتوفى ١٧٨هـ. ابن خلكان - وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٤١. وكذلك السبكى طبقات الشافعية - جـ٣ ص ٢٤٩ إلى ٢٩٠، طبعة مصر.

(٢) ابن الفوطى - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة - حوادث سنة ٦٨١ ص ٤١٩، بغداد سنة ١٣٥١هـ.

(٣) نسب الربيع مشكوك فيه، وقد روى الفخرى أنه لقيط وأنه ولد زنا، وأحسن أحواله أن يكون صحيح الاتصال بأبى فروة مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه وفى ذلك أتم المعار، فإن أبا فروة كان ساقطا وكان عبدا للحارث حفار القبور بمكة، ثم إنه خرج على عثمان يوم الدار وكفاه بذلك عارا. ابن الطقطقى الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٥٨ القاهرة سنة ١٣١٧هـ.

تحتل أسرة الجوينيين مكانا بارزا، فهى من أقدم وأشهر الأسر التـــى أنجبتها إيران وكانوا مضطلعين بالمناصب المهمة فى حكومـــات ســـلاجقة إيران والخوارزمشاهيين والمغول، وكانت وظيفة صاحب الديوان[١] غالبا ما تسندُ إليها، ولهذا عرف معظم أفراد هذه الأسرة بهذا اللقب، وشغل بعـــضهم مناصب أكبر مثل شمس الدين محمد الجوينى أخى المصنف، فقد كان الوزير الأعظم فى عهد أباقا بن هولاكو ٦٦٣ إلى ٦٨٠هـــ، وإن يكن قد عرف فى التاريخ بلقب صاحب الديوان، وبالنسبة إلى عطا ملك فقد كان حاكما عامـــا للعراق طوال ثلاث وعشرين سنة إلا أنه عرف بهذا اللقب كذلك.

ب- الرحيل إلى جوين :

بعد وفاة الرشيد ونشوب النزاع بين ولديه الأمين والمـــأمون، ناصـــر الفضل بن الربيع الأمين، فلما دخل الخليفة المأمون بغداد سنة ٢٠٠ هـــ بعد انتصاره على أخيه، خرج بعض أفراد بيت الفضل بن الربيع مـــن العـــراق واتجهوا إلى إيران خوفا من بطش المأمون بهم، وحط آل الفضل رحالهم فى مدينة جوين[٢] بإيران، ومن ثم عُرفوا بالجوينيين[٣].

---

(١) وتعادل وزير المالية، ويذكر الجهشايرى أنه كان لملوك فارس ديوانان أحدهما ديوان الخراج والآخر ديـــوان النفقات، كما كانت ملوك فارس تقدم الكتاب وتعرف فضل صناعة الكتابة وتقول : هم نظام الأمـــور، هـــم الألسن الناطقة وخزان أموالهم وأمناؤهم على رعيتهم وبلادهم. ويذكر ابن خلدون أن الديوان كلمة فارسية أصلها ديوان وقد أطلقت فى الأصل على كتاب الأعمال الذين يقومون بأعمال القوانين والمحاســـبات، ثـــم انتقلت إلى مكان جلوسهم لأداء تلك الأعمال، وهى وظيفة ضرورية للملك وهى القيام بأعمـــال الجبايـــات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم، وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد أو غيره، والإمام عمر أول من دون الـــدواوين. الجهـــشيارى – الـــوزراء والكتاب ص ٤٤٣ القاهرة.

(٢) تقع جوين على طريق القوافل بين بسطام فى منطقة قوش ونيسابور، وتعرف منطقـــة جـــوين كمـــا يقـــول المقدسى باسم منطقة جويان، وهى منطقة خصبة تنتج الكثير من المواد الغذائية، كانت مـــدينتها الرئيـــسية (آزادوار أو آزاده وار) تقع منطقة إفراين فى الجزء الشمالى منها بينما يحفها من الناحية الغربيـــة منطقـــة أرغيان حول جاجرام، تضم مائتى قرية حسبما يقول ياقوت الذى وصف مدينة آزادوار بأنها مدينة مكتظة بالسكان بها مساجد رائعة، تغطى حدائق قراها كل الوادى، تأتى إليها مياه الرى من المياه الجوفية.

Le strange, The Lands of the Eastern Caliphate, p.391.

(٣) ذبيح الله صفا – تاريخ أدبيات در ايران جـــ٣، ص ٣٥ القسم الأول. طهران ١٣٥٣هـــش.

ج- بداية التحاقهم بالخوارزمشاهيين والمغول :

التحق بهاء الدين محمد بن على، جد والد علاء الدين، ببلاط الخوارزمشاهيين حينما تحرك السلطان الخوارزمى تكش بن أيل أرسلان بن آنسر خوارزمشاه فى عام ٥٨٨هـ قاصدا محاربة السلطان السلجوقى طغرل فى مدينة الرى، وكان هذا فى أثناء مروره بمدينة آزادوار المدينة الرئيسية لمنطقة جوين، وقد أعجب السلطان الخوارزمى ببلاغته إعجابا كبيراً(١).

وجدُّ المؤلف هو شمس الدين محمد بن محمد بن على، وكان من ملازمى السلطان محمد خوارزمشاه وهو مستوفى ديوانه وكان ملازما للسلطان الخوارزمى وقت هزيمته من المغول وفراره إلى بلخ ٦١٧هـ، ثم التحق بعد ذلك بابنه جلال الدين منكبرتى وعمل مستوفيا لديوانه كذلك (٢).

د- والد المؤلف :

هو بهاء الدين محمد بن محمد صاحب الديوان، أول من انتسب إلى المغول من الجوينيين وكان ذلك فى أثناء ولاية جنتيمور ٦٣٠هـ/ ٦٣٢م على خراسان ومازندران من قبل أوكتاى قا آن.

فى عام ٦٣٠هـ أرسل جنتيمور كلبلات Kul-bolat ، وهو أحد قواده، مع جيش إلى نيسابور لمحاربة قراجة وبغان سنقور اللذين كانا أميرين من قبل السلطان الخوارزمى جلال الدين، وكانا دائمى الإغارة على تلك المناطق، وتحريض الأهالى وقتل الموظفين المغول والموالين لهم. كان والد المؤلف فى تلك الأثناء فى نيسابور ففر منها مع جمع غفير من مشاهيرها وذهبوا إلى تاج الدين فريزنى الذى كان واليا على أمور قلعة طوس، فلما فرغ كلبلات من أمر قراجة اتجه إلى طوس وكان قد سمع بأمر هذه

---

(١) علاء الدين الجوينى- جهان گشاى جـ٢ ص ٢٨.

(٢) خوند مير حبيب – السير جـ٣ شرح حال خواجة شمس الدين محمد أخى المصنف، النسوى سيرة السلطان جلال الدين، ص : ١٩٥.

الجماعة، فأرسل إلى فيريزنى رسولاً وطلب منها تسليمها إليه، فأحسن كلبلات استقبالهم، ثم حملهم إلى بلاط جنتيمور الذى أحسن بدوره لقاءهم[1].

وبعد مدة قصيرة عهد بمنصب صاحب الديوان فى خراسان ومازندران إلى بهاء الدين محمد الجوينى، ثم عين فى عام ٦٣٣ هـ بأمر من أوكتاى قا آن فى منصب صاحب ديوان[2] الممالك.

وعين فى عام ٦٥١هـ بأمر من لورغون، وكان بهاء الدين قد ناهز الستين من عمره آنذاك وأراد أن يستريح من عناء هذه الأعمال التى كابدها فترة طويلة، إلا أنه امتثل للأمر وتوفى هناك فى سنة ٦٥١هـ[3].

هـ- المؤلف :

ولد علاء الدين عطا ملك فى ١٠ من ربيع الأول سنة ٦٢٣هـ - ١٢٢٦م فى قصبة آزادوار على أرجح الأقوال، وقد ذكر الذهبى هذا التاريخ فى كتابه "تاريخ الإسلام"، وذكره ابن الفوطى[4]. وأيدت أقوال عطا ملك هذا التاريخ، فقد ذكر أنه بدأ فى كتابة تاريخه فى أثناء وجوده بقراقورم بين (٦٥٠هـ و ٦٥١هـ - ١٢٥٢م و ١٢٥٣م) وأنه كان آنذاك فى السابعة والعشرين من عمره، وأشار فى موضع آخر من كتابه إلى أنه شغل بأعمال الكتابة والتحرير فى الديوان قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وأصبح واحدًا من خاصة كُتّاب الأمير أرغون[5].

---

(١) ويقول بويل Boyle فى مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب جهان گشاى أن بهاء الدين الجوينى أصبح منذ هذا التاريخ من موظفى المغول The history of the world conquorer.

(٢) الجوينى – جهان گشاى جـ٢ ص ٢١٩-٢٢٤.

(٣) الجوينى – جهان گشاى ٢٥٦-٢٥٨.

(٤) ابن الفوطى – الحوادث الجامعة، حوادث سنة ٦٨، ص ٤١٩، إلا أن حمد الله المستوفى يذكر فى نزهة القلوب أن آزادوار مسقط رأس شمس الدين الجوينى فقط فى حين يذكر دولتشاه فى تذكرة الشعراء أن آزادوار مسقط رأس الأخوين : شمس الدين وعلاء الدين عطا ملك.

(٥) الجوينى – جهان گشاى، جـ١ ص ٦.

و- رحلاته إلى البلاط المغولى :

سافر أرغون إلى بلاط المغول خمس مرات أو أكثر لإجراء المحاسبات المالية، وكان علاء الدين ملازمًا له فى أغلب هذه الأسفار، فقد كان كاتبه الخاص.

يبدو من جهان گشاى أن الرحلة الأولى التى صاحب فيها علاء الدين أرغون كانت الرحلة الثانية لأرغون، وكانت ملازمته له بإشارة من أرغون، وقد حدثت فى عامَىْ ٦٤٤هـ - ٦٤٥هـ[١]، وكان والد علاء الدين ملازما لأرغون فى هذه الرحلة كذلك، إلا أن هذه الرحلة لم تتم بسبب سماعهم بوفاة كيوك خان، وكان ذلك عند وصولهم إلى أطرار، فتوقفت البعثة هناك مدة ثم عادت إلى إيران.

صاحَبَ علاء الدين أرغون فى رحلته الثالثة إلى قراقورم مدافعا عن نفسه ضد اتهام حاسديه ومعارضيه، وقد مكث أرغون فترة طويلة فى البلاط المغولى، وكانت هذه الرحلة فى الفترة التى تلت وفاة كيوك خان وجلوس منكو قا آن، وقد استمرت هذه الفترة من ٦٤٥هـ حتى ٦٤٩هـ وكانت حكومة المغول آنذاك فى يد أوغول غايمش زوجة كيوك خان، وقد تمت هذه الرحلة فى عام ٦٤٧هـ[٢]، وبعد عودة أرغون وعلاء الدين من معكسر أوغول غايش التحق علاء الدين بخدمة ييسو بن چغتاى بن جنكيز، وكان ذلك فى عام ٦٤٩هـ - ١٢٥١م، ١٢٥٢م[٣].

صاحَبَ علاء الدين أرغون فى رحلته الرابعة إلى بلاط منكو قا آن، وقد حدثت هذه الرحلة فى جمادى الآخرة ٦٤٩هـ إلا أن أرغون وصل إلى مكان الاحتفال بعد انتهائه نتيجة لتراكم الجليد فى الطريق، وكان جلوس منكو قا آن قد تم فى ٩ من ربيع الآخر ٦٤٩هـ، وكان وصول أرغون والمرافقين

---

(١) الجوينى جـ١ ص ٢٤٨.

(٢) الجوينى جـ٢ ، ص ٢٤٩.

(٣) الجوينى جـ١ ص ٢٣١.

له فى العشرين من صفر سنة ٦٥٠هـ - ١٢٥٢م[١]، وكان خروجهم من قراقورم فى رجب ٦٥١هـ -١٢٥٣م[٢].

ومن هنا يتضح أن علاء الدين قد مكث فى معسكر منكوقا آن فى قراقروم فى أثناء رحلته الأخيرة ما يقرب من عام وخمسة أشهر شاهد فى أثنائها الآثار العتيقة وخرائب مدينة أرد وباليغ التى كانت واحدة من أعظم مدن مملكة الأويغور والتى بنيت قراقورم[٣] بأمر من أوكتاى على أنقاضها، وقد وصفها علاء الدين فى المجلد الثانى من كتابه وكذلك رشيد الدين فى المجلد الثانى من كتابه "جامع التواريخ"[٤].

ز- وظائفه :

انخرط علاء الدين بعد عودته من رحلته الأخيرة إلى قراقورم فى ٦٥١هـ - ١٢٥٣ م فى سلك كتاب الأمير أرغون، وظل على هذا حتى أوائل عام ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م حين وصل هولاكو إلى إيران، ثم عزم أرغون على السفر مرة أخرى إلى معسكر منكو قا آن بناء على أمره فعهد - قبل سفره - إلى ثلاثة أشخاص أحدهم علاء الدين إلى جانب اثنين آخرين هما ابنه كراى ممالك والأمير أحمد بينكحى بالعمل فى بلاط هولاكو، وفوض إليهم الإشراف على أمور ممالك العراق وخراسان ومازندران[٥]، وهذا يدل على علو المنزلة التى كان يتمتع بها علاء الدين عند أرغون، ومنذ هذا

---

(١) الجوينى جـ٢ ص ٢٥٢. وذكر الجوينى فى النص أن وصوله كان فى منتصف صفر سنة ٦٤٩هـ. ويعلق القزوينى على ذلك بقوله : وهذا القول خطأ من جانب النساخ، والصواب أنه فى العشرين من صفر سنة ٦٥٠هـ، ويدلل على صحة قوله بما ذكره الجوينى نفسه من أن تحركه إلى المعسكر السلطانى الكبير قد بدأ فى جمادى الآخر سنة ٦٤٩، فكيف يتسنى له أن يصل إلى قراقورم رغم بعد المسافة فى العشرين من صفر من العام نفسه؟ وأعتقد أن الخطأ واضح؛ فهل وصل أرغون إلى قراقورم قبل أن يبدأ رحلته؟

(٢) الجوينى جـ٢ ص ٢٥٦.

(٣) قراقورم اسم جبل فى المنطقة المغولية، وأول عاصمة للمغول. رشيد الدين - جامع التواريخ جـ١ - برزين.

(٤) رشيد الدين - جامع التواريخ جـ ١ برزين.

(٥) الجوينى - جهان گشاى جـ٢ ص ٢٥٩ وكذلك جـ٣ ص ١٠١.

التاريخ أصبح علاء الدين واحدا من خاصة هولاكو وكُتّابه المقربين. ويوما بعد يوم علا شأنه وثبتت أقدامه حتى ابتُلى فى أواخر أيامــه بمجــد الملــك اليزدى فأخذ نجمه فى الأفول وساءت أحواله كما سيتضح فيما بعد.

وبعد وصول هولاكو إلى إيران بقليل كتب شخص يدعى جمال الدين خاص حاجب وكان من أعداء الأمير أرغون، وقد عهد إليه بالإشراف على الممالك القريبة ، كتب محضرا يتضمن أسماء أمراء ورؤساء إيران الــذين كانوا يعملون تحت حكم الأمير أرغون وأحضره إلى هولاكو بخراسان وقال له : "إن لدى أقوالا تتعلق بكل واحد من هؤلاء وأود أن لا أفصح عنها فــى حضرة منكو قا آن"، وكتب اسم علاء الدين بين هذه الأسماء، فلما وقع بصر هولاكو عليه قال له : "وهل عندك أقوال عنه؟ وإذا كانت لــديك فاعرضــها علىَّ حتى نحقق فيها ونقول الحكم الصواب فيه"، عندئذ ندم جمال الدين على فعلته والتمس العفو وطلب المعذرة[1].

يمكن استنباط أمرين من هذه الرواية: الأول هو الاهتمام الكبير الــذى كان يحظى به علاء الدين عند هولاكو . والثانى هو الدسائس والمكائد التى كانت تدبَّر لعلاء الدين من البداية.

يستفاد من جهان گشاى أن علاء الدين كان مصاحبا لهولاكو فى حملته للقضاء على الإسماعيلية وقلاعهم، وفى أثناء طريقه إلى قلاعهم وصلوا إلى خبوشان[2]، وكانت هذه القضية منذ بداية فتوحات المغول حتى عام ٦٥٤هــ قد أضحت خرابا، هدمت جسورها وخربت قنواتها ولم يبق فيها شيء سوى جدار المسجد الجامع. عندئذ عرض علاء الدين أمر هذه القضية – بعــد أن شاهد رغبته فى تعمير ما خرب – على هولاكو، فأمر فى الحال بتعميرهــا وترميم قنواتها وأن يستدعى سكانها الذين تركوها بعد خرابها وأن لا يتحملوا

---

(١) الجوينى : جــ٢ ص ٢٥٩.

(٢) خبوشان ، يقول عنها المغول : قوجان. القزوينى – حاشيته ص ١٠٥، وهى كوشان الحالية.

أية مصاريف فى سبيل ذلك وأن تتحمل الخزانة كل ما ينفق[1].

ويقول براون[2] : خرج هولاكو من قراقورم فى يوليو سنة ١٢٥٢م – ٦٥٢هـ مزودًا بتعليمات مشددة بأن يستأصل شأفة الحشاشين فى آلموت وأن يحطم الخلافة فى بغداد، وكان سيره فى البداية وئيدا بطيئا، وأمضى صيف سنة ١٢٥٤م – ٦٥٢هـ فى تركستان ثم وصل إلى سمرقند فى سبتمبر سنة ١٢٥٥م – ٦٥٣هـ وبقى بها أربعين يومًا، وفى يناير سنة ١٢٥٦م – ٦٥١هـ وصل إلى كيش فلاقاه بها أرغون الذى كان يتولى حكم إيران من قبل منكو قا آن ١٢٥٣م – ٦٥١هـ وكان فى صحبته كاتبه الكبير بهاء الدين محمد الجوينى وابنه عطا ملك الجوينى، وقد لحق الابن بهولاكو فأصبح كاتبه الخاص وصحبه فى أشد معاركه، وحضر معه غاراته على حصن آلموت معقل الحشاشين فتمكن بذلك من الرجوع إلى مصادر أصلية موثوق بها كان عليها اعتماده فى تأليف كتابه "جهان گشاى".

ولا بد أن هذا القول من جانب براون قد جانبه الصواب، وقد ذكر علاء الدين أن والده توفى سنة ٦٥١هـ، فكيف يتسنى لهولاكو أن يقابل أرغون فى كيش ومعه بهاء الدين كاتبه الأكبر وابنه علاء الدين؟ ثم إن ما ذكره براون من أن علاء الدين تمكن من الرجوع إلى مصادر أصلية موثوق بها – بعد فتح قلاع الحشاشين – كان عليها اعتماده فى تأليف كتابه، قول يلزمه التحديد والدقة، فالاستفادة التى استفادها الجوينى من مكتبة حصن آلموت قد تجلت فى المجلد الثالث فقط من جهان گشاى حين تحدث عن الإسماعيلية.

ويستفاد من جهان گشاى أن ركن الدين شاه آخر حكام الطائفة الإسماعيلية حاول فى أثناء محاصرة هولاكو لقلعة ميمون دژ– التى كانت أكبر قلاع آلموت تحصنا– الاستفادة من مرور الوقت ليتساقط الجليد آملا فى

(١) الجوينى جـ٣ ص : ١٠٥.

(٢) براون – تاريخ الأدب فى إيران – الترجمة العربية ص ٥٧٦، القاهرة ١٣٧٣ هـ– ١٩٥٤م.

أن يساعده هذا على الانتصار أو إطالة مدة الحصار، ولكن الجو ظل علـى حاله ولم يحقق له مراده[1] فقرر الاستسلام فى منتصف نوفمبر سنة ١٢٥٦م - ٦٥٤هـ وطلب وثيقة أمان فى سبيل ذلك، وقد كتبت تلك الوثيقة بواسطة الجوينى الذى لعب دورًا كبيرًا فى الاتصالات التى جرت بين الطرفين[2]، ثم إن الجوينى نفسه هو الذى أعد البيان النهائى لفتح قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم نهائيًا[3].

وبعد فتح آلموت والقضاء على الإسماعيلية ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م رأى علاء الدين أن مكتبة آلموت الشهيرة قد أصبحت عرضة للتلف والـضياع، فعرض على هولاكو إمكان تفادى هذا فرحب به وأمر أن يبحث محتوياتهـا ومحتويات القلعة التى تجمعت منذ أيام الحسن الصباح حتى ذلك التاريخ أى فى حدود مائة وسبعين عاما[4]، وأن يفصل ما يراه مفيدا ولازما، فنفذ علاء الدين الأمر واستخرج ما كان بها من نفائس المصاحف والكتب وآلات رصد النجوم، وحرق باقى الكتب التى تتعلق بأصول مذهبهم أو فروعه، ومن جملة الكتب التى أبقى عليها كتاب يتضمن أحوال الحسن الصباح ويُعـرف باسـم "سرگذشت سيدنا"[5]، وما ذكره الجوينى عن هذا الكتاب فى غاية الأهميـة،

---

(١) الجوينى جـ٣ ، ص١٠٩.

(٢) Boyle : Introduction of the history of world cong xxv .

(٣) الجوينى جـ٣ ص ١١٤.

(٤) استولى الحسن الصباح على ألموت فى يوم الأربعاء ٦ من رجب سنة ٤٨٣هـ، ٤ سبتمبر سـنة ١٠٩٠م. الجوينى جـ ٣ ص ١٩٤.

(٥) الجوينى جـ٣ ص ١٨٦، يتضمن هذا الكتاب سيرة الحسن الصباح منذ ولادته التى ذكر أنها حدثت فـى مدينـة الرى بعد أن هاجر والده من اليمن إلى الكوفة إلى قم ثم إلى الرى واسمه الحسن بن على بن محمد بن جعفـر بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميرى ، فهو ينتمى إلى قبيلة حمير . يذكر الحسن الصباح أنه كـان فـى بداية أمره يعتقد بما يعتقد به آباؤه وأجداده من مذهب الشيعة الإثنا عشرية وأنه كانت تدور بينه وبين شـخص يدعى أميره ضراب يؤمن بمذهب الباطنية مناظرات ومحاورات كانت تنتهى دائما بهزيمة الحـسن ظاهريـا، ولكنه آمن بمذهبهم سرا ثم يمضى فى سرد قصة اعتناقه مذهبهم وأخذه منـصب الإمامـة فيـه. وقـد أورد الجوينى لهذا الكتاب مختصرا فى المجلد الثالث من كتابه من ١٨٦ إلى ٢١٦ ، ونقل عنه رشـيد الـدين فـى المجلد الثانى من كتابه "جامع التواريخ" خلاصة أكثر تفصيلاً.

فهو يحتوى على معلومات قيمة عن هذا المذهب لا توجد فى أى كتاب قبله[1].

يقول صاحب جامع التواريخ إن علاء الدين كان مصاحبا لهولاكو فى أثناء توجهه إلى بغداد لمحاربة الخليفة المستعصم فى عام ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م فقال : سار هولاكو فى أوائل المحرم من سنة ٦٥٥هـ - ١٢٥٧/٥٨م بالجيوش فى القلب الذى يسميه المغول قول عن طريق كرمانشاه وحلوان، وكان فى ركابه كبار الأمراء : كوكا إيلكا وأرقتون وأرغون آقا، ومن الكتاب قراناى وسيف الدين البتكچى المدبر لشئون ملكه، والخواجة نصير الدين الطوسى والصاحب السعيد علاء الدين عطا ملك الجوينى مع السلاطين والملوك وكتاب بلاد إيران كافة [2].

ح- ولايته على بغداد :

عهد هولاكو بعد عام من فتح بغداد أى فى ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م إلى علاء الدين بحكومة بغداد، وقد نص الجوينى على ذلك صراحة[3].

وعلى هذا يكون ما أورده رشيد الدين من أن هولاكو قد فوض ملك بغداد لعلاء الدين عام ٦٦١هـ، وهى نفس السنة التى رفع فيها هولاكو شمس الدين محمد الجوينى بعد مقتل سيف الدين بيتكچى إلى منصب صاحب

---

(١) القزوينى - مقدمة جهان گشاى جـ١ كط - لح.

(٢) رشيد الدين - جامع التواريخ جـ٢ المجلد الأول - الترجمة العربية ٢٨١-٢٨٢. بينما يذكر نصير الدين الطوسى أن حركة هولاكو كانت من جانب همدان فى شوال ٦٥٥هـ وأن سوغونجاق نوين وباجيو سارا فى المقدمة فى قيادة الميمنة عن طريق إربل، عن طريق جبال شهرزور وساركيت لوقا نوين وأنكيا نوين فى قيادة المسيرة عن طريق كريت وبيات ولم يذكر الطوسى شيئا عن ملازمة عطا ملك لهولاكو والسلطان على قلب الجيش عن طريق كرمان شاه وحلوان، ذيل خولجة نصير الدين الطوسى على جهان گشاى ص ٢٨٢.

(٣) الجوينى - رسالة تسلية الإخوان ، نقلا عن مقدمة القزوينى - انظر الملحق رقم (١).

الديوان فى ممالكه[١]، يكون هذا القول لا أساس له من الصحة لأنه من البديهى أن يكون الجوينى أفضل من الآخرين فى الإطلاع والإخبار بأموره الخاصة، ثم إننا نرى أن ابن الفوطى يذكر أنه تولى الوزارة فى عام ٦٥٧هـ فيقول: وفى هذه السنة جعل شمس الدين محمد الجوينى صاحب ديوان الممالك، وعلاء الدين عطا ملك أخاه العراق وجعل معه عماد الدين محمد القزوينى[٢].

وظل علاء الدين عطا ملك حاكمًا على العراق طول مدة حكم هولاكو التى استمرت حتى وفاة هولاكو فى ١٩ من ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ - ١٢٦٥م[٣] على الرغم من أن هولاكو كان قد فوض فى عام ٦٦١هـ أمور الحكم فى ممالك العراق وخراسان ومازندران حتى نهر جيحون إلى الأمير أباقا نجله الأكبر والأفضل، وبعد تولى أباقا الحكم خلفا لأبيه فى ٣ من رمضان عام ٦٦٣هـ - ١٢٦٥م ظل شمس الدين فى منصبه الذى وليه فى عهد هولاكو وأعطى ممالك العراق وفارس للأمير سونجاق[٤]- أحد الأمراء المغول الكبار - ونصب علاء الدين فى حكم بغداد نيابة عن الأمير سونجاق، وفوض أمر أصفهان وغالبية ولايات العراق العجمى لبهاء الدين بن شمس الدين محمد الجوينى[٥].

وطوال مدة حكم أباقا التى استمرت ما يزيد عن سبعة عشر عاما من ٦٦٣ إلى ٦٨٠ هـ أى ١٢٦٥ إلى ١٢٨٢م كان علاء الدين نائبا عن الأمير سونجاق فى حكم بغداد، إلا أنه كان الحاكم الفعلى لبغداد لمدة عام آخر من حكم السلطان أحمد تكودار الذى خلف أباقا، الذى حدثت وفاته فى عهده وفقا لأصح الأخبار، وسأتناول حادثة وفاته فيما بعد.

---

(١) رشيد الدين – جامع التواريخ جـ٢ ص ٣٤٩ والترجمة العربية ص : ٣٣٨.
(٢) ابن الفوطى – الحوادث الجامعة والتجارب النافعة – حوادث سنة ٦٥٧هـ ص ٣٣٩.
(٣) المصدر السابق : ٣٣٨.
(٤) ذكر وصاف هذا الاسم على هذا النحو "سوغونجاق"، تاريخ وصاف، ص ٥٥ ، طبعة طهران.
(٥) رشيد الدين – جامع التواريخ ٤١٦. كاترمير.

ط- علاء الدين.. وزيرًا :

ظل علاء الدين طوال مدة حكمه مكرسا جهوده لتعمير البلاد، فقد خفف كثيرا من الضرائب عن الفلاحين، وأنفق الكثير من الأموال فى إنشاء القرى وقنوات الرى، وأجرى نهرا من الأنهار إلى النجف الأشرف وأنفق عليه مبالغ وافرة قدرت بمائة ألف دينار أو يزيد وأسست قرى بجانبه بلغت مائة وخمسين قرية فأضحت تلك الأراضى القاحلة مزارع ورياضا عامرة.

وبنى رباطا بمشهد الإمام على "كرم الله وجهه" فى النجف الأشرف، وبنى مدارس، ولم يمض وقت طويل على ولايته أمر بغداد حتى كانت بغداد والعراق العربى بعامة قد تغيرت أحوالهما بعد الخراب والدمار الذى أصابهما من الغزو المغولى فزرع الناس آمنين وتضاعف دخل العراق إلى درجة قيل فيها إن بغداد إبان حكم عطا ملك قد أضحت أكثر عمارا مما كانت عليه أيام الخلفاء العباسيين[١].

وقد وردت له تراجم كثيرة فى أكثر الكتب العربية المؤلفة فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين[٢]، وأوفى هذه التراجم ما ذكره الذهبى، فضلا عن أنها أقربها إلى حياته، فقد وقف المؤلف فى تأليفه حتى عام ٧٠٠هـ وتوفى سنة ٧٤٨هـ.

وهناك اختلافات بينهما تتعلق بالسنة التى توفى فيها علاء الدين، وسأذكرها حين أتحدث عن وفاة المؤلف فيما بعد.

---

(١) يرجع إلى ما كتبه ابن الفوطى فى كتابه الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، فقد أرخ فيه لأعمال علاء الدين عطا ملك سنة بعد أخرى، وهو خير مرجع يتعلق بأعمال الجوينى وحياته. كذلك الذهبى فى كتابه تاريخ الإسلام جـ٢١. ترجمة علاء الدين عطا ملك.

(٢) الذهبى – تاريخ الإسلام جـ٢١، ابن تغرى بردى – المنهل الصافى جـ٤ ت، ٨٦٤ هـ ابن شاكر الكتبى – فوات الوفيات جـ٢ ١٨٧ الصقاعى – تالى وفيات الأعيان. النويرى – نهاية الأرب جـ٢١.

ى- المكائد التى تعرض لها :

ابتلى علاء الدين منذ توليه أمر بغداد بمكائد عديدة ومصائب شتى، وقد نسجت خيوط المكائد بعد عام واحد من حكمه لبغداد، ففى عام ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م[١] دبر له على بهادر شحنة بغداد وعماد الدين القزوينى وجماعة أخرى من صدور العراق مكيدة ثبتت عليه، ورفعوا أمره إلى السلطان الذى أمر بقتله ثم سئل التخفيف فأمر بحلق لحيته، فكان يجلس فى الديوان ويستر وجهه، ثم صدر أمر بالعفو عنه فى العام التالى، فقال الصاحب شمس الدين لعلى بهادر شحنة بغداد: "الشعر إذا حلق نبت، والرأس إذا حلق لم ينبت"، ودبر قتله[٢].

وهناك مكائد أخرى لم تثبت عليه بلغ بعضها حد الاغتيال[٣]. ومن أكبر المكائد التى تعرض لها علاء الدين المكيدة التى دبرها مجد الملك اليزدى والتى لم ينج منها سوى فى الأيام الأخيرة من حياته، وأفضل من يصور ذلك علاء الدين عطا ملك نفسه فى رسالته التى تعرف باسم تسلية الإخوان، والثانية متممة للأولى ولا عنوان لها. ويذكر القزوينى[٤] الذى اطلع على الرسالتين أن الجوينى لم يذكر اسم مجد الملك فى أثناء حديثه بهاتين الرسالتين تحقيرا له وازدراء، ونظرا إلى أن هاتين الرسالتين أفضل ما يصور حال عطا ملك فى أثناء تلك المحنة، فقد أثبت ترجمةً لخلاصتيهما كما ذكرها القزوينى فى رسالتى للحصول على درجة الدكتوراه[٥].

وآخر وقائع الرسالة الثانية يتعلق بقتل مجد الملك وأعوانه، ويذكر صاحب جامع التواريخ[٦] أن قتله قد حدث فى يوم الأربعاء الثامن من

---

(١) ابن الفوطى - الحوادث الجامعة - حوادث سنة ٦٥٨، ص ٣٤٣.
(٢) ابن الفوطى - حوادث سنة ٦٥٩ ص ٣٤٦.
(٣) ابن الفوطى - حوادث سنة ٦٢٢ وسنة ٦٦٨ ص ٣٥٠-٣٦٧.
(٤) القزوينى - مقدمة جهان گشاى جـ١ كت - لح.
(٥) انظر الملحق رقم (٢).
(٦) رشيد الدين - جامع التواريخ جـ٢.

جمادى الأولى سنة ٦٨١هـ الموافق ١٤ من أغسطس سنة ١٢٨٢م، ولما كانت وفاة علاء الدين قد حدثت وفقا لأصح الأقوال فى الرابع من شهر ذى الحجة من نفس العام – بعد أن ظل حاكما لبغداد أربعة وعشرين عاما، ما يقرب من ست سنوات فى عهد هولاكو من ٦٥٧ إلى ٦٦٣هـ، وسبعة عشر عاما طوال حكم أباقا من سنة ٦٣٣ إلى سنة ٦٨٠هـ، وما يقرب من عام واحد من حكم السلطان أحمد – فإنه يتضح أن علاء الدين قد انتهى من تأليف هذه الرسالة قبل وفاته بستة أشهر تقريبا، وهى آخر عمل له.

ك- وفاة علاء الدين الجوينى :

بعد جلوس تـكودار بن هولاكو على عرش السلطة نشبت بينه وبين ابن أخيه أرغون أباقا بن هولاكو خلافات شديدة حول أحقية كل منهما فى السلطة. ونظرًا إلى أن شمس الدين الجوينى وأخاه علاء الدين كانا من أنصار تكودار، وهو المعروف فى التاريخ باسم السلطان أحمد، فقد دبت العداوة بينهما وبين أرغون، ويضاف إلى هذا ما ذاع من شائعات حول إقدام شمس الدين الجوينى على دس السم لأباقا والد أرغون مما زاد الأمر سوءًا[1]. وكان هذا إيذانا بأفول نجم أسرة الجوينيين، فيذكر رشيد الدين[2] أن أرغون توجه فى شهور سنة ٦٨١هـ قاصدا المشتى من خراسان إلى بغداد، فلما وصل إلى هناك طلب أفراد أسرة علاء الدين وأتباعه، وقبض عليهم واستولى على أمتعتهم وعنّفهم، ثم أمر بنبش قبر نجم الدين الأصغر الذى كان نائبا عن علاء الدين فى حكم بغداد – وكان قد توفى حديثا – وألقوا بجثته على قارعة الطريق، فلما علم علاء الدين بما جرى – وكان آنذاك مختفيا هو وأخوه شمس الدين – اعتراه صداع شديد أودى فى النهاية بحياته حيث دفن بها فى مقبرة جرنداب[3].

---

(١) تاريخ وصاف ١١٩.

(٢) رشيد الدين – جامع التواريخ جـ٢.

(٣) وصاف ١٤٢-١٤٣.

ويؤيد هذا ما ذكره ابن الفوطى، فقد ذكر أن وفاته حدثت فى أران فى الرابع من ذى الحجة سنة ٦٨١ حيث وقع عن ظهر جواده[١].

وقد عيَّن السلطان أحمد – الذى كان قد تولى السلطة آنذاك – الخواجة هارون بن شمس الدين الجوينى ابن أخيه مكانه فى حكم بغداد[٢].

ولعل ذكر أرغون وسفره إلى بغداد وطلبه لأقارب عطا ملك هو الذى حدا بالمؤرخين العرب إلى الاعتقاد بأن وفاته قد حدثت فى عهد أرغون، وهذا سهو واضح[٣] إذ أجمعت المصادر القريبة من عهده على أن وفاته كانت فى أوائل حكم السلطان أحمد، أى قبل جلوس أرغون على العرش بسنة ونصف تقريبا، فقد تولى أرغون الحكم فى جمادى الأولى سنة ٦٨٣هـ.

فنرى الصقاعى[٤] يقرر أن علاء الدين وأخاه اختفيا بعد ولاية أرغون السلطة وطلبهما أرغون، ولكن علاء الدين توفى بعد شهر وهو مختف.

وطبقا لهذا القول تكون وفاة علاء الدين قد حدثت فى نهاية عام ٦٨٣هـ وأوائل سنة ٦٨٤ هـ، ويقرر ابن شاكر الكتبى[٥] أن علاء الدين توفى فى عام ٦٨١ هـ بعد اختفائه بشهر، ويضيف أن وفاته قد حدثت فى عهد أرغون، ويذكر هذا الرأى أيضا ابن تغرى بردى[٦]، ويقرر النويرى أن وفاته قد حدثت فى عام ٦٨٠هـ فيقول :

"وفى سنة ثمانين وستمائة أيضا كانت وفاة علاء الدين الجوينى صاحب الديوان، وكان قد تمكن فى دولة التتار تمكنا عظيما بسبب أخيه شمس الدين، فقد كان المشار إليه"[٧]. وقرر الذهبى فى تاريخ الإسلام أن

(١) ابن الفوطى – الحوادث الجامعة – حوادث سنة ٦٨١.
(٢) ابن الفوطى – حوادث سنة ٦٨٢.
(٣) القزوينى – مقدمة جهان كشاى قيط.
(٤) الصقاعى.
(٥) ابن شاكر – وفيات الوفيات جـ٢ ص ٤٥.
(٦) ابن تغرى بردى – المنهل الصافى جـ٤ حرف ع.
(٧) النويرى – نهاية الأرب جـ ٢٩.

علاء الدين توفى فى عهد أرغون بن أباقا بعد اختفائه بشهر فيقول :

"وهناك مات أباقا ومنكوتمر، وكان قد انصلح أمر علاء الدين فى أيام الملك أحمد، فلما ملك أرغون بن أباقا طلب الأخوين فاختفيا، وتوفى علاء الدين فى الاختفاء بعد شهر"[١].

ل- بقية أسرة علاء الدين الجوينى

سبقت الإشارة إلى شمس الدين الجوينى أخى المصنف، وقد كان منذ أواخر عهد هولاكو وكل حكم ابنيه أباقا وتكودار المعروف بالسلطان أحمد أى ما يقرب من اثنين وعشرين عاما (٦٦١إلى٦٨٣هـ، أى ١١٦٣ إلى ١٢٨٤م)، كان الوزير الأعظم فى الدولة وصاحب اليد الطولى فى تدبير وإدارة جميع البلاد والممالك الواقعة غرب نهر جيحون، وقد بلغت ثروته حدا كبيرا لدرجة أنها كانت فى اليوم الواحد تومانا (عشرة آلاف دينار)[٢]. وقد ذكر وصاف[٣] وصاحب تاريخ گزبدة حكايات كثيرة عن كرمه وحبه للشعر ورعايته للشعراء ، وقد قتل فى الرابع من شعبان سنة ٦٨٣هـ - ١٦ من أكتوبر سنة ١٢٨٤م قرب آهر، (فى قراجة داغ) بأمر من أرغون بن أباقا، ولحق به بعد مدة وجيزة أبناؤه الأربعة يحيى وفرج الله ومسعود وأتابك[٤]، ثم قتلوا حفيده على بن خواجة بهاء الدين بن شمس الدين سنة ٦٨٨هـ ١٢٨٩م فى كاشان، ويذكر رشيد الدين أن مقبرته قد أضحت فيما بعد مزارا يطاف به[٥].

وقد ابتُلى محمود أخو على بمرض الخفقان من شدة الخوف ومات فى أواخر عهد كيخاتو. وقد أحضر منصور بن علاء الدين عطا ملك من الحلة حيث كان آنذاك وقتلوه على جسر بغداد.

---

(١) الذهبى - تاريخ الإسلام.
(٢) حمد الله المستوفى - تاريخ گزيده جـ١ - ٥٨٤.
(٣) وصاف - تاريخ وصاف ١٤٠-١٤٣.
(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٣.
(٥) رشيد الدين - جامع التواريخ جـ٢ ٣٢٦، نقلا عن مقدمة القزوينى لجهان گشاى.

ويذكر صاحب تاريخ وصاف أنه زار تبريز في عـام ٦٩٢هـــ - ١٢٩٣م وزار مقابر شمس الدين وأخيه علاء الدين وأولادهما السبعة وهـي في جرنداب تبريز ونقل في كتابه بعض الأشعار التي وجدها على قبـورهم والتي أنشدها أحد فضلاء العصر حينذاك، ومطلعها :

يا چرانداب من مقابر تبريـ ـز سقاك الحيا الملثُّ الهامِي[1]

وكان شرف الدين هارون بن شمس الدين يعد واحـدا مـن أفاضـل عصره وكان مجلسه مجمعا للعلماء والفضلاء في كل فرع، وقد تزوج رابعة بنت ولي العهد أبي العباس أحمد بن المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين[2] وهي المعروفة بالسيدة النبوية، وأنجب منها أولاده الـذين سـماهم بأسـماء الخلفاء العباسيين، وقد قتل في جمادى الآخرة سنة ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م بأمر من أرغون بن أباق[3]، وقد توفيت زوجته في نفس يوم وفاته ولم يعلم أحـد منهما بالآخر.

وتوفي بهاء الدين محمد بن شمس الدين في عام ٦٧٨هـ إبان حيـاة والده، وكان حاكما على أصفهان ومعظم ولايات العراق العجمي في أثنـاء حكم أباقا، ويذكر وصاف أنه كان مشهورا بالصرامة وقلة العفو وكثرة سفك الدماء[4].

وتزوجت إحدى بنات علاء الدين عطا ملك في ٧١ هـــ - ١٢٧٢م بالإمام الجليل الشيخ صدر الدين أبو المجاشع إبراهيم بن الشيخ سعد الـدين محمد بن المؤيد حموية الجويني الشافعي سنة ٧٢٢هـ، وهو الذي أسلم على يديه غازان خان بن أرغون بن أباقا سنة ٦٩٤هـ، وقد أسلم تبعا له جميـع

---

(١) وصاف ١٤٢-١٤٣.

(٢) قتل مع والده وأخيه على يد هولاكو في ٤ من صفر سنة ٦٥٦ - ١٢٥٨. براون، الترجمة العربية لتـاريخ الأدباء في إيران، جـ٢ - ٥٨٦.

(٣) حمد الله المستوفي - تاريخ گزيدة جـ٢ ص٤٨٥.

(٤) وصاف ص ٦٠-٦٥.

أمراء وجيش المغول الذين يبلغ عددهم مائة ألف رجل، ومنذ ذلك التـــاريخ أصبح الإسلام هو الدين الرسمي للمغول في إيران بعد عبادة الأوثان.

وقد توفي الشيخ صدر الدين في عام ٧٢٢هـ - ١٣٢٢إلـى١٣٢٣م بعد أن عاش منعما في حكم غازان[١].

والواقع أن هذه الأسرة تشبه في كثير من الوجوه أسرة البرامكة، فقـد نالت من الرفعة والمناصب المهمة ما نالته أسرة البرامكـة، وقـد انتهـت نهايتها، وكانت أسرة الجوينيين فضلاً عن حبها للأدب والأدباء وانخراطهـا في سلكه راعية للعلماء والفضلاء مثلها مثل أسرة البرامكة في عهد الخلفـاء العباسيين. وقد أغدقوا عليهم الكثير من الجوائز فألفوا بأسمائهم تأليفات قيمة وخلد القراء المشهورون مدائحهم في دفاتر الأيام، وسأكتفي بذكر بعضهم كما ذكرهم القزويني في مقدمته[٢] :

من بين هؤلاء الخواجة نصير الدين الطوسي ت ٦٧٣هـ، فقد ألـ.. رسالة بالفارسية أسماها "أوصاف الأشراف"، وهي في سير الأولياء وأسلوب السالكين، وقد ألفها باسم شمس الدين محمد الجويني، ثم قام بترجمة كتـاب الثمرة لبطليموس[٣] إلى اللغة الفارسية، وهو كتاب في النجوم، وقدمه إلـى الخواجة بهاء الدين محمد بن شمس الدين الجويني، وذلك مذكور في مقدمـة هذين الكتابين.

وثاني هؤلاء هو صفي الدين عبد المؤمن الأموي، وكان واحـدا مـن أشهر الخطاطين وكان من نوابغ عصره في الموسيقى، بل وكـان معـدودا ضمن أحسن الخطاطين مثل ابن مقلة وياقوت وغيرهما، وقد أثنى عليه ابن

---

(١) ابن تغري بردي - المنهل الصافي جـ١ تحت اسم إبراهيم بن محمد.

(٢) القزويني - مقدمة جهان گشاي جـ ١ ص : س د.

(٣) يذكر القزويني أن ترجمة هذا الكتاب تمت في التاسع من جمادى الأولى سنة سبعين وستمائة، وتوجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الأهلية بباريس، وقد كتبت هذه النسخة في ربيع الأول سنة ٦٧١هـ أي بعد عام واحد من ترجمة الكتاب - المقدمة ، ص هـ.

تغرى بردى فى ترجمته له كثيرا، وله فى الموسيقى تأليفات كثيرة، وقد التحق بخدمة هولاكو بعد فتح بغداد، وضاعف له هولاكو ما كان يتقاضاه من العباسيين بعد استماعه لأنغامه، وقرر له عشرة آلاف دينار سنويا من عوائد بغداد، ثم أضحى بعد ذلك واحدًا من خاصة وندماء علاء الدين عطا ملك وأخيه شمس الدين الجوينى، وقد نصبوه فى منصب الإشراف على ديوان الإنشاء فى بغداد، إلا أنه توفى فى السجن فى ٢٨ من صفر سنة ٦٩٣ هـ بعد القضاء على الجوينيين، وقد ألف رسالة فى الموسيقى تعرف باسم "الرسالة الشرفية"، باسم شرف الدين هارون بن الخواجة شمس الدين الجوينى[١].

وثالث هؤلاء هو كمال الدين ميثم بن على ت ٦٧٩ هـ، وقد ألف كتابه المعروف "شرح نهج البلاغة" باسم علاء الدين عطا ملك الجوينى.

ورابع هؤلاء نظام الدين الأصفهانى صاحب كتاب شرف إيوان البيان فى شرف بيت أصحاب الديوان ، وقد ألف هذا الكتاب كما يتضح من اسمه فى مدح هذه الأسرة، وهو كتاب يشمل مجموعة من القصائد والأشعار فى شمس الدين محمد الجوينى وأخيه علاء الدين ووالدهما بهاء الدين محمد. ومن الشعراء الذين كانوا معاصرين للأخوين الخواجة همام التبريزى[٢] الذى ضمن ديوانه مدائح كثيرة لهما، وقد ألف باسم الخواجة شرف الدين هارون بن شمس الدين الجوينى منظومة على نسق خسرو وشيرين للنظامى الكنجوى أسماها صحبت نامه.

ويأتى الشيخ سعدى الشيرازى على رأس قائمة الشعراء الذين مدحوا

---

(١) ابن تغرى بردى – المنهل الصافى جـ٤ حرف ع. وصاف ص ٤٣، ابن شاكر فوات الوفيات جـ٢ ص ١٨-١٩.

(٢) هو مولانا همام الدين بن علاء التبريزى، وكان من أدباء أذربيجان وشعرائها المشهورين وكان ماهرا فى فن الغزل على الخصوص، وتتبع آثار سعدى واعترف له برقة عباراته، ويحتوى ديوان همام التبريزى قرابة ألف بيت من الشعر، وتوفى بتبريز سنة ٧١٣هـ. تاريخ الأدب فى إيران – رضا زادة – الترجمة العربية، صفحة : ١٥٥-١٥٦.

الجوينيين، وله فى مدائحهم قصائد غرّاء[1]. ومن جملة هذه القصائد قصيدته فى مدح علاء الدين عطا ملك الجوينى[2] ومطلعها :

إن كل إنسان لا تتحد نظرته وقلبه تجاه الأشياء

لا يمكن أن يعطى صورة حقيقية لأى شىء

وقد أثنى عليه فى هذه القصيدة ثناء عاطرا فقال[3] :

يجب أن لا نحمل قصصا أو نتحدث إلا عن صاحب الديوان العالم العادل علاء الدولة والدين صاحب المنصب والسلطة سحاب الرأفة ومزن الرحمة العميم. إن كفه كريمة وعطاءه عميم فلا غرو إذا ما اختفى ذكر حاتم وأمثاله أمام كرمه ولطفه.

وله قصيدة أخرى مطلعها[4] :

إذا أراد شخص إن يشاهد أطيب الجنات فليأت وليشاهد أفضل البقاع، فهى بمنزلة الربيع من الفصول، إن البلبل الذى يشدو على الورود والرياحين إنما يدعو مثله مثل السندى للصاحب علاء الدولة والدين وزير المشرق والمغرب، أمير مكة ويثرب. إنه حفيظ أمين لا نظير له فى أية بقعة من البقاع.

لقد استقر الأمن فى عهده وساد الهدوء، فلا عجب إذا لم تعد ترى سوى أصحاب السواعد النضرة والعضد الفتى.

---

(١) تارخ الأدب فى إيران – الترجمة العربية، ص ١٤١.

(٢) هرادمى كه نظر بايكى ندارد بود ... بصورتى ندهد صورتى است لا يعقل

(٣) بهيج خلق نبايد كه قصه بردراى ... مگر يصاحب ديوان عالم عادل

سپهر منصب وتمكين علاء دولت ودين ... سحاب رأفت وباران رحمت وابل

كف كريم وعطاء عميم أونه عجب ... كه ذكر حاتم وأمثال أوكند باطل

(٤) أكر مطالعه خواهد كسى بهشت برين ... رابيا مطالعه كن كوبنهوبهارزمين را

ومنها فى مدحه :

هزارد ستان برگل سخن سراى جو سعدى ... دعاى صاحب عادل علاء دولت ودين را

وزير مشرق ومغرب أمير مكه ويثرب ... كه هيچ ملك ندارد چو حفيظ وامين را

بعهد ملك وى اندرنماند دست تطاول ... مكر سواعد سيمين وبازوان سمين را

م – آثار عطا ملك

ترك علاء الدين عطا ملك بالإضافة إلى جهان گشاى رسالتين أخريين، تعرف الأولى باسم تسلية الإخوان[1]، وهى رسالة تحوى تفصيلات كثيرة عن المصائب والمحن التى تعرض لها فى أخريات أيامه على يد مجد الملك اليزدى منذ بداية عام ٦٨٠هـ حتى خلاصه من السجن بأمر من أباقا خان فى الرابع من رمضان سنة ٦٨٠ هـ. وهذا يدل على أن هذه الرسالة قد كتبت بعد هذا التاريخ، وتوجد نسخة من هذه الرسالة فى المكتبة الأهلية بباريس[2].

---

(١) يذكر كاترمير Quatremere فى كتابه Mines de lorient كنوز الشرق، أن هذه الرسالة كتبت باللغة العربية، ويعلق القزوينى على ذلك بقوله : إن كاترمير لم يواصل هذه الرسالة ولهذا حكم هذا الحكم الخاطئ، ذلك أن هذه الرسالة والرسالة الثانية قد كتبتا باللغة الفارسية المحلاة بالأشعار والأمثال العربية (انظر الملحق رقم ٣٢٢).
ويذكر القزوينى أيضا أن شيفر قد قرأ هذا الاسم "تثليث الإخوان" La trinte des freres وهذا خطأ بدوره، ذلك أن شيفر لم يعلم أن هذه الرسالة هى نفس رسالة تسلية الإخوان الملحقة بآخر إحدى نسخ جهان گشاى كان يمتلكها (وهى الأن فى المكتبة الأهلية بباريس) والتى قال عنها إنها من تأليف شمس الدين الجوينى وأسماها تبصرة خازن، وقد كتبها لأولجاى خاتون "زوجة أباقا" شارحا فيها أحواله للتوسط لدى زوجها للعفو عنه.

(٢) هذه الرسالة ملحقة بالنسخة ج من نسخ جهان گشاى وتشمل هذه النسخة على ٢٤٦ ورقة ينتهى متن جهان گشاى عن الورقة ٢١٨ وتحوى الأوراق الباقية ثلاث رسائل، الأولى كتبها نصير الدين الطوسى تذييلا لجهان گشاى عن فتح بغداد على يد هولاكو من الورقة ٢١٨ إلى ٢٢٠، والثانية رسالة تسلية الإخوان من ٢٢٠ إلى ٢٣١. والثالثة فى تاريخ الدولة السلجوقية وهى اختصار لكتاب راحة الصدور لابن الراوندى وهى من ٢٣١ إلى ٢٦١. القزوينى مقدمة جهان گشاى.

ويقول القزوينى أيضا: و"الدليل على أن هذه الرسالة هى تسلية الإخوان..." وأشار كثيرا إلى مضامينها أو إلى كثير من الأبيات الموجودة فيها، فيقول فى الرسالة الثانية الورقة ٣ جون ودر رسالة تسلية الإخوان: " إن أحوال تصاريف شمه أعلام رفته است وإذ عقب ان نواخت ومرحمتى كه بتدكى ابلخان فرموده بزبان أقلام كفته".
ثم إن موضوع رسالة تسلية الإخوان هو نفس هذا الموضوع دون زيادة أو نقصان. ويقول فى الرسالة الثانية أيضا الورقة (١٢):
"أى دل يابياتى كه در تسلية الإخوان إيراد كرده برزانت وثبات خودرادر افاق مشهورة كرده وآز جملة آن أبيات اين دوسه است :

والرسالة الثانية لا عنوان لها[1]، وهى مقدمة للرسالة الأولى، فالأحداث فيها تسير بلا فاصلة، وقد استمرت وقائعها حتى اعتلاء السلطان أحمد العرش وقتل مجد الملك اليزدى، وتم تأليف هذه الرسالة قبيل وفاة المؤلف بستة أشهر تقريبا وهى آخر أثر من آثاره.

---

* ترانى ثابتا جأشا إذا ما ... جيوش الحادثات عزمن أمرا
إذا دكت جبال الصبر دكا ... ترى منى فؤادا مستقرا
وإن شاهدت فى صبرى فتورا ... جعلت عزيمتى للصبر أزرا

اكنون شايد كويندت ع، بيك حمله بركشتى از كارزار، ونامت ننك كردو درميان ابناء روزكار".
انتهى باختصار، أى أنه يجوز أن يقول لك إنك قد عدت من المعركة مرة واحدة وتلطخ اسمك بالعار بين أبناء الزمان.
ويقول القزوينى : وفى الحقيقة إذا كانت النسخة التى بين أيدينا لتسلية الإخوان، لا تحوى هذه الأبيات بعينها فإن مطلع هذه القصيدة مع بيتين آخرين قد ذكرت فيها، وها هو يخاطب أخاه شمس الدين (تسلية الإخوان ٢٢٧) :

لئن نظر الزمان إلى شزرا ... فلا تك فى ضيق أفديك صدرا
وكن بالله ذا ثقة فإنى ... أرى لله فى ذا الأمر سرا
زمان إن رمانى لا أبالى ... فقد ما رسته عسرا ويسرا

وقد ذكرت هذه القصيدة كاملة فى وصاف ١٠١-١٠٢.
ومما يؤيد أن هذه الرسالة لعطا ملك أيضا ما نعلمه من التاريخ من أن عطا ملك هو الذى ابتلى بمجد الملك وليس أخاه شمس الدين.
ويقول أيضا فى الورقة ٣٥ : غرض أزين مقدمة آنست كه جون دررساله تسلية الإخوان دعوى اعتزال وانزوا واكردم وغزيمت رغبت متوجه بجانب جلال وكبريا نموده بر خلاف آن نيت مباشرت امور دنيا نمودن وممارست مهام ديوانى كردن بحقيقت ويقين نقض سيحان است... الخ.
وهذا بيمان والمضمون الذى تعبر عنه تسلية الإخوان فهو يقول فى رسالة تسلية الإخوان بعد أن شرح خلاصه من الأسر، الورقة ٢٥ : اكنون جون مساعدت سعادت وموافقت توفيق باشد چنانكه در خاطررا سخ است ودر نيت ثابت:

بعد ازدست ما ودا من دوست ... پس أزين كوش ما وحلقه بار

هيهات هيهات بعد ازين ع من ازكجا سخن سر مملكت زكجا؟ انزور واعتزال راكه اختبار رفته است ، شعار حال ودثار بال خويش خواهد كردانيد وخود مدت عمر اكر تاخير كشد توان دانست تاچند باشد.

(١) هذه الرسالة موجودة فى بداية النسخة زمن جهان كشاى من الورقة (١) إلى (٤١)، وهذه النسخة ناقصة فهى لا تحوى المجلد الأول والثالث والأول من المجلد الثانى، وتبدأ بالعبارة التالية "بس اى يار موافق ودوست متفق درين معانى كار شبهه دارى".

ن - جهان گشاى

يقع الكتاب فى طبعة سلسلة جب فى ثلاثة مجلدات[1]، ويرجِّح هذا الرأىَ الأدلةُ الآتية:

أولا : إضافة الفصل المختصر الذى كتبه خواجة نصير الدين الطوسى لفتح بغداد إلى نهاية الجزء الثالث الذى ينتهى بالقضاء على الإسماعيلية فى آلموت والحديث عن آخر حكامهم ركن الدين خورشاه، وجعله نيلا لجهان

---

(١) اختلف الباحثون حول وضع ترتيب جهان گشاى، فمنهم من يرى أن الكتاب يقع فى أربعة مجلدات، ومن هؤلاء بلوشيه الذى اعتقد أن الرسالة الثانية من رسائل عطا ملك ما هى إلا جزء من أجزاء جهان كشاى (ويذكر القزوينى فى مقدمة الجزء الأول أن بلوشيه ذكر هذا الرأى فى فهرسه الخاص بالنسخ الفارسية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس من ٢٧٨ إلى ٢٨٧. وقال فى صفحة ٢٧٩: ويشتمل المجلد الرابع من جهان كشاى على الأحداث والوقائع التى حدثت فى مملكة المغول بإيران حتى عام ٦٨١هـ).
ويعلق القزوينى على هذا الرأى بقوله : وهذا سهو واضح، ذلك أن المجلد الثالث من جهان گشاى ينتهى بفتح قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم فى عام ٦٥٥هـ ومنذ هذا التاريخ حتى وفاة أباقا خان وجلوس السلطان أحمد على العرش فى عام ٦٨١هـ ما يقرب من ستة وعشرين عاما لم تذكر هذه الرسالة شيئا من أحداثها، وكل ما هو موجود بها إنما يتصل بحياة عطا ملك وبالأحداث التى مرت به فى أواخر أيامه ، النصف الأولى من سنة ٦٨١هـ. وما ذكره عطا ملك عن جلوس السلطان أحمد على العرش بعد وفاة أباقا والذى استغرق صفحتين أو ثلاثًا من الرسالة لم يُذكر لذاته وإنما لتوضيح بعض أحداث حياته.
وإذا كانت هذه الرسالة هى الجزء الرابع من جهان گشاى فما العلة التى يمكن تصورها لترك علاء الدين للأحداث والوقائع الأخرى التى حدثت بعد القضاء على الإسماعيلية والانتقال فجأة إلى الحديث عن أباقا خان وتولية السلطان أحمد مقاليد الحكم من بعده؟ وكيف يمكن له غضّ الطرف عن أحداث تلك الفترة الطويلة؟
وإذا افترضنا أن هذه الرسالة جزء من أجزاء جهان گشاى فإنها لا يمكن أن تكون المجلد الرابع، وإنما يمكن اعتبارها المجلد الخامس أو السادس للكتاب، ويكون الجزأن اللذان تضمنا أحداث تلك الفترة قد ضاعا ولم يعثر لهما على أثر، وأعتقد أن حدوثه أمر مستبعد.
وربما كان السبب الذى أدى ببلوشيه إلى هذا القول ما هو مذكور فى نهاية هذه الرسالة، "تمت كذا" الكتاب المرسوم بتاريخ جهان كشاى جوينى (كذا) بعون الله وتوفيقه.
ويبدو أن النسخة التى نقلت عنها هذه الرسالة قد ذكرتها بعد جهان گشاى مباشرة. ويقول القزوينى إن كاتب هذه النسخة كان على درجة كبيرة من الجهل والأمية، يدل على ذلك أخطاؤه الكبيرة فى كتابتها. ونتيجة لجهله هذا فقد توهم أن هذه الرسالة جزء من جهان گشاى.

گشاى، وثابت تاريخيا أن الطوسى كان ملازما لهولاكو والجوينى فى أثناء فتح قلاع الإسماعيلية وفتح بغداد، ويوجد هذا المختصر فى ثلاث[1] فقط من نسخ الكتاب الثلاث عشرة، وعلى الرغم من هذا فإذا كان عطا ملك قد دون الحوادث بعد القضاء على الإسماعيلية وأحوال ركن الدين "خورشاه" آخر حكامهم تكون إضافة هذا الذيل أو المختصر إلى نهاية المجلد الثالث أمرا لا محل له.

ثانيًا : يقول صاحب تاريخ وصاف[2] : إن تاريخ جهان گشاى للجوينى هو كأس الدنيا التى تظهر المعانى فى وضوح وجلاء يشتمل على أحوال دولة المغول والسلاطين الآخرين، وملوك البلاد الأخرى الذين كانوا معاصرين لحكمهم منذ بداية خروج السلطان فاتح العالم جنكيز خان حتى وقت فتح بلاد أهل الإلحاد على يد المواكب الغفيرة لهولاكو خان.

ومن هذا نرى أن وصاف قد حدد تاريخ جهان گشاى منذ ظهور جنكيز خان حتى القضاء على الإسماعيلية.

ثالثًا : إن صاحب تاريخ وصاف يعتبر كتابه ذيلاً لتاريخ جهان گشاى[3]، ويوضح ذلك صراحة فى مقدمته، ويبدأ كتابه بالحديث عن فتح بغداد ٦٥٦م وينتهى بأحداث سنة ٧٢٨ هـ، أى أنه يبدأ حيث انتهى المجلد الثالث من الكتاب، فإذا كان الجوينى قد دون الأحداث التى حدثت بعد عام ٦٥٥هـ لكان لزاما على وصاف أن يبدأ حيث انتهى الجوينى لا من عام ٦٥٦هـ كما بدأ.

---

(١) أ- النسخة ج، ويرجع تاريخها إلى عام ٦٨٩هـ.

ب- النسخة ل، ويرجع تاريخ كتابتها إلى ١٥ من شوال وتقع فى ٢٣٦ ورقة.

ج- النسخة م، وهى نسخة جديدة بتاريخ ١٣٤٣هـ. بخط مجتبى مينوى وتحوى المجلد الثالث وقد كتبها عن نسخة جديدة بتاريخ ١٣٠٣هـ، وهى بدورها منقولة عن نسخة أخرى يرجع تاريخها إلى ٦٩٨هـ.

(٢) تاريخ وصاف ٤.

(٣) تاريخ وصاف ٦.

وقد لخص وصاف المجلدات الثلاثة وألحقها بنهاية الجزء الرابع من كتابه وأنهاه بها(١).

ومنهم من يرى أن الكتاب يقع فى مجلدين لا ثلاثة، ويعتبر المجلدين الأول والثانى الحاليَّن مجلدا واحدا، ومن هؤلاء كاترمير(٢) فى أثناء حديثه عن حياة عطا ملك ودوسون فى كتابه تاريخ المغول(٣)، وهورث Howorth(٤) فى مقدمة كتابه.

ولعل السبب فى هذا يرجع إلى اطلاع كاترمير ودوسون على نسخة جهان گشاى التى كانت موجودة آنذاك بالمكتبة الأهلية بباريس والتى لا تفصل بين المجلدين الأول والثانى. وكتب فى نهايتها: تمام شد مجلد أزجهان گشاى جوينى ولله الحمد.

ولهذا اعتبر المجلد الثالث ما هو إلا المجلد الثانى للكتاب.

وبالنسبة إلى هورث Howorth فقد ألف كتابه بعدهما بفترة، ومن الجائز أن يكون قد اطلع على كتاب أحدهما فتابعه فى الرأى أو اطلع على نفس النسخة التى اطلعا عليها.

ولم ينته براون إلى رأى محدد وإن ذكر فى كتابه "تاريخ الأدب فى إيران" أن الكتاب يقع فى ثلاثة مجلدات(٥) وإن كان قد ناقش هذا الموضوع قبل ذلك وقام بدراسة مقارنة بين نسخ الكتاب المختلفة(٦) ووجد أن بعضها يذكر الكتاب فى مجلدين وأخرى فى ثلاثة. وقد اطلعت على بعض النسخ

---

(١) وصاف من ص ٥٥٨ إلى ٥٩١ : تهران ١٣٣٨.

(٢) Mines de le Orient 222-234, 1809 .

(٣) الترجمة التركية موغول تاريخى مصطفى رحمى ٤، إستانبول ١٣٤٠.

(٤) The History of the Mongols P. XXV-1, London 1927 .

(٥) براون – تاريخ الأدب فى إيران جـ٢ الترجمة العربية ، ص : ٦٠٠.

(٦) J.R.A.S. Jen 1904 : Notes on the contents of Tarih-i-Gihan Cushei .

الموجودة فى المكتبات التركية ووجدتها كما ذكر براون وكما شرحها القزوينى فى مقدمته، فأغلب النسخ تقع فى ثلاثة مجلدات عدا ثلاث نسخ[١]، وإن كانت النسخة قد جمعت بين المجلدين الأول والثانى وكتبت فى نهاية المجلد الأول الحالى "تمام شد أز تاريخ جهان گشاى"، وكتب فى نهاية المجلد الثانى الحالى : "تمام شد جلد أول بعون الملك الأجل".

وبالإضافة إلى النسخ التى جمعت بين المجلدين نجد شواهد أخرى تؤيد الرأى القائل بأن الكتاب يقع فى مجلدين اثنين فقط ومن ذلك قول عطا ملك نفسه فى بداية المجلد الثالث الحالى:

نظرًا إلى أنه قد سُجِّلت فى المجلد السابق أحوال جنكيز خان وسيطرته على الأقاليم المختلفة، وجلوس القا آن وكيوك خان والوقائع التى حدثت فى عهدهما حسبما هو معروف وذكر فيه أحوال سلاطين خوارزم وغيرهم من ملوك الأمصار على قدر ما هو معلوم منذ بداية أمره حتى انتهاء عصر كل منهم، الآن نتحدث فى المجلد الآخر عن جلوس سلطان العالم منكو قا آن والأمور والأحوال التى حدثت وتحدث فى عهده، وعن تحرك الأمير هولاكو إلى البلاد الغربية، وعن كيفية أحوال كل واحد من ملوك العصر وحكام الزمان الذين أعلنوا الطاعة أو آثروا العصيان منذ بداية ذلك حتى نهايته[٢].

مما سبق يتضح أن المؤلف نفسه يعتبر المجلدين الأول والثانى الحاليَّين مجلدا واحدا والمجلد الثالث الحالى هو المجلد الآخر للكتاب وأعتقد أن فى هذا فصل الخطاب.

يضاف إلى هذا أن المؤلف لم يبدأ المجلد الثانى الحالى بمقدمة كما فعل بالنسبة إلى المجلد الأول والمجلد الثالث.

---

(١) نسخ : د هـ – و.

(٢) الجوينى جـ ٣ ص ٢.

ويتساءل القزوينى[١]: كيف يمكن الجمع بين هذه القرائن المتناقضة؟ وما السبيل للتوفيق بينها ؟

ويجيب: "ويتراءى لى أن المؤلف قد وضع الكتاب فى مجلدين اثنين فقط، وأن النساخ فيما بعد ونظرًا إلى ضخامة المجلد الأول بالنسبة إلى المجلد الآخر ولتأريخه لطبقتين متباينتين من السلاطين : المغول والخوارزمشاهية، قد آثروا الفصل بين الاثنين فخصصوا المجلد الأول للحديث عن الخورازمشاهية، وكتبوا الكتاب فى مجلدات ثلاثة.

وأعتقد أننا فى غنى عن هذا التساؤل، فكلام الجوينى واضح لا لبس فيه.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو :

لماذا غفل المؤلف عن الأحداث التى وقعت بعد عام ٦٥٥هـ؟ وهل دوّنها وفُقدت؟

تؤكد الدلائل التى بين أيدينا أن الكتاب انتهى بذكر أحداث عام ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م، وسبق توضيح ذلك، لكن الجوينى يقرر فى ديباجة المجلد الأول أن هدفه من هذا التأريخ تخليد المآثر العظيمة والمفاخر الحميدة للسلطان منكو قا آن، إلا أنه لم يكمل الحديث عن منكو قا آن، واكتفى بذكر الوقائع الأولى التى حدثت فى عهده.

نتيجة لهذا لا يزال التساؤل قائما، وقد حاول الباحثون الإجابة عليه فذكر هورث Howorth[٢] أن مهام منصبه الذى تولاه - وهو حكم بغداد - حالت بينه وبين إتمام هذا العمل، وأجاب القزوينى نفس الإجابة.

(١) القزوينى : مقدمة جهان گشاى.

(٢) The History of the Mongols v.1 XX.

ولكنى أتساءل: لماذا لم يحدثنا الجوينى عن فتح بغداد وقد شاهد أحداث هذا الفتح؟

إنه لم يتولَّ أمر بغداد إلا بعد عام من هذه الواقعة، هل اكتفى بما كتبه نصير الدين الطوسى عنها وهو رفيقه فى أثناء الفتح، أم كتب وفقد ما كتب؟ ليس بين أيدينا حتى الآن ما يجيب على ذلك .

وقد تناول الجوينى فى تاريخه الموضوعات الآتية موزَّعة حسب وضعها الحالى على ثلاثة "مجلدات":

المجلد الأول :

يبدأ المجلد الأول بمقدمة طويلة تبدأ بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يتحدث عن التحاقه بالخدمة السلطانية فى بلاط منكو قا آن سنة ٦٥٠هـ، واعتبار ذلك سعادة ما بعدها سعادة، فيفيض فى مدحه ويتحدث عن عدله ورجاحة عقله وكيف أشار عليه جمع من الأصدقاء الأوفياء وإخوان الصفاء بتأليف هذا الكتاب لتخليد مآثر هذا السلطان، ويتطرق من ذلك إلى الحديث عن العلم والعلماء فى هذا الزمان واضطراب الأحوال فيه، ثم يبين عدم مواصلته فى تحصيل العلوم مخالفا بذلك نصيحة والده، ويعلل ذلك بالتحاقه بالخدمة وانشغاله بالأعمال الديوانية قبل أن يصل إلى العشرين من عمره.

ويوضح بعد ذلك بداية تأليف الكتاب، ويذكر أنه كان حينذاك فى السابعة والعشرين من عمره، وكيف أنه أتيحت له ظروف وأسباب مكنته من تأليف هذا الكتاب الذى يضعه بين أيدى القراء والتاريخ طالبا منهم أن يكونوا معتدلين فى نظرتهم إليه لا يغالون فى مدحه ولا يتطرفون فى القدح فيه.

ثم بيَّن أهدافه من هذه الحكايات وأنها لتحقيق أمرين، الأول دينى والآخر دنيوى.

فيحاول أن يصور هذه الأحداث التى شملت جل العالم على أنها إرادة إلهية لا مفر منها، وأن ما أصاب العالم الإسلامى من جراء هذا الغزو لم يكن إلا جزاء وفاقا لما ارتكبه من آثام، وربما كان ما حدث خيرا، وأنه تحقيق للأحاديث النبوية التى أشارت إلى ذلك، مثل الحديث النبوى القائل : "إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم". ثم يذكر تفسير صاحب الكشاف للآية : "قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم"[١]. ثم يورد الحديث النبوى الذى ذكره الزمخشرى فى تفسيرها وهو القائل : سألت الله أن لا يبعث على أمتى عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك، فسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى، وأخبرنى جبريل أن فناء أمتى بالسيف[٢].

بعد هذه الديباجة يبدأ تاريخه بفصل عن أحوال المغول وعاداتهم قبل ظهور جنكيز خان وتوحيدهم بنهيه الدعاء لجنكيز خان وأرومته بعامة ولمنكوقا آن بصفة خاصة، وهذا الفصل مختصر، كان من الواجب أن يفيض فيه، ولعل عدم اطلاعه على وثائق من تلك الفترة أو عدم التقائه بمن رأوا أحداثها رأى العين هو السبب فى ذلك، والفصل رغم اختصاره يعطى فكرة لا بأس بها عن أحوال المغول الأولى، وربما كان السبب الذى دعاه إلى ذلك الاختصار حرصه على أن يكون تاريخه للفترة التى بدأت بظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث، وهى الفترة التى يستطيع الوقوف على أخبارها ممن رأوها رأى العين.

ثم أفاض فى الحديث عن القوانين التى وضعها جنكيز خان قبل خروجه للغزو، وهى التى تُعرف بالياسا، ودور هذه القوانين فى إدارة البلاد عسكريا ومدنيا لا يمكن إبعاده عما حققوه من انتصارات، ويعتبر ما أورده الجوينى عن هذه القوانين أوفى ما ذُكر عنها فى المصادر التاريخية المختلفة.

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦٥.

(٢) الجوينى، جـ١، من ص ١ إلى ١٦.

وتحدث بعد ذلك عن حروب جنكيز خـــان فـــى المنطقـــة المغوليـــة وانتصاره على أونك خان زعيم قبيلة الكرايت حاميه وحليفه منذ البداية، وما نتج عن ذلك من انضواء للقبائل الأخرى تحت رايته، ومحاربة المعارضين له.

وبعد ذلك أفرد فصلا خاصا للحديث عن الأويغور وحاكمهم الذى كان يلقب بايدى قوت، و يذكر القزوينى أن هذا الفصل فى غاية الأهمية[1]، وربما كان السبب فى تلك الأهمية أن الجوينى أول من ذكر تلك الأخبار عنهم.

ودلف من ذلك إلى الحديث عن فتوحات جنكيز خان الخارجية فى بلاد ما وراء النهر وإيران، مبينا أسلوب القتل والفتك والدمار الذى ســـلكه فـــى فتوحاته، إلا أنه لم يعلل السر فى ذلك رغم تحليله للأحداث التى ذكرها فـــى كتابه، ورغم أن التحليل للأحداث ومسبباتها هو أهم ما يميز كتابته التاريخية. ثم يبين قضاءه على دولة الخوارزمشاهيين والوقائع التى خاضها فى ســـبيل ذلك حتى وفاته من عام ٦١٥هـــ إلى ٦٢٤هـــ، ثم تحدث عن تولى أوكتاى قا آن للسلطة ٦٢٦هـــ إلى ٦٣٩هـــ وتحدث بالتفصيل عن جـــوده وعطفـــه على الناس، ثم انتقل إلى الحديث عن تولى توراكينا خاتون للحكم والأحداث التى حدثت فى عهدها، وقد استمر حكمها من سنة ٦٣٩ إلى ٦٤٣هـــــ ثـــم تولى الحكم من بعدها ابنها كيوك خان بن أوكتاى قـــا آن ســـنة ٦٤٣ إلـــى ٦٤٤هـــ، ثم تحدث عن أحوال أوغول غايش خاتون زوجة كيوك خان وعن أولاده، ثم أعقب ذلك بفصلين غاية فى الاختصار عن تاريخ توشى (جوجى) وجفتاى ابنَىْ جنكيز، واختتم بهما المجلد الأول فى سلسلة جب.

(١) القزوينى – مقدمة جهان گشاى ص : قا.

المجلد الثانى :

يبدأ المجلد الثانى – دون مقدمة كما سبق القول – بالحديث عن نشأة السلاطين الخوارزمشاهيين وعن بداية تكوين دولتهم ابتداء من آتسز ثم أيل أرسلان ابنه ثم سلطانشاه بن أيل أرسلان فتكش ابنه ثم يتحدث عن جلوس السلطان محمد خوارزمشاه ومحاربته للغوريين وانتصاره عليهم واستيلائه على بلادهم، ثم ضعف أموره واحتلاله فى النهاية وخلافه مع الخليفة العباس الناصر لدين الله بن العباس أحمد، ثم يتحدث عن القره ختائيين الذى حكموا فى بلاد ما وراء النهر وتركستان الشرقية أى من حدود نهر جيحون حتى كاشغر وختن وبلاساغون. وقد امتد حكمهم ما يقرب من خمسة وتسعين عاما منذ عام ٥١٢ حتى ٦٠٧هـ. وتحدث أيضا عنهم وكان حديثه مفصلا، ثم ذكر ملوك الطوائف الترك المعروفين باسم الإيلك خانيه أو آل خاقان أو آل أفراسياب – حسب اختلاف تعبير المؤرخين – الذين حكموا فى بلاد ما وراء النهر وتركستان بعد انهيار الدول السامانية وقبل سيطرة المغول على تلك النواحى، وكان عدد من السلاطين الخورازمشاهيين قد قبلوا دفع الجزية لهم سنويًا، ويذكر القزوينى أن هذا الفصل فى غاية الأهمية[1]. ثم انتقل إلى الحديث عن السلطان جلال الدين وكان حديثه عنه أكثر تفصيلا فتناول بداية ولايته السلطة ثم محارباته المختلفة مع المغول وتعقب المغول له وانتهاء أمره.

ثم أورد فى نهاية هذا المجلد حديثا عن تاريخ الحكام والشحنة المغول من عهد أوكتاى قا آن حتى وصول هولاكو إلى إيران سنة ٦٢٦ إلى ٦٥٣هـ مثل جنتمو ونوسال وكركوز والأمير أرغون مع شرح تام لهم ولأحوالهم، واختتم هذا المجلد بالحديث عن أحوال شرف الدين الخوارزمى.

---

(١) القزوينى – مقدمة جهان گشاى ص : قب.

المجلد الثالث :

يبدأ هذا المجلد بمقدمة قصيرة ذكر فيها ما سطره فى المجلد الأول من أحداث وما سيذكره فى هذا المجلد الآخر وتقع فى صفحتين، بدأ بعدها الحديث عن ألغ نوين[١] وسرقويتى بيكى[٢]، وقد مهد بحديثه عنهما للانتقال إلى الحديث عن تولى منكو قا آن السلطة فتناول جلوسه على العرش سنة ٦٤٩هـ والأحداث الأولى التى وقعت فى بداية أيامه، ثم انتقل إلى الحديث عن تحرك هولاكو إلى البلاد الغربية سنة ٦٥٣ هـ وفتح قلاع الملاحدة، وخصص فصلا ذكر فيه النسخة الأولى لمعاهدة فتح آلموت وقرار تسليمها، ثم تحدث عن مذهب الباطنية والإسماعيلية، وعن الخلفاء الفاطميين بعامة والخلفاء الفاطميين بمصر، ثم تحدث حديثا مفصلا عن الحسن الصباح وتجديده لدعوة الملاحدة وتسميتها بالدعوة الجديدة، على حد تعبيره فى بعض النسخ الخطية التى رآها القزوينى، وانتقل بعده للحديث عن حكم كيا بزرك أميد وتعاقب الحكام حتى آخر حكامهم المعروف باسم ركن الدين خورشاه الذين تم القضاء عليهم فى عهده عام ٦٥٥هـ، وقد استفاد علاء الدين فى هذا المجلد كثيرا من الكتب التى وجدها فى مكتبة قلعة آلموت بعد التصريح له بذلك. وأسلوب هذه الفصول يختلف عن بقية أسلوب الكتاب[٣].

---

(١) ألغ نوين : معناها الأمير الكبير ، وهو الابن الأكبر لتولى خان بن جنكيز، وقد أوضح فيها عدم أحقيته السلطان وفقا للقوانين المغولية التى تمنحها للابن الأصغر من الزوجة الكبرى.

(٢) وهى زوجة تولى خان وأم أولاده الأربعة منكو قيلاى وهولاكو وأريق بغا.

(٣) يذكر تقى بهار سبك شناس جـ٣ ص ٩٣ وما بعدها أن أسلوب الفصول الخاصة بالقرامطة ومذهب الباطنية والفصل الخاص بالحسن الصباح وغيره ليس شبيها بأسلوب عطا ملك وأن بعض جمل هذه الفصول منقولة عن أصل كتاب سرگذشت سيدنا. أما القسم الخاص بالقدح فيه والرد عليه فهو بأسلوب عطا ملك الجوينى.

س - تاريخ تأليف الكتاب :

يستفاد من دراسة تاريخ حياة عطا ملك أن الكتاب لم يؤلَّف فى سنة أو سنوات منتظمة وذلك بسبب مشاغله وأسفاره العديدة التى لازم فيها الأمــراء المغول والتى لم تكن تتركه مستقرا فى مكان أو متفرغا لأداء هذه المهمــة، فكان يختلس أوقات فراغه لتدوين بعض أحداث كتابه، وهذا ثابت فى ديباجة المجلد الأول، وصرح بذلك فى بعض صفحات الكتاب، يقول[1] بعد أن أشار إلى نفسه: "جه مــگر در أسفار بعيد يك ساعت اختلاسى ميكند وآن حكايات راسوادى مى نويسد".

"... إلا أن يختلس فى الأسفار البعيدة وفــى وقــت نــزول القافلــة واستراحتها ساعة من الوقت يدون فيها هذه الحكايات".

أو ربما كان هذا هو السبب فى وجود بعض فجوات فى الكتاب تركها إلى حين التأكد من أحداثها والرجوع إليها فلم تتح له الفرصة لتحقيق ذلــك. ومن هنا ندرك أن الكتاب كُتب على فترات متباعدة، ومما يؤيد ذلك أيضا أن المؤلف فى ديباجة المجلد الأول والمجلد الثالث يصرح بــأن منكو قا آن كان فى أثناء كتابة هاتين المقدمتين لا يــزال على قــيــد الحياة، وقــد حــدثت وفاته فى عام ٦٥٦هـ[2] أو أوائل سنة ٦٥٧هـ[3] أى ١٢٥٨م أو ١٢٥٩م، ونراه يصرح أيضا بعد حديثه عن الاستيلاء علــى ســمرقند وبخــارى أو تخريبها فيقول[4] بأنه فى هذا الوقت من شهور سنة ثمان وخمسين وســتمائة قد استعادت بعض هذه البقاع عمارتها ونضارتها وأوشــك بعــضها علــى الاقتراب من ذلك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نراه فى المجلــد الأول يمجد والده فى موضعين ويدعو له بالبقاء، وقد توفى والده فى عام ٦٥١هـ

---

(١) مقدمة المصحح ص فذ - فة.

(٢) تاريخ وصاف، ص ١١ تهران ١٣٣٣.

(٣) حمد الله المستوفى - تاريخ گزيده ٥٧٩ - براون . ويصرح رشيد الدين - جامع التواريخ جـــ٢ بلوســنيه ٣٣٥. بأن وفاة منكو قا آن قد حدثت سنة ٦٥٥هـ أو أوائل سنة ٦٥٦هـ.

(٤) الجوينى جـــ١ ، ص : ٧٥.

كما صرح هو بذلك[١]، فيقول فى الموضع الأول: "لا زالت دوحة الفضل بمكانه ناضرة وعيون المكارم إليه ناظرة"[٢]، ثم يقول : "مد الله فى عمره مدا وجعل بينه وبين النوائب سدا"[٣].

وهذا التاريخ هو أقل التواريخ المذكورة فى الكتاب أو المشار إليها، وعلى هذا يكون الكتاب قد بدأت كتابته فى عام ٦٥٠هـ أو بداية ٦٥١هـ.

وبمقارنة التواريخ المذكورة أو المشار إليها فى الكتاب يمكن استنباط ما يلى :

أولاً : أن المؤلف قد بدأ كتابة تاريخه ٦٥٠هـ - ١٢٥٢م فى أثناء وجوده فى قراقورم فى بلاط منكو قا آن، ذلك أن وصوله إلى البلاط كان فى عام ٦٥٠هـ، وقد ذكر صراحة فى مقدمة المجلد الأول[٤]، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أشار فيها أصدقاؤه إلى تخليد المآثر العظيمة وتدوين تاريخ منكو قا آن.

ثانيًا : ما أورده من أخبار عن وجود والده على قيد الحياة يحتم أن تكون كتابتها لا تتجاوز رجب أو شعبان سنة ٦٥١هـ، فقد توفى بهاء الدين فى ذلك التاريخ[٥].

يضاف إلى هذا أن المؤلف وفقا لأصدق الآراء قد ولد فى عام ٦٢٣هـ وأنه بلغ السابعة والعشرين من عمره حين بداية تأليف هذا الكتاب[٦]، وعلى هذا تكون المقدمة قد بدأ فى تأليفها فى عام ٦٥٠هـ أو ٦٥١هـ، ويذكر بعد ذلك بقليل أنه قد بلغ الثلاثين من عمره:

---

(١) الجوينى جـ٢ ، ص فه.
(٢) المصدر السابق جـ١ ص فه.
(٣) المصدر السابق، ص٦ – فه من المقدمة.
(٤)المصدر السابق، فه.
(٥) المصدر السابق ، جـ١ ص
(٦) المصدر السابق، جـ ١ ، ص ٦.

واسفا لقد انقضى العمر فجأة وتجاوز هذا العمر العزيز الثلاثين

وهذا يؤكد أن المقدمة بدورها لم تُكتب فى فترة واحدة.

هذا من ناحية بداية التأليف.

ع - تاريخ نهاية تأليفه :

آخر التواريخ المذكورة فى الكتاب شهور سنة ٦٥٨هـ[١]، وإن كان كاترمير يقول إن آخر تاريخ ذكر فى جهان گشاى هو عام ٦٦٥هـ، ولم أعثر فى نص الكتاب على هذا التاريخ، ويبدو أن صاحب هذا الرأى قد بناه نتيجة اطلاعه على نسخة خطية أخرى للكتاب، وقد ناقش القزوينى هذا الرأى وانتهى إلى أن التاريخ خطأ وتصحيحه هو عام ٦٣٣ هـ، ذلك أن الحادثة التى ذكر بها هذا التاريخ قد حدثت فى عهد جنتمور فى أثناء ولايته أمر خراسان ومازندران، وقد توفى جنتمور فى عام ٦٣٣هـ[٢]، وعلى هذا يكون من المستحيل حدوث هذه الواقعة عام ٦٦٣هـ[٣].

ووفقا لهذا يكون تأليف الكتاب محصورًا بين عامى ٦٥٠-٦٥١هـ حتى عام ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م ولم يعاود الكتابة بعد ذلك نظرًا إلى مشاغله العديدة فى منصبه الجديد كحاكم للعراق.

---

(١) الجوينى ، جـ١ ص ٧٥.

(٢) الجوينى ، جـ٢ ص ٢٣٤.

(٣) القزوينى ، مقدمة جـ١ ص .

المجلد الأول من تاريخ جهان گشاى

الشكر والثناء للمعبود واجب الوجود المسجود له، فوجوده واهب أنوار العقل والجود. الخالق الذى تتجلى آيات إثبات وحدانيته فى كل ذرة من ذرات الموجودات، البارئ الذى تشكر روائع بـدائع صـنائعه بـاختلاف اللغـات والصفات، الرزاق الذى عن طريق الربوبية يستوى على مائدة كرمه الملحد والموحد، الخلاق الذى ما ندركه من معلومات عن مبدعات فطرته ما هو إلا قصة واحدة من كمال قدرته، العظيم الذى يتغنـى البلبـل الـشجى الأنغـام والألحان بألف قصة مرددًا وذاكرًا لنعمته، الكريم الذى تعادل قطرة واحـدة من بحار موهبته ماء نيسان المدرار، الغفار الذى أصبح نسيم لطفه مادة لبقاء كل محب، القهار الذى أضحى جلاد عنقه سيف التتار البتار، الظاهر الـذى تحتار عقول العقلاء فى عظمة كماله، الباطن الذى تقصر الأفهام والأوهـام عن كنه جلاله، الأحد الذى هو مطلوب مقتصدى أودية الهدى ومقتبسى بادية الهوى، الصمد الذى هو محبوب لعشاق الحقيقة، والفساق عابدى الصورة.

الكفر والإسلام كلاهما ماض فى طريقه يقولان وحده لا شريك له.

جعل الله خاتم الأنبياء محمدا المصطفى نورا لمقلة أهـل البـصيرة، وأنزل شآبيب مدده على زهرة حديقة الخليقة مدحا وثناء ينبعث من وليمتـه رائحة الإخلاص تشنف مشام مشتاقى القدس وينثر من رائحته عبيرا علـى ساكنى روضة الرضا ويؤثر روحه الطاهرة المكرمة بالصلوات الطيبات.

وكذلك على المصطفَين من أمته المتبعين سنته من الـصحابة وأهـل البيت الذين هم نجوم فى سماء الهداية ورجوم لشياطين الغواية، الفائز يزدان بحلية الصفا وجمال الحقيقة ويمتد بامتداد الأيام والليالى.

وحينما حالفنى الحظ فى شهور سنة خمسين وستمائة وغمرتنى السعادة نلت شرف تقبيل عتبة بلاط سلطان العالم نافذ الأمر فى كل زمـان ومكـان مصدر الأمن والأمان، سلطان السلاطين منكو قا آن جعله الله علـى أعـداء دولته فاتحا منصورا وجعل الدين بلوائه مقصودا وامتدت ظلال حكمه علـى العالمين كافة، فانتعش الناس من جديد من جراء عدلـه وصـاروا كنبـت المرعى والأشجار الذى يبتسم لبكاء سحاب الربيع فهدأت حياتهم وانتعـشت أحوالهم، وامتثلت للأمر الربانى حيث قال: "انظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها"، وشرفت باصرة البصيرة بمطالعة تلـك الآثـار، وشنفت سامعة الحقيقة بنداء:

أيها العشاق لقد ظهر ذلك المعشوق من جديد

فهبّوا وانثروا الروح فقد ظهر المعشوق

واختفت أخبار العدل الكسروى فى حذائه، وتضاءلت أمـام أخبـاره، وانمحت آثار العقل الفريدونى إزاء ما ينعم به من عقل وحكمة، وعطـرت نفحات شمائل إنصافه أطراف العالم، وأنارت شمس عواطفه السلطانية جميع الخلائق والأجناس، وأضرمت ريح سيفه البتار النار فى صوامع غلال عدوه فأضحت ترابا، ورفع مطيعوه وملازمو حضرته سرير الخيمة فـوق الثريا، وتذوق المخالفون والمعارضون له شرابا وبيلا خوفا من بأسه وعقابه، وسلمت يد عقابه وسطوته عين الفتنة. وعلى هذا النحو والهيئة حينما طالعت حضرته المهيبة العظيمة التى تجدر شفاه وتعفر جباه الملوك المشهورين، فقد أشار علىَّ جمع من الأصدقاء الأوفياء وإخوان الصفاء – الذين كانت وعثاء السفر إلى حضرته السلطانية بالنسبة إليهم مِن السهولة بمكان كسهولة السفر فى الحضر – بضرورة أن أؤلف تاريخا يخلد المـآثر العظيمـة والمفـاخر الحميدة التى ينعم بها سلطان الزمان الشاب، صاحب الحظ السعيد، ماضـى العزيمة، حسن الطالع، طاهر الخصال، وأن أجمع أخباره وآثاره التى تنسخ آيات القياصرة وتمحو روايات الأكاسرة، ولا يخفى على أربـاب الفـصاحة والفطانة وأصحاب الدراية والكفاية أن غضارة ونضارة وجه الآداب وورونق وطراوة أولى الألباب إنما تتم بواسطة محترفى هذه الصنعة ورعـاة هـذه الحرفة.

ألا ليت شعرى هل أرى الدهر واحدا قرينـــا له حســن الثنـــاء قرين

فأشكو ويشكو ما بقلبى وقلـــبه كلانـــا على شكوى أخـــيه أمين

وقد اندرست نتيجة لتغير الزمان وتأثير الفلك الــدوار ودوران الفلــك الدون واختلاف العالم المضطرب مدارس الدرس، وانطمست معالم العلــم، وأضحى طلبته ألعوبة تتأرجح فى يد الحوادث القاسية وموطئا لنعال الزمان الغدار والأوان المكار، وابتليت تلك الطائفة بصروف الفتن وشــتى أنــواع المحن وصاروا طعاما للسيوف البتارة وعرضة للبوار والدمار ثــم تــواروا تحت أديم هذه الأرض.

فالآن يجب أن نطلب ونبحث عن الفضل داخل طيات هذا الثرى، فقد ضم سائر الفضلاء فى أحشائه وثناياه، وقد انتظم عقد دولة الفن ومدعوه فى الأيام السابقة:

إذ العيش غض والشباب مساعد وفى حدثان الدهر عنك غفول

حيث كان كل هم أفاضل العلماء وعظماء بنى آدم مصروفا على إبقاء الذكر الجميل وموقوفا على إحياء المراسم الجليلة، ويتضح لصاحب النظــر الثاقب الذى ينظر بعين فكره فى عواقب الأمور وخواتيمها أن بقاء الــسمعة الطيبة سبب للحياة الخالدة، وذكر الفتى عمره الثانى(١):

وإذا الفتى لاقى الحمام رأيته لولا الثناء كأنه لم يولد(٢)

فلا جرم أن صنف فصحاء الشعراء والكتاب بالعربية والفارسية نظما ونثرا فى شرح أحوال ملوك العصر وصناديد الدهر، وألفوا فى حقهم وشرح أحوالهم مؤلفات عديدة، والآن وبعد أن كانت البلاد بعامة وخراسان بخاصة موطنا للسعادة وموضعا للآمال والخيرات ومنبعا للعلماء ومجمعا للفــضلاء

---

(١) جزء من بيت من أبيات قالها المتنبى فى قصيدة مطلعها:

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال

(٢) هذا البيت ليزيد الحارثى من شعراء الحماسة (شرح الحماسة للخطيب التبريزى، طبعة بولاق ١٢٩٦ ج ٤ ص ١٣٤).

ومربعا لأهل الفن ومرتعا للعقلاء، ومشرع كفاة ومكرع وهاة، وللنبى حديث بهذا المعنى وألفاظه ورد: "العلم شجرة أصلها بمكة وثمرها بخراسان". بعد هذا كله قد أضحت البلاد بعامة وخراسان بخاصة خالية من زينة وجود المتدثرين بثياب العلوم والمتحلين بحلية الفنون والآداب، وتركوا من خلفهم جمعا يصدق عليهم حكم: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات" (١):

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم　　　وبقيت فى خلف كجلد الأجرب(٢)

ولوالدى صاحب الديوان بهاء الدين محمد بن محمد الجوينى – لا زالت دوحة الفضل بمكانة ناضرة وعيون المكارم إليه ناظرة – قصيدة فى هذا المعنى أتيت من مطلعها بهذين البيتين:

حنانيك رسم الحق والصدق قد عفا　　　وإن أساس المكرمات على شفا

مُنينا بأعقاب قد اتخذوا عمى　　　لأعقابهم مشطا وللمشط منشفا

يحسبون الكذب والتزوير وعظا وتذكيرا، ويسمون التحرمز والنميمة صرامة وشهامة .

ويعتده قوم كثير تجارة　　　ويمنعنى عن ذاك دينى ومنصبى

يحسبون تعلم اللغة والخط الأويغورى قمة الفضل والمعرفة وأضحى كل واحد من أبناء السوق أميرا فى زيِ أهل الفسوق، وكل أجير سيدًا وكل فرد وزيرًا وكل تعس كاتبًا وكل مستوفى مستوفيًا وكل مسرف مشرفًا، وكل شيطان نائب ديوان، وكل فاسد شرير زينة لمجلس وصدرًا لمحفل، وكل تلميذ صاحب عز وجاه، وكل خادم سيد بيت، وكل مجرم إنسانًا فاضلاً، وكل سافل إنسانًا كريمًا، وكل خسيس رئيسًا، وكل غادر قادرًا، وكل من لبس العمامة عالمًا كبيرًا، وكل جمال لما ينعم به من كثرة المال ذا جمال، وكل حمال صاحب نفوذ ومجال:

---

(١) سورة مريم الآية ٥٩.

(٢) هذا البيت للبيد بن ربيعة العامرى من شعراء المعلقات (الأغانى، ج ١٥، صفحة ١٤٠، بولاق ١٣٨٥).

ومـــا تستوى أحســــــاب قوم توورثت	قديمـــا وأجساب نبتن مع الـــبقل
وعرض ذوو القلوب الحرة أنفسهم للإهانات	وصدورهم من الغم والحسرة للتأوهــات

وتحطم ظهر الفن القويم (صرح) فى ذلك اليوم الذى أسند فيه هــؤلاء الجهلة ظهورهم إلى وسادته:

كم أردنا ذاك الزمان بمــدح	فشُغلنا بذم هذا الزمان

يظنون الضرط والصفع من لطف طبــع "طبــع الله علـــى قلـــوبهم"، ويحسبون المشاتمة والسفاهة من نتاج المخاطر الذى لا خطر لـــه، وتظهــر المروءة والفتوة وقت القحط والشدة، ويُمتحن الأخيار فـــى يـــوم الـــضلالة والجهالة، ويتمكن الأشرار والأذلاء، وينسج شرك المحنة فى عمل الكــريم الفاضل، ويتحقق للئيم الجاهل مراده، ويصبح كل حر لا زاد له وكل كــريم فاضل مردودًا، وكل نسيب لا نصيب له ، وأهل الحسب والنسب لا قيمة لهم وكل داهية قرين داهية وكل محدث رهين حادثة، وكل عاقل أسير عاجلـــة، وكل كامل مبتلى بنازلة، وكل عزيز مضطر إلى متابعة كل ذليل، وكل عاقل مميز أسيرا لأخرق لا تميز له:

رأيت الــدهر يرفع كل وغد	ويخفض كل ذى شيم شريفـــة
كمثل الـــبحر يغـــرق كل در	ولا ينفك تطفـــو فيه جيــــفة
وكالميزان يخفـــض كل واف	ويرفـــع كل ذى زنة خفيفـــــة

ومن الممكن إدراك مقدار ما يبذله أرباب الفطنة وأصحاب الكياسة من مجهود فى سبيل ارتقاء المدارج العليا، والوصول إلى الغايـــات القـــصوى، وطبقا للحكم القائل: "الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم"، فقد كان وقت الشباب مناسبا لإحكام قواعد الفضائل والآداب واستحكامها، وقد امتثلت لأقوال أبناء الزمان والأتراب والأقران الذين كانوا رفاقا لى فى الديوان.

واشتغلت بأعمال الكتابة والديوان قبل أن أصل إلـــى ســـن العـــشرين فأهملت تحصيل العلوم نتيجة لممارسة تلك الأشغال ومكابدة تلـــك الأعمـــال وغفلت عن نصيحة والدى – مد الله فى عمره مدا وجعل بينه وبين النوائب سدا– التى هى زينة كل عاطل ودستور كل عاقل.

بُنَىَّ اجتهد لاقتناء العلوم   تفز باجتناء ثمـــار المُنى
ألــم تر فى رقعة بيدقــا   إذا جد فى سيره فرزنـــا؟
فأجدادنا الغر قد أسسوا   من المجد شم المبانى لنا
فإن لم نَشِدْها بمجهودنا   ستنهار والله تلك البِنـــى

الأخيار من الناس يُسْدُون النصح والإرشاد، بينما السعداء هـــم الـــذين يتقبلونه فقط.

والآن وقد نما العقل الذى هو عقال جنون الشباب وتقدم السن الذى هو لجام نزاقة الشبان ومرت السنون حتى وصلت إلى الحد الذى:

وتلفتت سبع إلى عشرين مـــــن   حججى وكف العقل من غلوائى

وأضحى الندم والألم على فوات أيام الدراسة والتحصيل لا فائدة فيـــه ولا أمل يُجنَى من ورائه، وهكذا فإنه لا فائدة من الحسرة والتأسف على مـــا مضى من أعوام ضائعة:

وا أسفا لقد انقضى العمر فجـــاة   وتجاوز هذا العمر العزيز الثلاثين

والآن ما السرور؟ وإذا مد السرور يده فحينما ينتهى العرس والوليمة تكون مائة كأس برغيف.

ومع هذا فإنى نظرا إلى ما قمت به من رحلات وأسفار مرات عديـــدة إلى بلاد ما وراء النهر وتركستان إلى حدود ماجين (جنوب الصين) وأقصى بلاد الصين، وهى حدود إمبراطورية جنكيز خان وأحفاده، وشاهدت واسطة عقد مملكتهم وشاهدت بعض الأحوال رأى العين واستمعت إلى أكابر الناس وثقاتهم وشهود العدل منهم فيما يختص بالأحداث والأمور السابقة والتزامـــا بما أشار به الأصدقاء وهو حكم لا مفر منه، ونظرا إلى أنى لم أجـــد حيلـــة أعدل بها عما يريدون فقد امتثلت لأمرهم واعتبرت طلـــب الأعـــزاء أمـــرا مقضيًّا فسجلت ما هو ثابت ومحقق وأسميت مجموعة هذه الحكايـــات باســـم تاريخ جهان گشاى جوينى.

خلت الديار فُسدتُ غيرَ مسوَّدِ   ومن الشقاء تفرُّدى بالسؤدُدِ

وإنى أرجو من أرباب الفضل والأفضال، لا أبعد الله عن ساحة جلالهم عين الكمال وعمر بوجودهم مبانى المكارم والمعالى، أن يستروا تكرما منهم ما يرون من ركاكة فى الألفاظ وقصور فى العبارات بذيل العفو والصفح، ذلك أنه قد انقضت عشر سنوات قمت خلالها بالتجول مغتربا فى أنحاء البلاد تاركا التحصيل والدراسة فتقادمت الأوراق ونسج العنكبوت عليها خيوطه ومُحيت نقوشه فى صحيفة الخاطر كالخط يرسم فى بسيط الماء، وأن لا يعترضوا أو يوجهوا إصبع النقد إلى الخطايا التى ليس لابن آدم صون منها، ولكل جواد كبوة:

إذا أحسست فى لفظى فتورا   و خطى والبراعة والبيان

فلا ترتب لفهمى إن رقصى   على مقدار إيقاع البيان

وإذا سلكت فى الإفراط والتفريط طريق البسط والإسهاب فعليهم أن يتذكروا وأن لا يغيب عن أذهانهم حكم الآية الشريفة "وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما"(١)، ذلك أن الغرض من عرض هذه الحكايات وتقرير وكتابة هذه الأحداث والوقائع أمران تتحقق بهما فائدة دينية ودنيوية:

أما الفائدة الدينية فإن صاحب الجوهر الطاهر حتى يكون منصفًا مقتصدا يجب عليه أن لا ينظر إلى هذه المعانى بعين الحقد والحسد التى تظهر العيوب والمساوئ وتبدى المثالب والنواقص التى تنشأ عن دناءة الهمة وخسة الأصل وأن لا ينظر إليها بعين الرضا والوفاء التى يرى القبيح بها جميلا ويحسب خشن الثياب بها خزا وديباجا:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدى المساويا

بل يجب أن يكون معتدلا فى نظرته مراعيا شروط الأمانة وواجب الدين، وخير الأمور أوسطها:

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٢.

على أننى راض بأن أحمل الهوى   وأخلص منه لا علىَّ ولا ليا

وأن يتفكر فى هذه المغالاة ويتدبر فى معانى هذه المقامات التى يخطها يراع الأعلام من الرجال وأن ينقشع عن بصيرته غطاء الشك والريبة ويزول عنها غشاء الظن والشبهة وأن يدرك تمام الإدراك أن كل ما يظهر فى هذا العالم من خير أو شر، نفع أو ضر، إنما هو من تقدير الحكيم المختار ومرتبط بإرادة القادر الجبار، وأن أفعاله لا تصدر إلا على أساس قانون الحكمة ومقتضيات الفضيلة والعدل، وأن ما يقع من وقائع وأحداث من تخريب للبلاد وتفريق للعباد ونكبة الأخيار وتسلط الأشرار، يحمل هذا كله فى طياته وثناياه حكما كثيرة، قال الله تعالى: "عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم"[1]، ويقول الحكيم سنائى:

سواء أكنت آملا أو وجلا   فإن الحكيم لم يخلق شيئا عبثا

إن كل ما جرى فى هذه الدنيا وما يفد إليها وما هو موجود فيها يجب أن يكون مقدرا ومكتوبا.

وقد صدق بديع الزمان الهمذانى فى رسالته[2] التى يقول فيها: "لا ترادوا الله فى مراده ولا تكاثروه فى بلاده. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فهذه أسرار ليس لأى شخص اطلاع عليها أو وقوف على أسرارها أو القدرة على أن يغوص فى بحرها، وأية طائفة تستطيع أن تحلق فى أفقها؟ وأى فهم أو وهم قادر على عبور واديها؟ من أين أنا؟ ومن أين كلمة سر المملكة؟ وما يعلم الغيب إلا الله "قل لا يعلم من فى السموات والأرض والغيب إلا الله"[3].

---

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) بديع الزمان الهمذانى - رسائله. فى رسالته المعنونة (فى هزيمه السامانيه بباب سرخس ص٧) وقد وردت على النحو التالى:

يا هؤلاء لا تكابروا الله فى بلاده، ولا ترادوا الله تعالى غير مراده إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده.

(٣) الأية ٦٥ النمل.

ليس لروح اطلاع على هذا السر، وبهذا الحجاب ليس هنـــاك طريـــق لسبر أغواره.

وأما ما يمكن الوصول إليه عن طريق العقل والنقل، وليس بعيدا عـــن الفهم والوهم، فينحصر فى قسمين: الأول ظهور معجـــزة النبـــوة، والثـــانى الكلام.

وأية معجزة يمكن أن تكون أقوى من ذلك؟ ويتحقق الحديث الـــشريف بعد مرور ستمائة ونيف عام "زويت إلى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها" ويتحقق ذلك بظهور جيش أجنبـــى، ولا عجب أن تفيض الأنوار من شعاع الشمس مثلما تخرج الرطوبة من المـــاء، والحرارة من النار، بل إن كل نور يشع وسط الظلام البهـــيم يكـــون بـــديها وغريبا.

إننا لم نمت حتى رأينا من المشعوذ المحتال الصبح الوضاء وسط دجى الليل الحالك، ومن أجل هذا تصبح راية الإسلام أكثر علوا وارتفاعا، وشمعة الدين أعظم توهجا واشتعالا، وتستظل بظل شمس الدين المحمدى ديـــار لـــم تعطر رائحة الإسلام مشامهم ولم تتذوق أصوات التكبير والأذان أســـماعهم، ولم تطأ أرضهم سوى الأقدام النجسة من عبدة اللات والعـــزى، والآن فـــإن كثيرا من المؤمنين الموحدين قد ولوا وجوههم شطر تلـــك النـــواحى حتـــى وصلوا أقصى ديار المشرق، واستوطنوا بها وكثر عددهم حتى تجاوز حد ما وراء النهر وخراسان كصناع ورعاة ماشية وأغنام، وكانت طائفة كبيرة منهم قد طافت من أقصى بلاد المغرب والعراقين والشام وغيرها من بلاد الإسلام تجارة وسياحة فوصلوا إلى كل ناحية ومدينة واكتسبوا شهرة كبيرة ثم ألقـــوا عصا الترحال فى تلك المنطقة، وقرروا الإقامة بها، وتزوجوا هناك وشيدوا الدور والقصور وأقاموا مساجد الإسلام فى مواجهة بيوت الأصنام، وبنـــوا المدارس فارتفعت عالية شامخة، واشتغل العلماء بالتعليم والإفادة، والطـــلاب بالاستفادة كما لو كانت إشارة الحديث القائل "اطلبوا العلم ولو فـــى الـــصين" خاصة بأبناء هذا الزمان وبالطائفة الموجودة فى هذا العهد البعيد، وبالنـــسبة إلى أولاد المشركين فقد وقع بعضهم أسرى فى يد المسلمين، وأسلموا ونعموا بعز الإسلام.

وهناك جماعة أخرى، أثرت أشعة أنوار الهدى فى قلبها الحجرى الذى ينطبق عليه قول الله عز وجل: " فهى كالحجارة أو أشد قسوة"[1] وتشققت من أشعة الشمس، وخرج منها الماء الزلال، فشرفت عندئذ باعتناق هذا الدين وبسبب يُمْن بركات أهل الإيمان وكثرة عدد المسلمين الموحدين فى كل طرَف يجول الطرْف فى أنحائه يرى الإنسان مسجدا قائمًا، ونورا ساطعا يشع سناه وسط ليل حالك الظلام.

وتزعم جماعة من أهل الخلوة من عبدة الأوثان الذين يسمونهم بلغته "توين"[2] أنهم كانت لهم -قبل إقامة المسلمين فى تلك الأنحاء، وارتفاع الأصوات بالتكبير وأداء الصلاة أقامها الله وأدامها- مع هذه الأصنام محادثات ومناجاة "وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم"[3]. ولسوء مقدم، المسلمين عليهم قد عفيت الشياطين منهم ولا يحادثونهم؛ ختم الله على أفواههم، وهذا يقتضى الإذعان حقا للقول "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا"[4]، وفى كل مكان تتجلى فيه أنوار الولاء تضمحل ظلمات الكفر والفسوق وتتلاشى مثلما ينقشع الضباب ببزوغ الشمس وارتفاعها:

حينما يأخذ صبح الولاء للحق فى الانبلاج يعدو الشيطان هاربا وجلا من جميع الآفاق ويصل الإنسان إلى درجة ترى العين الحبيب فيها دون تعب أو مشقة.

وقد نالت تلك الجماعة درجة الشهادة وتلك أفضل الدرجات وأكملها بعد مرتبة النبوة عند الحق جل جلاله، وقد خففت أحمالهم ومحيت ذنوبهم ووضعت عنهم أثقال أوزارهم التى اقترفوها -أيام الأمن والفراغ- بالسيف القاطع والسيف محاء الذنوب.

---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) توبكين أو توين وفى بعض النسخ الخطية تونين تعنى الراهب البوذى.

(٣) الأنعام: ١٢١.

(٤) الإسراء: ٨١.

"ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون"[١].

وإنّ دمًا أجريته بك فاخرٌ وإن فؤادًا رُعْتَهُ لك حامد

وما تبقى من ذلك فهم أولو الأبصار الذين اتعظوا واعتبروا مما حدث.

أما الفائدة الدنيوية، فتتمثل في أن كل شخص -رغم اختلاف نظرته- تطالعه من هذه المقامات والروايات أمثلة لقوة الجيش المغولى وشوكته، وموافقة القضاء والقدر لهم في ما أرادوا، ويعلم أن هذه الحكايات والمقامات منزهة من شوائب الخداع مبرأة من ريبة الكذب والنفاق. وأى مجال للزور والبهتان، وهذه الحكايات أوضح وأبين من أن يشك فيها أى إنسان؟ وسيعلمون:

أن هذا القول سيظل خالدًا حتى يوم القيامة بين العظماء لا يعتريه وهن أو تغيير وسيمتثلون للأمر الربانى القائل "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"[٢].

وتنص الياسا والعرف المغولى على أن كل شخص منقاد لهم ويذعن لأمرهم يصبح آمنا من عقابهم، غير خائف من بأسهم، يضاف إلى هذا أنهم لا يتعرضون للأديان والملل الأخرى، وكيف يتعرضون لها؟ وأى وجه لذلك؟ بل إنهم يؤيدون ويقوون.

وبرهان هذه الدعوى قوله عليه السلام: "إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم".

وقد أعفوا أحبار أخيار كل ملة من سائر التكاليف والضرائب والمكوس وأعفوا كذلك أوقافهم وسبلهم وحراثهم وزراعهم، ولم يكن لأى شخص القدرة على القدح فيهم وبخاصة أئمة الدين المحمدى، والآن فى عهد منكو قا آن بخاصة، حيث شرف كثير من الأمراء من أولاد وأحفاد جنكيز خان وأرومته بشرف الإسلام، وجمعوا بين عز الدين وسعادة الدنيا، وقد

---

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) البقرة: ١٩٥.

تزين كثير من أتباعهم وأشياعهم ورسلهم وخدمهم بحلية عز الدين، وهم كثرة لا يمكن عدهم أو إحصاؤهم. ومما سبق وفقا لما يمليه العقل تتضح ضرورة التمسك بالحكم الربانى: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لهـا"[(١)]، والإذعـان لهـم والانقياد لحكمهم وترك العناد والعصيان على النحو الذى أوضحه صـاحب الشريعة حيث قال:

اتركوا الترك ما تركوكم فإنهم أصحاب بـأس شـديد، وأن يحـصنوا أنفسهم وأموالهم فى حصن العصمة وملجأ الأمان "والله يهدى من يشاء إلـى صراط مستقيم"[(٢)].

ولما كان بطر النعمة، ونخوة الثروة وخيلاء الرفاهية تمنع العباد – فى كل قرن وعهد– عن القيام بأوامر البارئ جلت قدرته وعلت كلمتـه، وعـن الالتزام بها، بل وتحثهم على الإقدام على ارتكاب المعاصى والآثام: "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"، فقد قدم لكل تنبيها وتذكيرا ما يناسب كفرهم ويلائم طغيانهم، وأخذهم بما يوافق جرمهم وإثمهم، حتى يكونوا عظة وعبرة لأولى الأبصار، مثلما حدث الطوفان فى عهد نوح عليه السلام، وما أصاب قوم عاد من عذاب فى عهد ثمود، وما أصاب كل أمة من أنواع العذاب مـن مسخ وتسلط للأشرار والأضرار والقحط وغير ذلك مما هو ثابت ومـذكور فى القصص.

فلما جاء دور أمة خاتم الرسالات عليه أفضل الـصلوات الزاكيـات تضرع إلى الله عز وجل أن ترفع عن أمته شتى صروف العذاب وصـنوف البلاء التى أصاب بها كل أمة جزاء وفاقا لما ارتكبت مـن آصـار وأوزار، وقد أضيف هذا التشريف والتكريم إلى الفضائل الأخرى التى تميزت بها أمته فرفع عنها كل شىء وقبل منه كل شىء عدا عذاب الـسيف فلـم تـصادف دعوته عنها قبولا واستجابة. وجزى الله العلامة "الزمخشرى" عما أورده فى الكشاف فى تفسير للآية الكريمة من سورة الأنعام: "قل هو القادر علـى أن

---

(١) الأنفال: ٦١.

(٢) البقرة: ٢١٣.

يبعث عليكم عذابا من فوقكم"[1] إلى آخر الآية، نقلا عن رسول الله حيث يقول: سألت الله أن لا يبعث على أمتى عذابا من فوقهم ومن تحت أرجلهم فأعطانى ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى، وأخبرنى جبريل أن فناء أمتى بالسيف.

ومن الناحية العقلية فإن هذا يقتضى ويوجب أنه إذا كان التهديد بالسيف وهو الوعيد العاجل قد وقف، واكتفى للناس بالآجال الموعودة لهم فى العالم الآخر فتسبب هذا فى أن تختل الأمور وتضطرب الأحوال، وسيطرت العامة من الناس الذين ارتبطت أقدامهم بما يزع السلطان[2]، وانطلقت أيديهم حرة تفعل ما تشاء، وبقيت الخاصة من الناس عاجزة ذليلة فى زوايا البلاء والعناء، وبطلت بعض منافع الآية: "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس"[3]، ذلك أنه دون هذه الأداة تبقى أبواب العدل والإنصاف التى فتحت بواسطة الآية الكريمة "وأنزلنا معهم الكتاب والميزان"[4] موصدة، واختلت مصالح العباد واضطرب نظامها دفعة واحدة، ومن هذا يتضح ويتبدد ظلمة الشك والريبة، وإن كل ما قدر فى أزل الآزال فيه الخير كل الخير لعباد الحق جل شأنه وعم سلطانه، فلما انقضت ستمائة عام ونيف العام على مبعثه للعالمين كافة، فقد أدت كثرة العيال واتساع بساط الآمال إلى الطغيان وارتكاب الآثام. "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[5] ، وقد ذكر فى محكم كلامه المجيد "وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"[6]، وقد أبعدتهم وسوسة الشيطان عن طريق الصواب وجادة الرشاد.

---

(١) الأنعام ٦٥ . وردت فى نسخة جيهان كشاى قل هو القاهر، وهذا خطأ.

(٢) إشارة إلى الحديث من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن، القزوينى- الحاشية- ص١٢.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) الآية الكريمة: "وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" الحديد ٢٥.

(٥) الرعد ١١.

(٦) تصحيح الآية " ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون" الأنعام ١٣١.

حل الكفر وحلت وسوسة الشيطان الدين وتلاعبت به، وأقبل العشق وأصبح العقل مفتونا بالأحبَّة. أيها الغافل عن أمر العاقبة ثب إلى رشدك واعدل، وهل يمكن لإنسان أن يقضى عمرا بضياع أنكر من هذا "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم".

وجرم جَرَّهُ سفهاء قوم فحلَّ بغير جارمه العذاب

ما فائدة الشكوى من الدهر وعتباه؟ لا فائدة فكل ما يصيبنا إنما هو نتاج أعمالنا. ولقد كانت إرادة الحق تقدست أسماؤه أن تستيقظ تلك الجماعة من نوم الغفلة، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، وأن يفيقوا من سكر الجهالة حتى يكون هذا تحذيرا ونذيرا لأولادهم وأعقابهم، ويتحقق فى أوج ذلك أيضا إعجاز الدين المحمدى، وقد جرى ذكر بعض ذلك فيما سبق، وقد أعد الحق شخصا وجعل من طبيعته وعاء ومستودعا بالخصال المحمودة والصفات المقبولة مثلما يستخدم المداوى الحاذق السبل المحمودة لدفع الأمراض المذمومة ثم يرى ضرورة إصلاحها مرة ثانية حتى لا ينحرف مزاجه عن أصله كلية ولا يتغير فيدفع بالمواد التى تناسب طبيعته، والحكيم الأكبر خبير بطباع عباده ومزاجهم وبصير بها ويستطيع استعمال الأدوية الملائمة للوقت المناسب للطبيعة، إن الله تعالى لخبير بصير.

فصل

فى كيفية أحوال المغول قبل عصر جنكيز خان

حينما تتخذ عنقاء السعادة والإقبال عش شخص مأوى لها ويلازم نداء الإدبار عتبة شخص آخر فعلى الرغم مما يكون بينهما من درجات جد متفاوتة، إذ أن أحدهما يكون فى أوج السعادة والآخر يكون فى حضيض المذلة والمهانة، فإن قلة العدة وضعف الحالة لا يمكن أن يحولا بين صاحب الحظ السعيد وإدراك مقصوده.

إن كل من يكون مهيأ للسعادة إذا لم يبحث عنها فتشت هى عنه

كما أن كثرة العدة وفرط الأهبة لا يفيدان صاحب الحظ السيئ فى دفع ما هو كائن "الجد ما لم يعنه الجد غدار" ولن يستطيع تدبير الإنسان دفع ما كتب عليه، وإذا أقبل أقبل وإذا أدبر أدبر، وإذا ما تحققت نعمة بالحيلة والجاه والمال لم ينتقل الملك والسلطان من أسرة الملوك السابقين إلى آخرين، وإذا ما حل الدور عليهم لزوال دولتهم وانهيار سلطانهم فلا يمكن للحيلة أو مضاء العزيمة أو سديد الآراء التى ينعمون بها أن تنقذهم أو تمد يد العون لهم، ولن تكون غلبة الجند وازدياد القوة ناصرا ومعينا، وأى دليل أوضح حجة وأكثر بينة من هذا؟ ماذا كان شأن طائفة المغول وأحوالهم قبل أن يقرعوا طبل سعادة جنكيز خان وأرومته؟ وعلى أية حال كانت تجرى أمورهم، والآن فإن مياه الإقبال تجرى فى أنهار مرادهم بينما تسيطر جيوش الغم والمحن على منازل المعارضين والمخالفين الذين كانوا ملوكا جبارين وسلاطين مشهورين، فكيف تَنَكَّر الزمان لهم؟ وكيف أصبح ألعوبة فى أيدى تلك

الطائفة؟ وفرت الدنيا من تلك الجماعة وأصبح الأسير أميرا، والأمير أسيرا وكان ذلك على الله يسيرا.

على رأس عبد تاج عزّ يزينه وفى رِجْل حر قيد ذُلٍّ يشينه

وموضع إقامة التتار ومنشئهم ومولدهم بواد غير ذى زرع، تزيد مساحته طولا وعرضا عن مسيرة سبعة أو ثمانية أشهر، تحده من الناحية الشرقية بلاد الخطا، ومن الناحية الغربية بلاد الأويغور، ومن الشمال بلاد الفيرغيز وسلنكاى، ومن الجنوب تنكت والتبت.

ولم يكن للمغول قبل خروج جنكيز خان رئيس أو حاكم، وكانت كل قبيلة أو اثنتين تعيشان منفصلتين لا تتفقان، النزاع والخصام قائم ومستعر بينهم، وكان بعضهم يعتبر السرقة والزور والفسق والفجور من الشجاعة والبطولة، اعتاد خان الختاى أن يطلب ويحصل منهم على ما يريد، كانت ملابسهم من جلود الكلاب والفئران وطعامهم من لحومها ولحوم الميتة الأخرى، وشرابهم من ألبان البهائم، ونقلهم من ثمار شجرة تشبه الصنوبر ويسمونها قسوق، ولا تثبت هناك شجرة مثمرة سواها، وتوجد فى بعض الجبال، ولا ينمو شى آخر فى تلك الأنحاء نتيجة لما يغلفها من برد شديد، وكانت السمة المميزة للأمير الكبير أن يكون ركابه من الحديد، ومن الممكن استنتاج سائر وسائل الزينة الأخرى على هذا القياس.

والخلاصة أنهم كانوا يعيشون فى شظف من العيش، ويمضون حياتهم فى إخفاق ووبال، حتى إذا ما ارتفعت راية دولة جنيكيز، وانتقلوا من مضايق الشدة إلى بحبوحة النعمة ومن السجون إلى جنة النعيم، واتخذوا لباسهم من الإستبرق والحرير وأطعمة وفواكه ولحم طير مما يشتهون، وفاكهة مما يتخيرون وأشربة مختومة، ختامها مسك ومن هذا صدق قول القائل بأن الدنيا فى الحقيقة هى جنة تلك الجماعة، يجلبون إليهم البضائع من أقصى بلاد المغرب ويفتحون فى منازلهم ما أغلقوه فى أقصى بلاد المشرق ويملأون بدورهم أكياسهم من خزائنهم، وأصبحت حللهم اليومية مرصعة بالجواهر،

مطرزة بالذهب، وقد رخصت الجواهر وسائر أنواع الأقمشة فى الأسواق التى أقيمت فى مساكنهم والتى إذا ما أعادوها إلى معدنها ومنجمها لباعوها بضعفى ثمنها، والشخص الذى يحضر ثيابا إلى تلك البقاع مثله كمن يحضر كمونا هدية إلى كرمان أو يحضر الماء إلى عمان، وجعلوا لكل واحد منهم مزارع وحقولا، وعينوا زُرَّاعا فى كل موضع فكثرت المأكولات وازدادت المشروبات ففاضت وأضحت جارية كنهر جيحون.

وتحت ظلال العظمة والسعادة المتزايدة يوما بعد آخر وتحت ظلال الهيبة السلطانية لجنكيز خان وأرومته تبدلت أحوال المغول وانتقلوا من ضيق العيش وشظفه إلى رغد العيش وحلوه.

وأما بالنسبة إلى الطوائف الأخرى فقد انتظم أمرهم واستقام الزمان لهم. وتعامل معهم كل شخص لم يكن يستطيع -قبل ذلك- أن يضع لنفسه فرشا من القطن السيئ وتاجر معهم فى المرة الواحدة بخمسين ألفا وثلاثين ألف بالش من الفضة أو الذهب، والبالش خمسمائة مثقال من الذهب أو الفضة، وقيمة البالش الفضى تعادل خمسة وسبعين دينارا ركنيًّا [1] وعيارها أربعة أضعافه.

نتضرع إلى الحق تعالى أن يمنح أرومته وبخاصة منكو قا آن -وهو السلطان الأكثر عقلا وعدلا- سنوات لا نهاية لها من التوفيق والسداد وأن تشمل رحمته وشفقته الخلائق كافة.

(١) ينسب إلى أحد الحكام ويدعى ركن الدين.

ذكر القواعد التى وضعها جنكيز خان
بعد الخروج والأوامر التى سنها

لما كان الحق تعالى قد ميز جنكيز خان على أقرانه بالعقل والحكمة، وخصه دون ملوك الدنيا باليقظة والسلطان، حتى إنه كان يعرف ويخترع تلقاء نفسه ما كان مذكورا من عادات جبابرة الأكاسرة وما كان مسطورا من رسوم وأساليب الفراعنة والقياصرة دونما حاجة إلى اقتفاء آثارهم أو تقصى أخبارهم، وأما ما يتعلق بتدبير شئون البلاد التى فتحها وكسر شوكة الأعادى، ورفع درجة الموالين له، فقد كان كل هذا من وحى ضميره وتأليف خاطره حتى إنه لو كان قدر للإسكندر -مع ولعه باستخراج الطلسمات وحل المشكلات - أن يكون موجودا فى عصره لتعلم من ذكائه وحيلته.

ومن حل الطلّسمات فتح الحصون، ولم يجد طلسما أفضل من الانقياد له والإذعان لأمره ولا يمكن أن يكون هناك دليل أكثر وضوحا وأعظم بينة من هذا، فعلى الرغم مما كان عليه خصومه من القوة والعدة وما تهيأ لأعدائه من الكثرة والشوكة حتى كان كل واحد منهم فغفور وقته وكسرى زمانه، فقد خرج إليهم بنفس واحدة، مع قلة عدد ويد خالية من العدد، فانظر كيف أذل جبابرة الآفاق فى المشرق والمغرب وقهرهم، وأما من كان يتصدى لقتاله ونزاله، فإنه وفقا لحكم الياسا الذى لا إبرام فيه، يقوم بالقضاء عليه وعلى أتباعه وأشياعه وأولاده وجنده كلية ويدمر بلاده ونواحيه.

وهناك حديث منقول عن الأخبار الربانية يقول: "أولئك أهم فرسانى بهم أنتقم ممن عصانى" وليس هناك شك أو شبهة فى أن هذا الحديث كان إشارة إلى هذه الجماعة جماعة جنكيز خان وقومه.

وكانت الدنيا تموج فى تلك الأثناء بالخلق، وكـان ملـوك النـواحى والأصقاع وأشرافها قد بلغت بهم خيلاء الكبرياء وبطر النعمة والثروة أقصى حد حتى تجاوزوا ما اختص الحق به نفسه حيث قـال: "العظمـة إزارى والكبرياء ردائى"[1]، وقد منحه الحق بحكم سابق وعده قوة الـبطش وغلبـة التسلط، "إن بطش ربك لشديد"[2].

ولما كانت أغلب الأقطار ومعظم الأمصار قد أعماها بطر الثروة وما جنته من عز ورفعة فقد عمدت إلى حربه وأعلنـت العـصيان، ورفـضت الاستسلام لحكمه وبخاصة بلاد الإسلام فى حدود التركستان إلى أقصى بلاد الشام، وحيثما وجد سلطان أو أمين مدينة أو صاحب ناحيـة آثـر التمـرد والعصيان قضى عليه مع أهله وبطانته القريب منهم والبعيد، حتى إنه لم يكن يتبقى من مائة ألف شخص مائة شخص على الأكثر بلا مبالغة، ومـصداق هذه الدعوى هو شرح أحوال هذه المدن التى أثبتت وفق مـا يناسـبها مـن الوقت والمكان.

ووفقا لرأى جنكيز خان ومقتضى مراده فقد وضع لكل أمـر قانونـا ولكل مصلحة دستورا واستنّ لكل ذنب حدًّا وعقابًا، ونظرًا إلـى أن أقـوام التتار لم يكن لهم خط فقد أمر بأن يقوم الأويغور بتعلـيم أطفـال المغـول الكتابة، وأن تكتب هذه القوانين والأحكام فى طوامير وأن تسمى كتاب "الياسا الأكبر"، وأن تحفظ فى خزانة أبناء الملوك.

وكانوا يحضرون هذه الطوامير كلما جلس حاكم جديد على العرش، أو يقومون بتعبئة جيش جرار، أو يجتمع الأمراء للنظر فـى مـصالح الملـك وتدبير شئون البلاد يحضرون تلك الطوامير –السجلات– ويبنون أمـورهم وقراراتهم وفق نصوصها، ويسلكون نفس الـسبيل حـين تعبئـة الجيـوش

(١) حديث قدسى.

(٢) سورة البروج، الآية ١٢.

والإغارة على البلاد والمدن وتخريبها.

وقد قضى جنكيز فى بداية عهده حين انضوت قبائل المغول تحت سلطانه على العادات السيئة والرسوم الذميمة التى كانت سائدة بين تلك الطوائف ومتعارفا عليها بينها، وأحل محلها من العادات الحسنة والصفات الحميدة ما هو مقبول عقلا، وكثير من هذه الأحكام يوافق الشريعة.

لم يكن جنكيز خان فى إنذاراته التى يبعث بها إلى النواحى والأطراف المختلفة والتى يدعوهم فيها إلى الانقياد له والإذعان لحكمه، لم يكن مثل الجبابرة الذين يهددون ويتوعدون معتمدين على كثرتهم وهيبتهم وكثرة عتادهم، بل كان كل ما يكتبه فى الإنذار أنهم إذا لم ينقادوا لحكمه ويستسلموا له فإن ما نعمله هو ما يعمله الله الأزلى، من يتدبر هذا المعنى يره من أقوال المتوكلين، قال الله تعالى "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" فلا جرم أن يتحقق له كل ما يضمره ويتمناه ويصل إلى كل ما يريده.

ونظرًا إلى أن جنكيز خان لم يكن متقلدا لأى دين أو تابعا لأى مذهب، فقد كان بعيدا عن التعصب، وعن تفضيل أمة على أمة وترجيحها بعضها عن بعض، بل إنه بجّل وكرم علماء وزهاد كل طائفة وحباهم بالمزيد من الإعزاز، وكان يعتبر هذا وسيلة للتقرب إلى الحق جل وعلا، وكما نظر إلى المسلمين نظرة توقير وتقدير أعز النصارى والبوذيين، واختار كل واحد من أولاده وأحفاده من المذاهب ما يوافق ميله وهواه، فمنهم من دخل فى الإسلام، ومنهم من اعتنق النصرانية، ومنهم من اختار عبادة الأوثان، وبقى قوم منهم على عادة آبائه وأجداده القديمة لا يحيد عنها ولا يميل إلى غيرها، وكانت هذه الطائفة الأخيرة أقلهم عددا، ومع تقلدهم لهذه المذاهب فقد بعدوا أكثر وأكثر عن التعصب، لا يعدلون عما أقرته قوانين جنكيز خان التى تنظر إلى جميع الطوائف على حد سواء ولا تفرق بين واحدة وأخرى.

ومن العادات الحميدة التى سنتها الياسا القضاء على الألقاب الكثيرة ومظاهر التكلف التى كانت سائدة بين الملوك و العظماء، فهم يخصون كل

من يجلس منهم على العرش بلقب خان أو قا آن، ولا يزيدون على ذلك، وأما الأولاد والإخوة فيدعونهم بأسمائهم التى يعرفون بها منذ ولادتهم ويلتزمون بذلك فى حضورهم وغيابهم على حد سواء، ويكتبون أسماءهم فى المنشورات مجردة كذلك، لا يفرقون بين السلطان والعامى، يكتبون لب القول وهدفه، ويتحررون من زوائد الألقاب وحشو العبارات.

وقد اهتموا بشئون الصيد وأخذوها مأخذ الجد، ووفقا لقول القائل بأن "صيد الوحوش يناسب أمير الجيوش" أصبح واجبا على أرباب السلاح وأصحاب الكفاح أن يتعلموا كيف يصل الصيادون إلى الصيد وعلى أى أسلوب يصيدون وكيف يصطفون وكيف يطوفون بالصيد حسب قلة الرجال أوكثرتهم...

وحينما كانوا ينتوون الخروج إلى الصيد كانوا يرسلون رجالا للاستطلاع وتحديد أنواعها ومعرفة عددها من حيث القلة والكثرة.

وعلى الجند أن يحرصوا على ممارسة الصيد فى وقت فراغهم وعدم وجود أعمال يقومون بها، وعلى القادة أن يحثوا الجند على ممارسته، ولم يكن الهدف من ذلك هو ممارسة الصيد لذاته بل ليتمرنوا ويتعودوا على القتال ورمى السهام وتحمل الصعاب والمشاق.

وحين يعزم الخان على الخروج لصيد كبير - الذى يحدث عادة فى بداية فصل الشتاء- تصدر الأوامر للجند المرابط على مضارب الخان وما يجاور المعسكر للاستعداد للصيد، وينطلق وفق إشارته من كل عشرة أشخاص عدة رجال لتعيين مواضع الصيد وما يلزمه من آلات ومعدات وأشياء أخرى، ويعينون القلب والميمنة والميسرة ويفوضون الأمر إلى الأمراء الكبار، ويخرجون ومعهم زوجاتهم وما يلزمهم من المأكولات والمشروبات.

ويضربون حلقة الصيد شهرا أو شهرين أو ثلاثة، ويسوقون الصيد بداخلها فى تؤدة وهوادة ويحرصون على أن لا يخرج من تلك الحلقة، فإذا عدت واحدة من الصيد هاربة فجأة جدُّوا فى البحث والاستقصاء عن سبب ذلك وعلته، ويعاقب أمراء الألف والمائة والعشرة على ذلك بضربهم بالعصا، بل وكثيرا ما يقتلون، وكذلك يفعلون إذا لاحظوا اضطرابا أو اعوجاجا فى الصف الذى يطلقون عليه اسم "تركه" (حلقة) لاحظوا بعض رجاله أو تأخرهم عما هو مرسوم لهم، فكانوا يبالغون فى تأديبهم وعقابهم، ولا يهملون ذلك . ويستمر القوم على هذا المنوال شهرين أو ثلاثة ليلا ونهارا يسوقون الصيد أمامهم كقطعان الخراف ويرسلون الرسل إلى الخان مخبرين ومبلغين بما تم من أمر الصيد قليله وكثيره، وبما يعتريه من زيادة ونقصان، وإلى أين انتهى ومن أين أفلت... حتى إذا ما ضاقت الحلقة واقترب بعضها من بعض بمقدار فرسخين أو ثلاثة يصلون بينها بالحبال وينشرون عليها اللباد ويصطف الجند حولها كتفا إلى كتف وقد توسطتها صنوف الوحوش تزمجر وتصرخ وأنواع السباع فى زفير وصياح ويظنون أن وعد الحق القائل "وإذا الوحوش حُشرت" قد تحقق فترى الأسود قد آلفت وتصادقت مع حمر الوحش واستأنست الضباع مع الثعالب وصادقت الذئاب الأرانب، حتى إذا ما ضاقت الحلقة أكثر واستحكمت حلقاتها ولم يعد للأوابد مجال للجرى تسرح فيه وتمرح، انطلق الخان فى البداية يطاردها وسط الحلقة مع بعض نفر من خاصته، فيأخذون فى رميها بالسهام صائدين، فإذا ما اعتراهم ملل صعدوا إلى ربوة عالية وسط الحلقة يشاهدون منها أبناء الخان إذا ما نزلوا إلى الصيد ودخلوا الحلقة، ويدخل من بعدهم -على الترتيب- صغار النبلاء أبناء الخان والأمراء والعامة من الناس، ويمضى الحال على هذا المنوال أياما عدة، حتى إذا لم يبق من الصيد شيء سوى واحد واثنين قد جرحا أو أصيبا وقد اعتراهما ضعف وهزال، عندئذ يتقدم الشيوخ والصغار إلى الخان ضارعين إليه ويشفعون عنده للإبقاء على ما بقى من الحيوانات ثم يسوقونها بعد ذلك إلى موضع أكثر قربا من الماء والعلف ثم يجمعون كل ما صادوه، فإذا تعذر حصر جميع الحيوانات وعدها اقتصروا على السباع وحمر الوحش

منها.

حكى أحد الأصدقاء أنهم فى عهد القا آن قد اصطادوا على هذا النحو فى فصل من فصول الشتاء، وأن القا آن قد جلس على ربوة عالية لمشاهدة ذلك، بينما انتهت الحيوانات من كل نوع صوب مقامه وقد وقفن بأسفل الربوة وأخذن فى الصياح والصراخ كطلاب العدل والإنصاف، فأصدر القا آن أمرًا بإطلاق سراح كل الحيوانات وكفوا عن أذاها والتعرض لها، وطلب القا آن أن يقيموا حائطا من الخشب والطين بين بلاد الختاى ومقامه الشتوى وأن يعدوا لها الأبواب اللازمة حتى يدخل إليها كثير من الصيد من مسافات بعيدة، ويصيدوها على النحو الذى سبق ذكره.

وأقام جغتاى كذلك فى منطقة قناس والماليغ مكانا للصيد على هذا النحو وكان الحرب والقتل وإحصاء القتلى والإبقاء على هذا المنوال أيضا، ووفقا لهذا المثل حذو النعل بالنعل فإن كل ما يبقى فى أطراف هذه المساحة يكون عددا ضئيلا من الجرحى والضعفاء، وبالنظر إلى ترتيب الجيش، منذ عهد آدم حتى الآن، حيث انضوى أكثر الأقاليم تحت سلطة وتصرف جنكيز خان وأرومته، لم يطالع فى تاريخ ولم يسطر فى كتاب أن أحدا من الملوك الذين كانوا مالكين لرقاب الأمم مسيطرين عليها قد تيسر له جند كجيش التتار، فقد كانوا صابرين فى وقت الشدة والرفاهية. شاكرين فى السراء والضراء، منفذين للأوامر، مطيعين لأمر الجيوش لا يتوقعون مكافأة أو إقطاعا ولا ينتظرون دخلا أو مجدا، وتلك أفضل العادات والسبل فى ترتب الجيش وإعداده.

فإن الأسود إذا لم تكن جائعة لا تصيد ولا تسعى إلى قنص أية فريسة، وهناك مثل أعجمى يقول : "لا يأتى صيد من كلب شبعان"، وقالوا: "أجِع كلبك يتبعك"، وأى جيش فى العالم يستطيع أن يكون كجيش المغول؟ فهم وقت العمل وفى أثناء الهجوم والقنص سباع ضارية، وفى أثناء السلام والفراغ كالأغنام تدر اللبن وتنتج الصوف ومنافع كثيرة أخرى.

وهم مرتاحو النفوس فارغو البال مستريحو الضمائر مع تقلب الأمور وحلو الأحوال ومرها.

جنود الجيش مثال الرعية يتحملون كل صنوف المؤن، ولا يتضجرون من أداء ما يُفرض عليهم من ضرائب وأموال وحاجات وصادر ووارد وترتيب للجياد والحمير للبريد وما يلزمها من علف، ورعية مقاتلة إذا ما جد الجد يكونون جميعا شيبة وشبابا شريفا أو وضيعا مبارزين يجيدون الطعن بالسيوف، ورماة سهام مهرة وقاذفى أسنّة يتقدمون بأداء كل عمل تتطلبه الظروف والأحوال، فإذا ما بدرت لهم فكرة قتال عدو أو ثائر، فإنهم يعدون ويرتبون كل ما هو لازم ومفيد لمصلحة العمل من مختلف الأسلحة والآلات حتى البيرق والمخراز والحبال والمراكب والحيوانات من حمير وجمال.

وعلى كل شخص أن يقدم ما يجب عليه وفقا لتقسيم العشرات والمئات ويعرضون الآلات فى يوم العرض، فإذا وجد نقص فإن المقصرين يعاقبون على ذلك أشد العقاب ويوجَّه إليهم اللوم ويعنفون كثيرا، ومع أنهم يكونون مشتركين فى المعركة أحيانا فإنهم يستقدمون كل ما يفيد من أنواع الضرائب والمكوس بينما تظل خدماتهم ومؤنهم التى تؤديها نساؤهم وأفرادهم الذين يتخلفون ويبقون فى بيوتهم كما هى لدرجة أنه إذا حدث أمر ما وألزم شخص ما على القيام به ولم يكن الرجل حاضرا فإن على زوجته أن تخرج بنفسها وتؤدى هذه المصلحة. وأعدوا مكانا لعرض الجند وإحصائهم.

وألغوا دفتر العرض، وعزلوا أصحابه ونوابه، وقسموا الخلائق إلى مجموعات تضم كل مجموعة عشرة، وعينوا واحدًا من كل عشرة أميرا على التسعة الباقين، واختاروا واحدا من بين كل عشرة أمراء وأسموه أميرة المائة، وأخضعوا المائة كلها لأمره. وتمضى هذه النسبة حتى الألف، فإذا ما وصلت إلى عشرة آلاف، نصبوا عليهم أميرا يدعونه بأمير التومان.

ووفقا لهذه الترتيبات وعلى هذا النسق والقياس فإن كل مصلحة تطرأ وتحتاج إلى فرد أو شيء ما فإنهم يحيلونها إلى أمير التومان الذى يحيلها بدوره إلى أمراء الألوف، وتتدرج فى الترتيب حتى تصل إلى أمير العشرة، وهناك مساواة حقيقية بينهم. فإذا ما ألحق شخص ضررا بآخر لا يفرقون بينهما ولا يقيمون اعتبارات للثروة والمكانة التى يتمتع بها، فإذا ما احتاجوا إلى جند فجأة فإن الأمر يصدر بضرورة وجود بضعة آلاف فى وقت محدد وساعة معينة فى ذلك اليوم أو تلك الليلة فى موضع معين، "لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"[1] ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون طرفة عين، يذعنون لأوامر الخان، وينقادون له لدرجة أنه إذا ارتكب أمير المائة ألف خطأ بسيطا وكان بينه وبين الخان مسافة كبيرة فإن الخان يرسل إليه فارسا يعاقبه حسب الأوامر الصادرة إليه، فإذا كان الأمر قد صدر بقطع رأسه قطعها وحملها معه، وإذا طلب ذهبا حصله وأخذه منه.

ليس كالملوك الآخرين الذين يجب عليهم أن يتحدثوا بحذر شديد مع مملوكيهم الذين اشتروهم بذهبهم وأموالهم والذين كلما رأى الواحد منهم لنفسه عشرة جياد فى حظيرة لا يقول شيئا، فإذا ما خولوه سلطة الإشراف على جيش ما وحصل له من جراء ذلك ثروة وسلطة كبيرة فإنهم لا يستطيعون إقصاءه عن منصبه، وهؤلاء غالبا ما يعلنون التمرد والعصيان، وإذا ما عقد هؤلاء الملوك العزم على مواجهة عدو ما أو هاجمهم عدو من الأعداء احتاجوا الكثير من الشهور والأعوام حتى يرتبوا جيشهم وينظموا جنودهم، وينفقون الكثير من الأموال مرتبات للجنود واقطاعاتهم، وحينما يستوفون الرسوم والجرايات فإن عدد الجنود يزيد عن المئات والألوف، فإذا ما نشبت معركة تلاشت صفوفهم ولم يبرز أحد منهم إلى ميدان القتال والمبارزة مثلما يقدم الراعى حسابا عن عمله فيقول المحاسب: كم عدد الخراف التى بقيت؟ فيسأل الراعى: أين؟ فأجاب: فى الدفتر . فقال الراعى: من أجل هذا أقول إنه ليس فى القطيع خراف. وهذا تمثيل صادق لجيشهم، وكل أمير فى سبيل زيادة حصته من مرتبات جنوده يقول إنى أمتلك عددا كبيرا من الجنود. وفى يوم العرض يقلد كل واحد منهم الآخر مزورا حتى يصل إلى الإحصاء الدقيق.

---

(١) الأعراف الآية: ٣٤.

ومن القوانين الأخرى التى سنتها الياسا تحريم انتقال أى فرد من الألف أو المائة أو العشرة من مكانه الذى أحصى فيه إلى مكان آخر، ولا يستطيع أن يتخذ ملجأ آخر، ولا يمكن لأى شخص إرشاده أو إيواؤه، وإذا خالف هذا الحكم أى شخص فإنهم يقتلونه أمام الناس، وأما من آواه فإنهم يعاقبونه وينكلون به، ولهذا السبب فإن أى شخص لا يستطيع أن يرشد أو يؤوى أى مخلوق أخر، فإذا كان هناك أمير مثلا فإنه لا يستطيع أن يؤوى شخصا آخر حتى ولو كان من العامة، ولا يستطيع أن يتجنب عقاب الياسا، ولهذا فإن أى شخص لا يقدر أن يتستر على أميره أو قائده ولا يستطيع آخر أن يقويه أو يخدعه.

والأمر الآخر من قوانين الياسا أنهم يجمعون كل فتاة حسناء تكون فى الجيش ويوصلونها من العشرة على المائة, وعلى كل شخص أن يجرى اختيارا آخر حتى أمير التومان الذى يجرى اختيارا بدوره بينهن ويرسل الفتيات المختارات إلى الخان أو الأمراء حيث يجرون عليهن اختيارا آخر، فاللاتى يرونهن مناسبات وتقر بهن أعينهم يطبقون عليهن الآية الكريمة "إمساك بمعروف" وعلى الباقيات "تسريح بإحسان"[(١)].

وأمر آخر هو أنه حينما اتسعت ساحة دولتهم، وترامت أطراف ممالكهم، وحدثت حوادث مهمة، أصبح من الضرورى معرفة أحوال أعدائهم وأخبارهم، وأصبح من اللازم نقل البضائع والأموال من الغرب إلى الشرق ومن أقصى المشرق إلى بلاد المغرب.

ومن أجل هذا فقد أقاموا فى طول البلاد وعرضها نزلا للبريد (يامها) وأعدوا الترتيبات اللازمة لكل نزل وعينوا له ما يلزمه من الرجال والحيوانات والمأكولات والمشروبات وسائر الآلات الأخرى ووزعوها على التومانات وعينوا لكل تومانين نزلا واحدا.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٢٩.

وأصبحوا يوزعون الأموال وفقا لعدد النفوس، ولم تكن مرابط الجياد بعيدة عن ممر السفراء، حتى لا تتحمل الرعية والجيش المشاق والمتاعب، وفرضوا على الرسل والسفراء أحكاما صارمة للمحافظة على الحيوانات وغيرها مما يطول ذكره، ويقومون بتفقد دور البريد عاما بعد عام ويأخذون من الرعية تعويضا عما نقص منها.

وحينما تمت السيطرة لهم على سائر البلاد والعباد قاموا وفقا لما هو متبع عندهم بوضع نظام لإحصاء السكان وحصرهم وصنفوهم إلى عشرات ومئات وآلاف، وحملوهم نفقات الجيش ودور البريد والخراج والعلف غير ما يحصلّونه منهم من أموال بالإضافة إلى ذلك حتى أثقلوا كاهلهم بالضرائب.

ولهم عادة أخرى يجرون عليها تقضى بأنه إذا توفى موظف أو واحد من الرعية فإن ما يخلفه لا يهتمون به ولا يتعرض له أى مخلوق سواء أكان كثيرا أم قليلا، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة يعطون تلميذه أو غلامه ما تركه، وخلاصة القول أن مال الميت لا يمكن أن يوضع ببيت المال أو خزانة الدولة، ولا يتفاءلون بذلك.

وقد أرسلنى هولاكو إلى بغداد وكانت ضرائب التركات تثقل كاهل الأهلين فى جميع أنحاء الولاية، فألغيت هذا النظام وأسقطت هذه الضرائب التى كانت مفروضة منذ زمن بعيد على بلاد تستر وبياب، ومثل هذه القوانين كثيرة، وإثبات كل واحد منها أمر يطول شرحه، لهذا نكتفى بهذا القدر.

ذكر خروج جنكيز خان وبداية انتقال سلطة ملوك الدنيا وممالكها إليه وشرح ذلك على سبيل الإيجاز

قبائل وشعوب المغول كثيرة، إلا أن قبيلة قيات تفضل القبائل الأخرى المشهورة الآن من حيث الأصالة والعظمة، وقد كان آباء جنكيز خان وأجداده سادة لهذه القبيلة ورؤساء عليها، وهم ينتسبون إليها، وكان جنكيز خان يسمى فى بداية حياته باسم تمرجين(*)، وظل كذلك حتى استولى على ممالك الربع المسكون، وفقا لسابق التقدير، وحكم كن فيكون.

وفى ذلك الوقت كان أونك خان سيدا لقبائل ساقيز[1] وكريت التى كانت أكثر قوة وشوكة من القبائل الأخرى تفوقها عدة وعتادا وعددا، ولم تكن قبائل المغول آنذاك يسود بينها الوئام والاتفاق ولا تطيع الواحدة منها الأخرى، وحينما ترك جنكيز خان مرحلة الطفولة وانخرط فى سلك الرجولة صار فى الاقتحام أسدا ضاريا وفى الاصطدام سيفا بتارا ذا بأس شديد فى قهر الخصوم، وفى عقابه للأعداء والخصوم مذاق السم القاتل، ولصرامته وهيبته فعل الدهر فى كسر شوكة أصحاب الدول والتيجان، وكان كثير التردد على أونك خان فى كل وقت لدنو الديار وقرب الجوار، وكان بينهما ود ومحبة، فلما رأى أونك خان صواب رأيه وسديد فكره ولاحظ شجاعته وعظمته وهيبته أُعجب بصرامته وشهامته، وبالغ فى إكرامه وإعزازه وزاد فى رفع منزلته وإعلاء مقامه يوما بعد آخر، حتى فوض إليه أمور البلاد وشئونها، ونتيجة لنظامه وسياسته استقامت أمور جيوش أونك خان ومعيته،

(*) تموجين وتمرجى.

(١) يقول بلوشيه إن ساقيز هى قبيلة النايمان ومعيته، فكلمة ساقيز فى اللغة التركية تعنى العدد ثمانية ونايمان باللغة المغولية بهذا المعنى.

فتألم أبناء أونك خان وإخوته وبخاصة المقربون منه، وامتلأت نفوسهم حقدا وحسدا على ما نعم به جنكيز من منزلة وقربة ونفوذ فأخذوا فى طرح شباك المكر والخداع كلما سنحت الفرصة لذلك وأخذوا يغزلون حبال الغدر والوقيعة لتقبيح صورته وسمعته، وأخذوا يعدون ويرتبون فى مكامن خلواتهم قصصًا وأحاديث عن استيلائه واستعلائه ويكررون الأحاديث عن ميل الناس إليه واقترابهم منه والتفافهم حوله، يكررون لأونك خان ذلك المعنى كناصحين وأهل خير، حتى شك أونك خان فى أمره، ويئس من إصلاح الأمر على يديه ودب الخوف والاضطراب فى قلبه من بأسه وسطوته وقوته وتمكنه منه، ولما كانت مواجهته ومنازعته ومخاصمته له نهارا جهارا أمرا متعذرا، فكر فى دفعه بالمكر والخديعة، وأن يمنع بالحيلة والغدر السر الذى وهبه الحق تعالى لتقويته، فاتفقوا فيما بينهم على أن يغيروا عليه وعلى رجاله ليلا، وأن يهاجموهم وقت السحر بينما العيون مكتحلة بالنوم الهادئ الجميل، والخلائق غافلون وقد أسلموا للراحة والهدوء، وأن يخلصوا أنفسهم بهذا من مخاوفهم التى تتراءى لهم، وأعدوا أنفسهم لهذا العمل واستعدوا له لتنفيذ تلك العزيمة.

ونظرا إلى أن الحظ كان حليفه والسعادة رداءه فقد هرب طفلان من أونك خان أحدهما يدعى كلك والآخر باده وأخبرا جنكيز خان بخبث عقيدة أونك خان وأتباعه ورجس مكيدتهم، فهب جنكيز خان على الفور وأجلى أهله وقومه ونقلوا خيامهم من أماكنها، فلما عدوا على موضع خيامهم فى وقت السحر ألفوها خالية خاوية. وعلى الرغم من اختلاف الروايات فى هذا المقام، هل عادوا من بعد ذلك، أم انطلقوا فى أثرهم باحثين عنهم، فإن مما يمكن استنباطه من هذه الحكايات أن أونك خان قد جد فى طلبه مع عدد كبير من قومه، وكان مع جنكيز خان نفر قليل من الأتباع، والتقى الفريقان عند عين ماء يقال لها "بالجونة" وبذل فى الحرب جهودا جبارة، وفى أونك خان ورهطه، وفى النهاية تمكن جنكيز خان مع نفره القليل من الانتصار على الكثير، وغنم منه مغانم كثيرة، وقد حدث هذا فى شهور سنة تسع وتسعين

وخمسمائة. وسجلت أسماء جميع من اشتركوا وصاحبوه فى هذه المعركة من وضيع أو شريف، أمير أو غلام، فرّاش أو سائس، سواء كان من الترك أو التازيك أو الهنود، ومنح هذين الغلامين لقب ترخان، وكان هذا اللقب يعفى حامليه من جميع المؤن والواجبات وأن تسلم إليهم كل غنيمة يغنمها الجيش الذى هم فيه، وأن يدخلوا إلى الحضرة السلطانية كلما أرادوا ودون استئذان ومنحهم قوات ورجالا وكثيرا من الحيوانات والجياد ووسائل الزينة التى تفوق الحصر والعد، وأن لا يؤاخذوا على الذنوب التى يقترفانها مهما كثرت وأن يراعى اتباع ذلك فى نسلهما وأعقابهما حتى الجيل التاسع لهما، ويوجد الآن من نسل هذين الشخصين كثير من الأقوام، حيث يلقون الكثير من الاحترام والتقدير فى سائر الممالك والأقطار، ويحظون بالمزيد من الإعزاز والوفاء لدى السلاطين، وأما الأقوام الأخرى فقد نال كل فرد منهم مهما كان مرتبه عالية ونال الفراشون والحمالون حظوة ومقاما كبيرا، فقد صار بعضهم ملوك العصر والزمان ووصل بعضهم إلى المناصب الكبرى، وطبقت شهرتهم الآفاق.

وحينما قوى جيش جنكيز خان واشتد عوده وحتى يحول بين أونك خان وإعادة بناء جيشه واستعادته لقوته فقد أرسل جيشا فى عقبه وحاربه فى معركتين انتصر فى كلتيها، وهزم أونك خان وأسر أهله وقومه حتى النساء والبنات، وقتل هو أيضا فى النهاية.

وحينما ارتفع شأن جنكيز خان واستعلت كواكب سعادته، أرسل السفراء إلى القبائل الأخرى وأدخل فى زمرة أمرائه وحشمه كل شخص أعلن الانقياد له والإذعان لأمره من القبائل الأخرى مثل الأويرات والقنقورات وشملهم بعنايته ورعايته، وأما من طغى وتكبر وآثر التمرد والعصيان فقد دمره بسياط البلاء وسيوف الدمار والفناء، حتى اتحدت القبائل جميعها تحت حكمه وأذعنت لسلطانه وأمره. أرسى قواعد وأسسًا جديدة وبسط بساط العدل والإنصاف، وقضى على ما كان بينها من عادات ذميمة وصفات قبيحة من سرقة وزنا، وقد ذكر بعض هذا فيما سبق.

وخرج فى تلك الأثناء شخص كان كما سمعت من بعض ثقات المغول قد قضى أياما عدة عاريا بين الصحراء والجبال فى البرد الشديد الذى يغلف تلك الأنحاء ثم عاد وقال: "تحدث إلىَّ ربى قال: "لقد منحت وجه الأرض قاطبة إلى تمرجين وأولاده وقد أسميته جنكيز خان، فأخبره بهذا حتى يبسط بساط العدل"، ويطلقون على هذا الشخص اسم "بت تنكرى".

ولم يعدل جنكيز عن أى شيء مما قاله هذا الرجل، فقوى أمر هذا الرجل واجتمع حوله من الحشم الكثير ودارت فى رأسه سوداء الملك والسلطان.

وذات يوم خلال إحدى الولائم قامت بينه وبين أحد أبناء جنكيز مشادة كلامية فطرحه الابن فى نفس المجلس أرضا طرحة لم ينهض بعدها.

وخلاصة القول أنه أرسل الرسل إلى بلاد الختاى بعد أن طهرت تلك المناطق من الطغاة، وبعد أن صار جميع أفرد القبائل جنودا له، ثم مضى بنفسه أيضا وقتل التون خان ملك الختاى واستولى على مملكته، كما فتح ممالك أخرى بالتدريج كما سيأتى ذكر كل واحدة منها على حدة.

ذكر أبناء جنكيز خان

كان لجنكيز خان من نسائه وجواريه الكثير من الأولاد ذكورا وإناثا[١]، وكانت يسونجين بيكى[٢] كبرى وفضلى الزوجات، ووفقا لعادة المغول فإن منزلة أبناء أب من الآباء تختلف باختلاف منزلة الأمهات، فإذا كانت الأم أكبر منزلة ازداد أبناؤها منزلة ومقاما، وكان لجنكيز خان من هذه الزوجة أربعة أبناء اضطلعوا بعظائم الأمور وجلائل الأعمال وكانوا لعرش المملكة عمدا أربعة ولإيوان السلطنة أركانا أربعة.

اختص جنكيز خان كل واحد منهم بعمل من الأعمال، فعهد إلى توشى وهو أكبرهم بشئون الصيد والطرد الذى كان عندهم أمرا كبيرا ومحببا، واختار جغتاى[٣] الذى كان أصغر منه لتنفيذ أحكام الياسا والالتزام بها ومعاقبة مخالفيها، واصطفى أوكتاى[٤] لما يتصف به من رجاحة عقل وحسن رأى وتدبير لإدارة الملك، ورجح لتولى أمر ترتيب الجيوش وتجهيز الجنود، فلما فرغ من أمر أونك خان وخضعت القبائل المغولية لأمره -بعضها طواعيه واختيارا وبعضها إذلالا وإجبارا - وأضحوا جميعا تحت أمره ورهن مشيئته، قسم قبائل وأقوام المغول والنايمان وسائر الجيوش على أبنائه المذكورين، وعين لكل فرد من أبنائه الصغار الآخرين وإخوته وأقاربه نصيبا من الجند، ثم شرع بعد ذلك فى تشييد بناء الوفاق وإرساء دعائم الألفة

---

(١) تذكر دائرة معارف فارس جـ ١ أن عدد زوجاته يزيد عن خمسمائه امرأة. ١٣٤٥ هـ تهران.

(٢) ورد اسم هذه السيدة فى جامع التواريخ جـ ١ ص ٥٦٣ "برزين" باسم بورته فوجين، ويقول بلوشيه Blochet إن يسونجين تعنى باللغة المغولية المرأة الحسناء، ويبدو أن يسونجين كان لقبا لها واسمها هو "بورته فوجين"، ويذكر بويل Boyle ص ٤٠ أن اسمها الحقيقى هو بورته Borte ، ومن الجائز أن يكون الجوينى قد خلط بين اسمها واسم زوجة هولاكو والدة خليفته أباقا فقد كان اسمها هو يسونجين.

(٣) يذكر فى التاريخ السرى للمغول باسم Ca'adai .

(٤) يذكر فى التاريخ السرّى للمغول باسمOgodai .

بين الأبناء والإخوة، فغرس بذور الوفاق والوئام فى صدور الأبناء والإخوة والأقارب، ونقش فى قلوبهم صورة التعاضد والمساعدة وأحكم ذلك البناء وأرسى تلك القاعدة بضرب الأمثلة، وذات يوم جمع أبناءه واستل سهما من غمده وكسره ثم استبدل بالواحد اثنين وكسرهما كذلك ثم أخذ يزيد واحدا بعد الآخر حتى كثر عددها وعجز الأبطال الأقوياء عن كسرها، ثم توجه إلى أبنائه وقال: هذا مثلكم، فالسهم وحده ضعيف فإذا ما تضاعف عدده برفاقه كانوا لبعضهم عونا وسندا يعجز الأبطال عن كسرهم والنيل منهم ويقرون بالعجز والضعف حياله فما دامت مظاهر التأييد ظاهرة بينكم أيها الإخوة اشتد ساعد[١] كل واحد منكم بمساعدة الآخرين، ولن يستطيع أصحاب الشوكة والقوة النيل منكم أو الانتصار عليكم، وإذا لم يكن بينكم رئيس يطيعه الآخرون من الإخوة والأولاد والأعوان ويتبعون رأيه وينفذون أمره يكون مثلكم مثل الحية التى تعددت رءوسها، واشتد البرد ذات ليلة فأرادت الولوج فى جحر يقيها البرد ويدفع عنها غائلته، فإذا ما دخل رأس نازعه الآخر، حتى تهلك جميعها، وأما الحية ذات الرأس الواحد والأذناب الكثيرة فقد دخلت الجحر وهيأت لذنبها وجميع أعضائها وأجزائها مكانا ونجت جميعها من البرد وشدته.

وألقى عليهم من أمثلة هذه النظائر وأشباهها الكثير حتى استقرت تلك النصائح والأقوال فى ضمائرهم وقد التزموا ذلك فيما بعد، فمع أن الحكم والسلطان كان فى الظاهر لواحد منهم يتقلد الخانية ويتسم بها فإنهم فى الحقيقة كانوا جميعا من أولاد وأحفاد وأعمام مشتركين فى الملك والأموال، والدليل على ذلك أن ملك العالم منكو قا آن قد قسم فى الاجتماع العام الثانى الكبير (القوريلتاى) الممالك ومنح جميع الأنساب من بنين وبنات وإخوان وأخوات نصيبا منها، وحينما اتسعت عرصة المملكة فى عهد جنكيز خان عين لكل فرد موضع إقامته الذى يقيم فيه والذى يسمونه يورت، أى الموطن، فعين أخاه أوتكين نويان[٢] وجماعة أخرى من أحفاده فى مناطق

---

(١) فى المتن "مساعدت" وفى النسخة (د) ساعد، وقد ترجمتها وفق النسخة (د).
(٢) يقول رشيد الدين، جـ ٢ برزين ص٩٧ فى أثناء حديثه عن أبناء يسوكاى بها دور والد جنكيز "بسر جهارم: تموكه أوتجلين تموكه نام است وأوتجكين يعنى خداوند آتش وبورت، وبسر كوجكين أوتجكين كونيد".

بلاد الختاى، وأعطى ابنه الأكبر توشى المنطقة الممتدة من حدود قيـاليغ[١] وخوارزم حتى أقصى بلاد السقين[٢] والبلغار وهى أقصى منطقة ذهبت إليها حوافر جياد التتار، واختار لجغتاى المنطقة الممتدة فى حدود بلاد الأويغـور حتى سمرقند وبخارى، وكان مقامه فى قناس بجـوار المـاليغ[٣]، وكانـت عاصمة أوكتاى -الذى كان وليا للعهد- تقع فى موطنه فى عهد والـده مـن حدود إيميل[٤] وقوتاق.

فلما ارتقى عرش السلطة انتقل إلى الموضع الأصلى الذى كان بـين الختاى وبلاد الأويغور وأعطى ذلك المكان لابنه كيوك وذكر منازله مثبـت على حده فيما بعد، وكان تولى أيضا متصلا به ومجاورا له، وفى الحقيقـة كان ذلك الموضع وسط المملكة وكان منها مثل المركز من الدائرة.

وما سبق ذكره ما هو إلا قليل من كثير، فأولاد جنكيز خان وأحفـاده يزيدون عن عشرة آلاف لكل منهم مقامه وموطنه وجنوده وعدته الخاصـة به، وليس ضبط ذلك بالأمر اليسير وكتابته ليست بالإمكان كذلك والهدف من ذكر ذلك إظهار اتحادهم ووفاقهم بخلاف ما يروى عن الملوك الآخرين الذين يعتدى فيهم الأخ على أخيه، ويفكر الابن فى التخلص من أبيـه والجلـوس مكانه، فلا جرم أن غلبوا على أمرهم وذاقوا وبال أفعالهم وانتكست دولة كل واحد منهم ونكبت بهم. قال الله تعالى: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"، انظر كيف انتصر أبناء جنكيز خان علي العالم كله لما ساد بينهم من اتفـاق ووئام، وكيف أبادوا الأعداء وانتصروا على العالم كله، والمقصود من إثبات تلك الحكايات وكتابة التاريخ أن يستفيد العاقل من تجـارب الآخـرين دون معاناة لها ومكابدة لمخاطرها وأن يتهذب سلوكه بمطالعة مثل هذه المقالات.

---

(١) قياليغ: اسم مدينة فى تركستان الشرقية بجوار كاشغر وختن وكانت خاضعة لملوك الترك المعـروفين باسـم الخانية". حواشى القزوينى ص٣١.

(٢) كانت مدينة على نهر الفولجا.

(٣) الماليغ: اسم مدينة كانت قرب مدينة كولجة الحالية الواقعة على نهر إيلى الذى يصب فـى بحيـرة بالكـاش الواقعة فى ولاية تيان شان فى غرب الصين.

(٤) إيميل اسم نهر يقع غرب المنطقة المغولية، ويصب فى بحيرة الأكول ويسمونه الآن إميل ويميل.

ذكر الاستيلاء على بلاد الأويغور وخضوع أيدي قوت

كان أتراك الأويغور يسمون أميرهم "أيدى قوت"[١] ومعناه سيد الدولة، وكان أميرهم هو "بارجوق"[٢]، وفى ذلك الربيع استولى قراختاى على بلاد ما وراء النهر وتركستان فدخل بارجوق أيضا فى طاعته وقبل دفع الجزية له وأرسل إليه شحنة له كان اسمه شاوكم[٣]، فلما استقر شاوكم فى الحكم سلك سبيل الظلم والاستهزاء بأيدى قوت وأمرائه حتى نفر الأمراء والرعية، فلما استولى جنكيز خان على بلاد الختاى وذاع صيته وشاع أمر انتصاره أمر أيدى قوت بعض رجاله فقيدوا شاوكم ووضعوه فى أحد المنازل فى قرية تسمى "قراخواجة" وهدموا المنزل فوقه، فأرسل قتالمشى قتا وعمر أوغول وتارباى إلى بلاد السلطان فاتح العالم جنكيز خان معلنا الانشقاق والعصيان على القراختاى ومذعنا ومستسلمًا لجنكيز خان، فأكرم وفادة الرسل وأمر بإعزازهم وإكرامهم، ونوه برغبته فى ضرورة حضور أيدى قوت إليه بنفسه، فسارع إليه امتثالا لأمره، وحينما وصل إلى هناك شاهد ما وعد به من وعود، وعاد محملا بالهدايا والهبات.

وحينما تحرك الجيش قاصدا كوچلك تلقى أيدى قوت أمرا بضرورة مجيئة هو وعدد من أبطاله من نواحى الأيوغور فسار إليه مع ثلاثمائة من رجاله تنفيذًا للأمر الصادر إليه، وقدم إليه مساعدات كثيرة.

---

(١) فى حين يذكر أبو الغازى بهادر أن معنى أيدى قوت هو الروح المرسلة، ويتفق رشيد الدين فى جـ ١ ص ١٥٩ من جامع التواريخ مع الجوينى، بل إن رشيد الدين فى حديثه عن الأويغور يتبع الجوينى فى فقرات كثيرة كلمة بكلمة.

(٢) يذكره رشيد الدين باسم باورجق، جـ ١ برزين ١٥٩.

(٣) يذكره رشيد الدين جـ ١ صفحة ١٥٩ شادكم.

وحينما عاد الجيش من تلك الغزوة، لازم أيدى قــوت قومـــه وأهلـــه بتصريح من جنكيز خان حتى إذا ما عزم جنكيز خان على التوجه بنفسه إلى بلاد السلطان محمد "أمر بأن يمتطى أيدى قوت جوادا ويلازم جيشه ويــسير معه، وفى الوقت الذى توجه فيه الأميران جغتاى وأوكتاى لمحاصرة أتـــرار والاستيلاء عليها كان فى صحبتهم كذلك، وبعد الاستيلاء على أتــرار ســار تربای ويستور وغداق متوجهين إلى وخش وما يجاورها، فأوفده جنكيز خان لمصاحبتهم أيضا.

وحينما وصلت الرايات السلطانية إلى المخيم القديم، وتوجه جنكيـــز إلى تنكوت، فقد توجه هو أيضا من بيش باليغ مع جيشه تنفيذا للأمر الصادر إليه، ونتيجة لهذه الخدمات والأعمال الجليلة فقد خصه جنكيز بمزيـــد مـــن العطف وكثير من الاحترام، وخطب له واحدة من بناته.

إلا أن ابنته توقفت فى الطريق بسبب وفاة جنكيز، وعاد هو إلى بيش باليغ، حتى إذا ما تربع القا آن على عرش السلطة أنعم عليه – تنفيذا لأمـــر والده– بألتون بيكى التى أدركتها الوفاة قبل وصولها إليه بفترة وجيزة، وبعد مدة قصيرة خطب له القا آن ألاجى بيكى، إلا أن أيدى قوت توفى قبل تسليمه إياها فقدم ابنه كسماين إلى الحضرة السلطانية وحل محل أبيه ولقب بأيـــدى قوت وتزوج بألاجين بيكى، وبعد مدة وجيزة رحل أيدى قوت كسماين عـــن دار الدنيا وقام مقامه بأمر من توراكينا خاتون أخوه ساليدى ولقب بلقب أيدى قوت، وقد استقرت له الأمور وتمكن فى الحكم وكان محترما، والله الموفق.

ذكر بقية أحوال الأويغور

مع أنه كان من الواجب أن يثبت هذا التقرير بعد التحدث عن جلوس منكو قا آن فإن سياق القول جعل إثبات هذه الحكاية فى هذا الموضع لائقا ومناسبا.

حينما تولى ملك العالم منكو قا آن مقاليد الحكم وأسندت السلطة إليه، اضطربت الأمور نتيجة للغدر الذى كانت جماعة قد فكرت فيه، فأرسلت هذه الجماعة إلى أيدى قوت رسولا يدعى بلا بيتكجى مكان إغوريا بوذيا، وتبوأ فى السلطة مكانا مهمًا والجنسية علة الضم تمكن من إغرائه بالكثير من الوعود والأمانى العديدة لتنفيذ طلباتهم التى كان من بينها أن يقوم الأويغور بقتل جميع المسلمين الذين يقطنون بيش باليغ وما يجاورها، وأن يسلبوا أموالهم ويأسروا أولادهم وأن يعدوا خمسين ألف فرد حتى يكونوا عونا ومددا إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، واشترك معهم فى هذا التدبير من أمراء الأويغور بليكافتى وتوكميش بوقا وساقون وإيدكاج واتفقوا على أن يخرج الأويغور عليهم فى مكامنهم إلى ساحة المسجد الجامع فى يوم الجمعة حين الانتهاء من الصلاة ويكدروا عليهم حياتهم ويمزقوا جيش الإسلام شر ممزق:

فهم يطفئون المجد والله موقد وهم ينقصون الفضل والله واهب

ولإتمام هذا الاتفاق وتنفيذ هذه النية أقام أيدى قوت خيمة فى الصحراء محتجًا بأنه فى طريقه إلى بلاد غايمش وخواجة وناقو، واجتمعت أفواج من الأويغور حوله.

وكان هناك غلام يدعى تكميش وهو من أفراد بيلكافتى قد استرق السمع ذات ليلة وسمع مكرهم واطلع على تدبيرهم وأخفاه فى نفسه، حتى حدث بعد أسبوع أن تعارك مع أحد المسلمين فى قارعة السوق فقال له:

"افعل كل ما تستطيع فسينتهي عمرك بعد ثلاثة أيام"، وكان الأمير سيف الدين – الذي كان ينعم بمقام كبير وهيبة عظمى وقد أضحى من كبار رجال الحضرة – موجودا في بيش باليغ آنذاك، فأخبره المسلمون بهذا القول فاستدعى تكميش وبحث معه واستفسر منه عن سر ما قال في أثناء نزاعه فأعطاه تكميش تقريرا وافيا عن كل ظروف الحال وتفكير المعارضين وأسلوبهم، وخلال هذين اليومين وصل نبأ جلوس سلطان العالم[1] واتضحت أحوال المخالفين وتخلى أيدي قوت عن تلك الفكرة مضطرا وولى وجهه قاصدا الحضرة فأرسل الأمير سيف الدين رسولا لاستدعاء أيدي قوت من الطريق، فلما عاد ومعه مرافقوه ووصل إلى الأمير سيف الدين ووجهوا بتكميش وقوبلوا به فلم يتراجع عن أقواله وأيد روايته بذكر الوقت والساعة والمكان في أثناء المشاورة والتدبير فأصابتهم الحيرة وغشيتهم الدهشة واضطربت عقولهم وتلاشت آراؤهم، ولم يكن هناك مجال آخر سوى الإنكار فأنكروا ذلك ونفضوا أيديهم من هذا الأمر، وبعد قيل وقال وصياح وجدال من ناحية أيدي قوت ورفاقه برئت ساحتهم وصحح تكميش أقواله وغيرها وأقروا ذلك كتابة.

وأخذوا من الأويغوريين الآخرين الذين كانوا معه إقرارا وتعهدا نص على أنه إذا ثبت أنه كان لأحد منهم علم بهذا ويخفيه وإذا ظهرت فتنة أو خديعة بعد هذا يكون من المجرمين ويكون دمه وماله مباحا، فنهض تكميش وقال: إن هذا الأمر لا يمكن البت فيه إلا في بيش باليغ ولهذا فإني ذاهب إلى الحضرة السلطانية حتى يتم بحث ذلك واستقصاؤه ومناقشته في المحكمة الكبرى "بأرغوى ترك".

فأرسل الأمير سيف الدين تكميش في المقدمة مع رسول لإنهاء هذا الأمر وأمره بالتوقف قليلا وانتظار أيدي قوت وأتباعه فمكث قليلا ولم يصل أيدي قوت فأحضر تكميش بيلاتكجي إلى المحكمة، فلما أنكر عرّوه وفق

---

(١) يقصد منكو قا آن بن تولى بن جنكيز خان.

عادتهم من ثيابه وتركوه كما ولدته أمه وأوسعوه ضربا بالمطارق التى يدقون بها الطبول حتى اعترف فى النهاية بحقيقة الأمر واتفاقهم على مخالفة سلطان العالم منكو قا آن ومعارضته على النحو الذى ذكره تكميش فـأخلوا سـبيله وتركوه، وسيروا تكميش مع رسول آخر يدعى مكنقولاد لإحضار أيدى قوت الذى ولى هاربا حين سماعه نبأ الرسل متخذا طريقا آخر غير طريقهم، وبعد أن صال تكميش وجال فى بيش باليغ وقدم له كل فـرد مـن الأويغـوريين الرشوة خوفا على حياته بل وقدموا له الكثير من الخدمات مضى فـى أثـر أيدى قوت إلى الحضرة السلطانية، وأخذ منكسار نوين فى بحـث الأمـور واستقصاء الأحوال، إلا أنهم أخروا العقاب لإصرار أيدى قوت على الإنكار، ثم ربطوا يديه حتى سقط على وجهه بسبب عجزه، وأحكم الموكـل لوحـا خشبيا فوق جبهته ثم انتزعه عنه، وكان جزاء الموكل على هـذا العمـل أن ضرب سبعة عشر سوطا على موضع إزاره.

وظل أيدى قوت على إصراره وإنكاره فواجهوه بتكميش بوقا الذى قال له لن تكون هناك فائدة أو مخرج من هذا سوى الصدق فلم يعترف بـأقوالهم التى جرت بينهم وظل على إنكاره. وأحضروا بلابيتكجى أيضا الذى اعترف فى مواجهة أيدى قوت بجميع الأقوال والأحاديث التى جرت بينهم من بدايتها حتى نهايتها فقال أيدى قوت متعجبا أشد العجب، هل أنت بلاء؟ ولمـا كـان اسمه بلا قال: نعم. واعترف أيدى قوت أيضا، ففكوا قيوده وأجلسوه بعيـدا، وأقر بلابيتكجى بعد أن سلكوا معه كـل طـرق الاسـتجواب والاستفـسار واعترف بجرمه، ثم استجوبوا الاثنين أو الثلاثة الباقين كلا على حده فأقروا بما تخفيه صدورهم بعد أن ذاقوا وتجرعوا كئوس العذاب وبعد أن سـاموهم صنوف الإيذاء من خشب التتار وعصيهم الخشنة، ثم أحضروا هذه الجماعة كلها بعضهم فى مواجهة بعض دون قيود أو سلاسل وسألوهم عن أقـوالهم السابقة التى أقروها ووافقوا عليها مخالفين ومعارضين، "قالوا ألـيس هـذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفـرون"، فلمـا أقـروا واعترفوا بالإجماع على ذلك وعرضوا أمرهم على رأى سلطان العالم السديد

أمر بأن يعود أيدى قوت ورفاقه فى مصاحبة السفراء إلى بيش بـــاليغ، وأن يجمعوا الناس جميعا من موحدين وبوذيين فى الصحراء فى يوم الجمعة الذى تم الاتفاق على مهاجمة المؤمنين فيه وأن يبلغوهم بـــأمر الـــسلطان مالـــك الرقاب، فقطع أو كنج أخو أيدى قوت رقبة أخيه بيـــده وشـــطروا صـــديقيه الآخرين بيلكافنى وإيدكاج نصفين وطهروا تلك الناحية مـــن أثـــر مكيـــدتهم ورجس عقيدة هؤلاء الكفرة الفجرة "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين"، وهكذا عز المؤمنون، وذل عبدة الأصنام بفضل البارئ تعالى.

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

وكان بلابتكجى من زمرة أمراء أوغول غايش وكان قد ســـجن قبـــل ظهور هذا السر وتلك الخديعة، وفى أثناء محاكمة وبحث أمر هذه الجماعـــة وتنفيذ الأحكام فيها، كان قد يئس من الحياة وأحضروه مع قوم آخرين إلـــى الصحراء وعروهم من ثيابهم حتى ينفذوا فيهم أحكامهم، إلا أن بيكى[١] نتيجة للمرض الذى ألم بها واشتدت وطأته عليها قد عفت عنه، وطلبت ذلك مـــن الجماعة الموكلة بالتنفيذ حتى يكون ذلك سببا لطول عمرها، ونجا من تحـــت السيوف.

ألا ربما ضاق الفضاء بأهله ويمكن من بين الأسنة مخرج

وقد نجا ولم يرق دمه فى هذه الحالة أيضا بسبب العفو الذى صدر قبل ذلك، إلا أنهم قبضوا على نسائه وأولاده وحاشيته وما يخصه مـــن صـــامت وناطق ووزعوه على الناس.

وكان من عادة المغول أن المذنب الذى يستحق القتل إذا نجـــا بنفـــسه وروحه أرسلوه إلى ميدان المعركة، ويقولون إنه إذا كان يستحق القتل فإنـــه سيقتل فى أثناء الحرب، أو يرسلونه إلى العصاة والمتمردين برســـالة وهـــم غير واثقين من عودته أو إعادة تلك الجماعة له، أو يرسلونه إلى المنـــاطق الحارة التى يتعفن هواؤها ويفسد جوها، ولهذا أرسلوا بلابيتكجى برسالة إلى مصر والشام بسبب حرارة الجو هناك.

---

(١) يقصد سوقوتى بيكى والدة منكو قا آن.

وحيث إن ساقون لم يشترك فى هذه المكيدة وتلك التـــدابير مـــشاركة فعالة ولما كان ينعم به من صلة بباتو فقد نجا بضربه علـــى موضـــع إزاره مائة ضربة وعشرا، وأما تكميش الذى أنبأ عن أفعالهم ومكيدتهم فقد ظفـــر بالعطف والرعاية ورزقه الحق تعالى شرف اعتناق الدين الإسلامى، وبعد أن سكن غبار الفتنة نهض أو كنج ومضى إلى الحضرة فأحلّه محل أخيه ولقبه بلقب أيدى قوت، وقد حدث ذلك فى شهور سنة ستمائة وخمسين.

ذكر نسب أيدى قوت وبلاد الأويغور حسب زعمهم

بعد كتابة تاريخهم وأحوالهم فإنى أسجل بعضا من معتقداتهم ومذهبهم الذى سطر فى كتابتهم، لا تصديقا وإقرارا بما رووه بل إعجابا ودهشة مما ذكر. يزعم الأويغور أن بداية نشأتهم وتوالدهم وتناسلهم كان بجوار نهر أرقون الذى ينبع من جبل يقال له قراقورم والمدينة التى أسر القا آن ببنائها فى هذا العهد يطلقون عليها اسم هذا الجبل.

وينبع من هذا الجبل ثلاثون نهرا يسكن بجوار كل نهر قوم آخرون، وكان الأويغور فى أرقون فريقين، فلما تكاثر عددهم وازداد جمعهم نصَّبت الأقوام الأخرى من بينهم أميرا عليهم أقروا له بالطاعة واستمروا على هذا النحو مدة خمسمائة عام حتى ظهر بوقو خان. وتتناقل الأفواه الآن أنه إفراسيابى، وأن هناك آثار بئر وحجرًا كبيرًا بجوار سفح جبل قراقورم ويقولون إنه كان بئر بيزن[1]، وتوجد كذلك آثار مدينة وقصر على شاطئ هذا النهر، وكانت تسمى باسم أردوباليغ ويسمونها الآن ما ووباليغ، وقد شاهدنا خارج آثار القصر وبمحاذاة الباب حجرا مسطورًا نقرًا، وقد أزالوا هذه الحجارة فى عهد دولة القا آن، ووجدوا بئرا وعثروا فيها على حجر كبير منقور، فصدر أمر بأن يُحضر كل شخص يستطيع معرفة هذه الخطوط وحل رموزها، فلم يوفق أى شخص إلى قراءته.

فأحضروا من الختاى قوما يقال لهم (...) [2]، وكان خط تلك الجماعة هو الذى نقر على ذلك الحجر وهذا ما كان مكتوبا عليه:

---

(١) اسم احد الأبطال للذين سجلهم أفراسياب Boyle p. 54.

(٢) بياض فى المتن. (المحقق)

كان هناك فى الزمن القديم فى ذلك العهد من بين أنهار قراقورم نهران يسمون الأول توغلا والثانى سلنكا وكانا يتصلان معا فى موضع يقولون له قملانجو، وكانت هناك شجرتان متقاربتان بين هذين النهرين يسمون الأولى "قسوق" وهى شجرة على شكل شجرة الصنوبر أوراقها فى فصل الشتاء كأوراق أشجار السرو وثمارها على شكل وطعم جلقرزة، ثمر الصنوبر. ويسمون الأخرى توز، وقد ظهر بين هاتين الشجرتين جبل كبير، وقد هبط وسط هذا الجبل ضوء من السماء وأخذ الجبل ينمو يوما بعد يوم وأصابت الدهشة أقوام الأويغور لمشاهدة هذه الحالة العجيبة فتقربوا منها بأدب وتواضع فاستمعوا عندئذ لأصوات رخيمة حلوة تشدو وتغنى بأعذب الألحان، وكان الضوء يشع فى كل ليلة مسافة ثلاثين قدما حول الجبل حتى بلغ الأمر منتهاه مثلما يحين وضع الحمل للحاملات، فتح أحد الأبواب وكان بداخلها خمسة بيوت، مثل الصومعة منفصل بعضها عن بعض ويجلس فى كل واحد منها طفل صغير قد علقت فى مقابل فم كل واحد منهم أنبوبة تعطى اللبن على قدر ما يريد، وقد علق بأعلى الخيام شبكة من الفضة، فأقبل أمراء القبائل لمشاهدة هذا المنظر العجيب فجثوا على ركبهم تأدبا وإكراما. فلما هبت الريح على تلك الأجسام قويت أجسادهم، وبدأت الحركة تدب فى أوصال هؤلاء الصغار فأخرجوهم من ذلك المكان، وأسلموهم إلى مرضعات بينما الناس يؤدون لهم مراسم الخدمة والإعزاز. فلما تعدوا طور الرضاع وبدأوا مرحلة النطق والكلام سألوا عن والديهم، "فأشار الناس عليهم" فأوضحوا لهم أمر هاتين الشجرتين فمضوا إلى هناك وقاموا بتأدية الكثير من الخدمات والواجبات التى يلتزم بأدائها الأولاد للوالدين وأظهروا الكثير من الإعزاز والإكرام للأرض التى أنبتت هاتين الشجرتين فنطقت الشجرتان: "أيها الأعزاء الصغار يجب، أن تتحلوا بمكارم الأخلاق وعظيم الخصال وأن تسيروا على الأسلوب الذى عُودتم ورُبيتهم عليه، رعاية لحقوق الوالدين أطال الله وخلد إلى الأبد ذكراكم". فأقبلت جميع الأقوام التى تقطن تلك الحدود لمشاهدة هؤلاء الصغار وحبوهم بالكثير من مظاهر الإعزاز والاحترام

اللائقة بالأمراء، حتى إذا ما حل وقت العودة أطلقوا على كل واحد منهم اسما، فأطلقوا على الابن الأكبر سنقر تكين وعلى الثانى قوتر تكين وعلى الثالث توكاك تكين وعلى الرابع أور تكين وعلى الخامس يوقو تكين، واتفقوا فيما بينهم بعد مشاهدة هذه الحالات العظيمة على أن ينصبوا عليهم أميرا من بين هؤلاء فهم رسل البارئ عز شأنه، فاتفقوا واتحدت كلمتهم جميعا على تعيين يوقو الذى كان يتميز على إخوته بجمال الوجه ومتانة الرأى والروية حاكما وملكا عليهم، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يجيد معرفة جميع لغات وخطوط القبائل كلها فأجمعت عليه القبائل وأقامت احتفالا نصبته فيه خانا وسلطانا عليهم فنشر بساط العدل وطوى صحائف الظلم وكثر حشمه وخدمه وخيله وخيوله فأرسل الحق تعالى إليه ثلاثة من الغربان تعرف جميع اللغات حتى تذهب متجسسة إلى كل مكان تكون له مصلحة فيه وتعود إليه مخبرة بأحواله وأموره، وبعد فترة من الزمان وبينما كان قائما ذات ليلة فى بيته هبطت إليه من نافذة صغيرة بسقف البيت صورة فتاة أيقظته، إلا أنه أنام نفسه من شدة خوفه، وتكرر له فى الليلة التالية ما حدث فى الأولى، حتى إذا ما حلت الليلة الثالثة مضى مع الفتاة منفذا ما أشار به عليه وزيره حتى وصلا إلى جبل يسمونه أقتاع وظلا يتحادثان حتى انبلج الضياء وعمت تباشير الصباح وظلا يأتيان هذا المكان كل ليلة ويتجاذبان أطراف الحديث واستمر الحال على هذا المنوال طوال سبعة أعوام وستة أشهر واثنين وعشرين يوما، حتى إذا ما حلت الليلة الأخيرة ودعته قائلة: إن البلاد من الشرق إلى الغرب ستكون تحت أمرك ورهن سلطانك، فخذ الأمر بجد واجتهاد وارع الناس ومصالحهم. فجمع الجنود واختار منهم ثلاثمائة ألف مقاتل من الأبطال الأشداء وأرسلهم بقيادة سنقور تكين إلى المغول وقرقيز وأرسل مائة ألف فرد ومثلهم عدة بقيادة قوتر تكين إلى التنكوت وأرسل مثلهم مع توكاك تكين إلى التبت وتوجه بنفسه مع ثلاثمائة ألف فرد إلى بلاد الختاى، وعيَّن أخاه الآخر فى الحكم محله... وعاد كل شخص من المكان الذى ذهب إليه موفقا منصورا جالبا معه من النعيم ما لا يعد ولا يحصى،

وأحضروا معهم إلى أرقون من كل موضع ذهبوا إليه الكثير من الرجال حيث شيدوا مدينة أرد وباليغن، وأضحى المشرق كله تحت سيطرتهم وحكمهم، وبعد ذلك رأى يوقو خان فى المنام شخصا ذا ثياب وعصا بيضاء وقد أعطاه حجرا كريما صنوبرى الشكل وقال له: إذا استطعت المحافظة على ذلك الحجر فإن أركان العالم الأربعة ستظل تحت ظل علمك وسترفرف عليها رايتك. وقد رأى وزيره ما يشبه تلك الرؤيا كذلك.

فبدأوا فى تجهيز الجيش صباح اليوم التالى، واتجه نحو الأقاليم الغربية، فلما وصل إلى حدود تركستان رأى واديا ذا ماء وعلف كثير فأقام فيه وشيد مدينة بلا ساقون التى يسمونها اليوم قر باليغ، وسيَّر الجيوش من هناك إلى كل مكان، وتمكن فى خلال اثنى عشر عاما من فتح جميع الأقاليم، ولم يتركوا أى مكان بعيدا عن سيطرتهم معلنا التمرد والعصيان، حتى إذا ما وصلوا إلى مكان شاهدوا فيه آدميين ذوى أعضاء حيوانية أدركوا أنه لا عمران بعد ذلك، عادوا ثانية محضرين معهم ملوك الأطراف الذين قدموهم إلى يوقو خان فى مقر إقامته حيث أكرم وفادة كل واحد منهم وعززه بما يناسب مقامه وأحواله عدا ملك الهند لما كان عليه من سماجة فى طبعه وقبح فى منظره فلم يسمح له بالحضور إليه والتشرف بلقائه، وأرسل كل واحد منهم إلى مملكته بعد أن فرض عليهم الجزية.

عندئذ وحينما لم تعد هناك أية عقبات فى الطريق، قرر العودة وعاد إلى مقامه القديم، ونظرا إلى انتشار عبادة الأوثان بينهم فقد كان الأويغوريون فى ذلك الوقت يعرفون "علم السحر" ويسمون فقهاء ذلك العلم وتلك الحرفة باسم "قامان"[(١)]، ولم يكن المغول فى ذلك العهد على دراية بالعلم والمعرفة ويتحدثون بالأباطيل ويدعون أن الشياطين مسخرة لهم ورهن مشيئتهم وتخبرهم بكل الأحوال، وقد سألنا بعض الأشخاص عن ذلك ويقولون: لقد سمعنا أن الشياطين تأتيهم من فتحة بسقف الخيمة وتتحدث إليهم، ومن الجائز

---

(١) قد يكون "شامان" والشامانية ديانة كانت منتشرة بينهم، فـ "شامان" هو رجل الدين عندهم.

أن تأتلف هذه الأرواح الشريرة مع بعضهم وتجامعهم، وكانت قــواهم تبلــغ ذروتها عندما يطفئون نار شهوتهم الجنسية الطبيعية التى يباشــرونها مــن الدبر.

والخلاصة أنهم يطلقون على هذه الجماعة التى سبق ذكرها اسم "قام"، ونظرا إلى جهل المغول وعدم وجود علم ومعرفة لديهم فقد كــانوا يتبعــون أقوال القامان منذ زمن بعيد، والآن فإن الأمراء يعتمــدون علــى أقــوالهم ودعواتهم، ولا يقرون ويوافقون على بداية أى عمل أو مصلحة إذا لم يوافق المنجمون على ذلك، ويعالجون المرض بنفس هذا الأسلوب أيضا، وكانــت عبادة الأوثان هى السائدة فى بلاد الختاى آنذاك، وقد أرسل بوقو خان رسولا إلى خان الختاى طالبا منه إرسال كهنة هذا المذهب "تو ينان"، فلمــا أقبلــوا أجرى بين أئمة هذين المذهبين مناظرة واجه فيها كل منهم الآخر حتى يختار المذهب الذى ينتصر أصحابه على الآخر.

فأخذ التوينان فى قراءة كتابهم المقدس "نوم"، ونوم هو معقول كلامهم يشتمل على باطل الحكايات والروايات، وبه مواعظ طيبــة توافــق شــرائع وأديان جميع الأنبياء من احتراز من الأذى والظلم وأمثــال هــذا ومجــازاة السيئة بالحسنة ونهى عن إيذاء الحيوانات وغير ذلك، وعقائدهم ومــذاهبهم مختلفة ولكن يغلب عليهم مذهب يشبه مذهب الحلول، ويقولــون إن هــؤلاء الخلق كانوا موجودين منذ بضعة آلاف من السنين وكل شخص فعل الخيــر وشغل بالعبادة نالت أرواحه جزاء لأفعاله درجة من الدرجات الآتية: درجــة الملك ودرجة الإمارة ودرجة الرعية ودرجة الفقير، وأمــا الجماعــة التــى ارتكبت الفسق والفجور وأعمال القتل والنهب وإيذاء الخلق فقد حلت أرواحهم فى الحشرات والسباع والبهائم وهم يعذبون لذلك، ولكن أقبل الجهلة علــيهم فإنهم يقولون ولا يفعلون، فلما قرأوا بعض آيات "النــوم" أخــرس القامــان وكممت أفواههم ولهذا السبب اختار الأويغور عبادة الأصنام دينا لهم وتبعتهم أكثر الأقوام فى ذلك، وليس هناك قوم أكثر تعصبا لدينهم وبغضا للإسلام من

عبدة الأوثان هؤلاء الذين يقطنون المشرق، وأمضى يوقو خان حياته في سعادة وحبور حتى فارق الحياة.

وما أثبت من هذه الأكاذيب قليل من كثير وواحد من مائة، وهدفي من ذلك هو إثبات جهل وحماقة تلك الطائفة. حكى لى أحد الأصدقاء أنه قرأ فى كتاب ما أن شخصا قد أحدث حفرة فيما بين الشجرتين وأجلس صغاره فيها وأشعل المصابيح فى وسطها ودعا الأشخاص لمشاهدة هذا المنظر العجيب، وقام هو بعبادته وتبجيله وأمر الآخرين بذلك وخدعهم بهذه الطريقة حتى شق الأرض ثانية وأخرج الصغار.

وبعد وفاة بوقو خان قام أحد أبنائه مقامه، وكانت قبائل الأويغور وأقوامهم تتحرك من مساكنهم عندما كانوا يسمعون صوت كوج كوج أى الرحيل الرحيل الذى انبعث من صهيل الخيول ورغاء الجمال وشهيق وزئير السباع وعواء الكلاب وخوار البقر وثغاء الأغنام وصفير الطيور وبكاء الصغار، وظلوا يسمعون هذا الصوت -كوج كوج- الرحيل الرحيل فى كل مكان نزلوا فيه حتى وصلوا إلى الوادى الذى شيدوا فيه مدينة بيش باليق[1] حيث انخفض الصوت، فاستقر بهم المقام فى ذلك المكان وشيدوا المدن الخمسة التى أطلقوا عليها بيش باليغ، وبالتدريج اتسع عرضها ونما طولها وامتدت عرصتها، ومنذ ذلك التاريخ وأولادهم هم الأمراء عليهم ويسمون أميرهم "أيدى قوت" وتلك الشجرة التى تعرف باسم الشجرة الملعونة قائمة على جدار أحد منازلهم.

---

(١) أو بيش باليغ حسب بعض نسخ مخطوطات الكتاب.

ذكر أحوال كوچلك وتوق تغان

حين هزم جنكيز خان أونك خان[1] هرب ابنه (ابن الأخير) مع جماعة كثيرة وسلك طريق بيش باليغ ودلف من هناك إلى حدود ولاية كوجا حيث بقى فى تلك الجبال دون زاد وطعام، وتفرقت عنه الأقوام التى لازمته عند مجيئة، ويقول البعض إن جمعا من جيش كور خان قبض عليه وسلمه إلى كور خان، وفى رواية أخرى أنه ذهب إليه بنفسه، والخلاصة أنه ظل فى بلاد كور خان بعض الوقت حتى إذا ما دب النزاع والصراع بين السلطان وكورخان وأعلن الأمراء الآخرون الذين كانوا فى الطرف الشرقى العصيان ولجأوا إلى جنكيز متوسلين إليه وطالبين حمايته ووجدوا فى عنايته أمانا لهم من شر كور خان، قال كوچلك لكور خان: إن أقوامى كثيرة وهم متفرقون بين إيميل وقياليغ وبيش باليغ وكل شخص يتحرش بهم ويضايقهم، فلو أذن لى جمعتهم وأيدت كور خان بهؤلاء القوم وعضدته بهم، ولن أحيد عن طريقه التى يريدها ولن ألوى رقبتى إعراضا عن أمره ما دام ذلك ممكنا.

وقد أسقط كور خان بهذا الأسلوب المبهم وتلك الخديعة فى بئر الغرور، وبعد أن كافأه كور خان بكثير من التحف والهدايا وأنعم عليه بلقب كوچلك خان انسل عنه انسلال السهم من القوس، فلما انتشر خبر خروج كوچلك بين أفراد جيش القراختاى أسرع إليه كل شخص كان قد ارتبط به قبل ذلك، ووصل إلى منطقة إيميل وقياليغ، وانضم إليه كذلك توق تغان الذى كان أميرا من أمراء المكريت وكان قد هرب قبل انتشار أخبار انتصارات جنكيز، واجتمعت عليه فرسانه الذين كانوا قد تفرقوا بكل مكان، فهجم على

---

(١) يقصد كوچلك بن تايانك خان ملك النايمان، وليست هناك صلة بينه وبين أونك خان ملك الكرايت سوى أن جنكيز خان حارب الاثنين وقتلهما (حاشية القزوينى مع متن جهان كشاى ص٤٦).

كثير من الأماكن وأغار عليها وانطلق من هذه إلى تلك حتى كثر جمعه وزاد عدد جنده وحشمه وقويت شوكته، عندئذ توجه إلى كور خان، وأغار علــى بلاده ونواحيه واستولى عليها. يهجم حينا ويرتد آخر، فلما سمع أنباء استيلاء السلطان وهجومه أرسل إليه المدد من السفراء تترى طالبا منه مهاجمة كور خان من الناحية الغربية على أن يهاجمه كوچلك من الناحية الشرقية وبهــذا يحصران كور خان بينهما ويزيحانه من وسطهما، واتفقا على أنه إذا أحــرز السلطان قصب السبق فى قهره سُلمت إليه جميع أراضى مملكة كور خــان حتى الماليغ وكاشغر، وإذا سبق كوچلك فى السيطرة على كور خان واستولى على القراختاى يكون نصيبه حتى حدود نهر فناكت، واتفقوا فيما بينهم على تنفيذ هذا القرار.

وسار جيش من الطرفين نحو قراختاى وأحرز كوچلك السبق وهزمت جيوش كور خان المتباعدة وأغار على خزائنه التى كانت فى أوزكند ومضى من هناك إلى بلاساقون، وكان كور خان معسكرا هناك فتعاركا على شاطئ جنيتوخ وهزم كوچلك وأسرت غالبية جيشه. وعاد كوچلك واشتغل بترتيــب الجيش وخيامه، وحينما سمع بأن كور خان قد عاد لتوه مــن حربــه مــع السلطان وقد اقترف الكثير من الأعمال السيئة مع الرعية وبالغ فى ذلك وبدد جيشه وألزمهم مساكنهم، انطلق إليه انطلاق البرق من السحاب وانقض عليه فجأة واستولى على مملكته فاستسلم له الجيش والملك وتزوج إحدى بنــاتهم، وكانت المسيحية هى الديانة السائدة بين غالبية قبيلة النايمان آنــذاك، إلا أن هذه الفتاة قد ألزمته بعبادة الأوثان مثلها، فتحول تاركا النصرانية.

بصورة الوثن استعبدتنى وبهـــا فتنتى وقديما هجت لى فتنـــا

لا غرو إن أحرقت نارُ الهوى كبدى فالنار حق على من يعبد الوثنا

فلما استقرت له الأمور فى ممالك القراختاى، ثبتت أقدامه تحارب مع أوزار خان سلطان الماليغ كثيرا، وتمكن فى النهاية من القبض عليه فى مكان صيده فجأة وقتله، وكان أرباب كاشغر وختن قد أعلنوا العــصيان والتمــرد

وكان كور خان قد سجن ابن ملك كاشغر، فأخرجه من سجنه وحله من وثاقه وأعاده إلى كاشغر مرة ثانية. إلا أن أمراء تلك الناحية قد تآمروا ضده وقتلوه وسط البوابات قبل أن تطأ أقدامه باب المدينة، وكان كوچلك يرسل جيشه في أثناء الحصاد حتى يلتهموا ويدمروا ويحرقوا المحصول، فلما انقطع عنهم ريع ودخل هذه المحصولات ثلاثة أعوام أو أربعة ارتفعت الأسعار وعم الغلاء وأصبح الأهالى عاجزين ضعفاء لما أصابهم من قحط. فانقادوا لحكمه وأذعنوا لأمره، ومضى إلى هناك مع جيش وأنزل فى كل بيت به زوج أو رب بيت واحدا من جنوده، وهكذا احتموا مع الأهالى في مكان واحد وتحت سقف بيت واحد، وبدأ الجور والظلم وظهرت العدوى وحل الفساد، وقدموا للمشركين عبدة الأوثان كل ما أرادوه وقدروا عليه، ولم يكن لأى أحد القدرة على الممانعة فى ذلك، ومضى من هناك إلى ختن واستولى عليها ثم ألزم الأهالى فى تلك النواحى بالانتقال من الدين المحمدى وخيرهم بين أمرين: إما أن يتخذوا النصرانية أو عبادة الأوثان دينا لهم، وإما ارتداء زى الختائيين. ولما كان التحول واعتناق دين آخر ليس ممكنا فقد اضطروا إلى الإذعان لأمره وإلى ارتداء زى أهل الخطا إذعانا لأمره؛ قال الله تعالى: "فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم". وانقطع أذان المؤذنين وتوحيد الموحدين المؤمنين وأغلقت المدارس واندرست آثارها. وذات يوم ساق الأئمة الكبار فى ختن إلى الصحراء وبدأ فى مجادلتهم والبحث معهم فى أمور الأديان وجرى بينه وبين الشيخ والإمام علاء الدين محمد الختنى كثير من المحاورة، وبعد أن ساموه سوء العذاب وعوقب أشد العقاب علقوه على باب المدرسة، كما سيرد ذكره فى إثر ذلك. وذبلت زهرة المسلمين وتلاشت نضارة أمورهم بل وانتهوا كلية ومحوا تماما وعم الظلم والفساد الذى لا حد له عباد الله أجمعين، وارتفعت أصوات المؤمنين بالدعاء قائلة:

أيا ربِّ فرعونُ لما طغى	وتاه وأبطره ما ملك
لطفت وأنت اللطيف الخبير	وأقحمته اليمَّ حتى هلك

فما بـــــال هذا الــــذى لا أرا ه يسلك إلا الــذى قد سلك

مصونا على دائرات الـــدهور يدور بما يشتهيه الـــفلك

ألـــــست على أخـــذه قادرا فخذه وقد خلص الملك لك[1]

وكأن سهم الدعاء قد أصاب هدف الإجابة والقبول، حينما عزم جنكيز على مهاجمة ممالك السطان، أرسل جمعا من قواده وأمرائه للقـضاء علـى فساد كوچلك واستئصال شأفة فتنته، وكان كوچلك فى كاشغر آنذاك، ويحكى أرباب كاشغر أنهم لم يكادوا يصلون إلى هناك وتبدأ المعركة بيـنهم حتـى هرب مؤثرا الهزيمة والفرار، وكلما وصل فوج من أفواج المغول المتعاقبـة إلى المدينة لم يطلبوا منا شيئا آخر سواه، وأجـازوا الأذان والتكبيـر وأداء الصلاة ونادى مناد فى المدينة مبشرا بأن كل من يسير على دينه ويمـضى وفق مذهبه فهو آمن، ولقد أدركنا أن وجود هذه الجماعة رحمة من الرحمات الربانية وفيض من الفيوضات الإلهية، وحينما هزم كوچلك ولاذ بالفرار أبيد وتلاشى كل شخص من جنوده الذين أقاموا مع المسلمين فى بيـوتهم مثـل تلاشى الزئبق فى التراب. ومضى جيش المغول فى أثره ولحقوا به فى كـل مكان نزل فيه، وانطلق فى عدوه مثل الكلب المسعور حتى وصل إلى حدود بدخشان، ودخل واديا يقال له "دره ورارنى"، فلما وصل إلى سرخ جوبـان ضل الطريق (وكان الصواب ما فعله) ودخل إلى الوادى الذى لا مخرج منه، وكان الصيادون من أهالى بدخشان يصيدون فى تلك الأنحاء من الجبال فلما رأوا كوچلك ورجاله أقبلوا عليهم ودنوا منهم، بينما أطبق عليهم جيش المغول من الجانب الآخر، ولما كان الوادى وعر المسلك كان عبورهم فيـه علـى درجة كبيرة من الصعوبة والأخطار، وأبرموا مع هؤلاء الصيادين اتفاقا قالوا فيه: إن تلك الجماعة هى كوچلك وأشياعه وقد هربوا من قبضتنا، وإذا مـا قبضتم عليهم وأسلمتوهم إلينا لن يكون لنا مع تلك الجماعـة مـسلك آخـر. فأقبلت تلك الجماعة وأحاطت به وبفرسانه وقبضت عليه وأسـلمته للمغـول

(١) الأبيات لأحمد بن أبى بكر الكاتب فى هجاء الوزير الجيهانى (معجم الأدباء ٢/٥٩).

فقطعوا رأسه وحملوها معهم، وحصل أهل بدخشان على غنائم لا حصر لها من الجواهر والنقود ثم عادوا، ولا يخفى على أحد أن كل فرد يتعرض للدين الأحمدى والشرع المحمدى، لن يكون نصيبه الفلاح والنصر على الإطلاق، وكل شخص يرعاه ولو لم يكن معتنقا له فإن أمره يزداد فى كل يوم رفعة ونماء.

إن المصباح الذى يضيئه الحق تعالى كل من ينفث فيه يحترق شاربه

قال الله تعالى:

"ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّناهم فى الأرض ما لم نمكّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين"[١].

ولهذا السبب استولى جنكيز خان السلطان فاتح العالم على هذه النواحى ابتداء من كاشغر وختن إلى الموضع الذى كان السلطان خورانشاه يحكم فيه وسلم إليه.

ولما كان توق توغان قد هرب فى أثناء استيلاء كوچلك خان على أرضه ومملكته وذهب إلى حدود قم كيجك[٢] فقد أرسل جنكيز خان إليه ابنه "توشى" مع جيش كبير للقضاء عليه، حتى يخلص الناس من شره ولا يبقى له على أثر. وفى أثناء عودتهم مضى السلطان فى أثرهم، ومع أنهم لم يكونوا راغبين فى القتال معرضين عنه فإن السلطان لم يعرض عنها بل أقبل عليها وولى وجهه شطر صحراء التعسف والغواية، فلما لم تنفعه النصائح وينزجر منها فقد استعدوا للقتال وجهزوا أنفسهم له وحملوا عليه من الناحيتين وحملت ميمنة كل من الجيشين على ما يقابلها، وازداد جيش المغول شجاعة وإقداما بما أحرزه من نصر وحملوا على مركز الجيش السلطانى حيث كان السلطان يحتل مكان قيادته.

---

(١) الأنعام، آية: ٦.

(٢) اسم نهر يقع شمال مغولتان على حدود قرقيز ويصب فى نهر "ينيسى"، وما زال اسمه كذلك حتى اليوم.

وأوشكوا على أسر السلطان إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى تمكن جلال الدين من ردهم وإنقاذه من بين أيديهم. أى شىء أفضل للأسد الجسور من أن يرى أشباله وأولاده يستعدون للعمل والقنص أمامه وقبله؟

واستمرت الحرب طوال اليوم وظل الصراع قائما حتى صلاة العشاء وظللت وجه الدنيا سحابة سوداء لاختفاء النور فأضحى أسود كوجه المذنبين الكفرة الذين اسودت وجوههم وأضحى ظهر الأرض أسود فاحما كقاع البئر.

فى الليلة الماضية حينما ألقى ظل الأرض كمينا على جواد الشعاع رأيت أطراف الربع المسكنون مجللة بالسواد كصومعة المسكين الفقير، وحق ما قالوه، إن هناك مظلة سوداء ترفع رأسها فوق أعلى الفلك.

عندئذ انتهت المعركة ووضعوا سيف الصراع فى غمده وسكن كلا الجيشين كل فى محله. وانسحب جيش المغول عائدا إلى المنطقة المغولية، فلما وصلوا إلى جنكيز خان وعلم شيئا عن بطولتهم ورجولتهم وأدرك ما عليه جيش السلطان من قوة[1] وعلم أنه لم يعد بينه وبينهم حائل لم يقض عليه أو عدو يستطيع مواجهته ومقاومته، عندئذ عبأ قواته وتوجه صوب مملكة السلطان، وأما بالنسبة إلى السلطان فقد ظن آنذاك أنه بهزيمته لطلائع جيش جنكيز خان قد قضى على كل العقبات أمامه وطهر الدنيا من أعدائه وخصومه، ورغم أنه لم يقض على كور خان قضاء تاما، فقد أضعف قوته وكان البادئ بمهاجمته وحارب ملوك وأمراء النواحى والأطراف وقضى عليهم، ولكل أمر غاية، ولكل بداية نهاية، والتراخى فيها وتأخيرها لا يمكن تصوره. جف القلم بما هو كائن.

---

(١) فى هذا رد على السؤال الذى طرحه الأستاذ محمد فؤاد كوبرلو فى دائرة المعارف الإسلامية والذى قال فيه: هل علم جنكيز بأمر النزاع بين توشى والسلطان خوارزمشاه أم لا؟ وإذا كان قد عرف فمتى تم هذا؟

ذكر الإمام الشهيد علاء الدين محمد الختنى رحمه الله

حينما تم لكوچلك الاستيلاء على كاشغر وختن وترك الشريعة العيسوية واعتنق المذهب الوثنى، أمر أهالى تلك الأنحاء بترك الدين الحنيف والتحول إلى مذهب الوثنية والإلحاد والانفصام عن أشعة أنوار الهدى والدخول إلى وحشة الكفر والضلال وترك طاعة السلطان الرحيم واتباع هوى الشيطان الرجيم، ونظرا إلى أنه لم يستطع تحقيق ذلك فقد تشدد فى الضغط عليهم حتى اضطرهم إلى ارتداء زى الخطأ والتقلنس بقلنسواتهم وسكتت وخبت أصوات الأذان والصلاة وانقطعت الصلوات والتكبيرات كذلك.

أبعد وضوح الحق يرجون فسخه   وللحقّ عقد مبرمٌ ليس يُفسخ

وفى أثناء ذلك أراد بقوته وشططه وتهوره وتسلطه أن يقنع أئمة الدين المحمدى ورهبان الدين المسيحى بالحجة والبرهان.

وإذا رجوت المستحيل فإنما   تبنى الأمور على شفير هار

ونادوا فى المدينة وبلغوا أوامره التى تدعو إلى أن يحشر فى الصحراء كل شخص من أهل العلم والصلاح، فاجتمع إليه ما يزيد عن ثلاثة آلاف من الأئمة الكبار فتوجه إليهم قائلا: أى شخص فى هذه الصفوف يستطيع أن يناظرنى فى أمور الدين والملك ولا يبالى بما أقول ولا يخاف عقابا أو غضبا؟ وكان قد استحكم فى خياله الفاسد أنه لا يمكن أن يكون لأحد القدرة على معارضته ومناظرته وإنكار حجته، وكلما هم شخص لمناقشته فى أى أمر خاف سطوته وعقابه ودفع عن نفسه نار البلاء والفناء حتى لا يكون كالباحث عن حتفه بظلفه، بل كان يصدق أكاذيبه ويقر بأباطيله. ونهض من بين تلك الطائفة الشيخ الموفق والإمام بحق علاء الدين محمد الختنى نور الله قبره وكثر أجره، وأقبل إلى كوچلك وجلس مستعدا للنقاش كما لو كان قد

تمنطق بحزام الحق، وأخذ يباحثه ويجادله فى أمور الأديان، فلما ارتفعت الأصوات وأفحمه الإمام الشهيد بالحجج القاطعة والدلائل الساطعة، وأدرك أن حضور كوچلك ووجوده عدم محض وانتصر الحق على الباطل والعالم على الجاهل، وأفحم الإمام السعيد كوچلك ودحض حجته، والحق أبلج والباطل لجلج، استولت الدهشة والحيرة والخجل على أفعال وأقوال ذلك الفاسد، وارتفعت نار الغضب عليه لضعفه وخوره، وخرس لسانه وقيدت أقواله وغللت وانطلق لسانه بالفحش والهذيان الذى لا يليق بقانون كتاب الرسول الكريم، واستمر على هذا النحو مدة ولكن الإمام الصادق الذى لا يقول إلا الحق والذى يؤمن إيمانا راسخا لا يتزعزع بالقول القائل "لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا" لم يستطع انطلاقا من حميته الدينية أن يتغاضى أو يغض الطرف عن ترهاته وخرافاته، فقال له: "ملأ التراب فاك يا عدو الدين يا كوچلك اللعين"، فلما صكت هذه الكلمات القاسية والصادقة سمع ذلك الوثنى الذى امتلأ غرورا وكبرا والكافر الفاجر والنحس النجس أمر بالقبض عليه وأمره بالارتداد عن الإسلام واتباع مذهب الكفر والإلحاد، ولكن هيهات هيهات لما توعدون فلا يكون مهبط النور الإلهى بيتا للشيطان اللعين، "فأبى واستعصم" عدة أيام بلياليها عاريا مقيدا جائعا ظمئا ومنعوا عنه الغذاء والطعام الدنيوى، إلا أنه كان ضيفا لمائدة "أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى"، وكان هذا الإمام المحمدى كصالح فى قوم ثمود وكيعقوب الذى ابتلى بالحزن وامتحن بعذاب جرجيس، قال النبى عليه السلام: "البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل"، فصبر صبر أيوب وجاهد جهاد يوسف فى الجب مع سجانيه، والرجل المحب العاشق حينما يتذوق لدغة المحنة من سلسبيل المحبة يعتبر ذلك غنيمة كبرى وسعادة عظمى ويقول: إن كل ما يأتى منك طيب وجميل سواء أكان شقاء أم ألما، وكل سم يأتى من الأحبة لفم الحبيب المشتاق له حكم ذلك، والسم يمكن أكله من يد الحبيب الصادق، ويجد فى مرارة صبره من الحلاوة مذاق حلاوة الشهد والسكر... يقول:

ولو بيد الحبيب سُقيتُ سمًا   لكان السم من يده يطيب

وحينما يستضيء القلب النورانى من مشكاة الأنوار الربانية يزداد فى كل لحظة اطمئنانا على إيمانه. ولو كان ذلك بمختلف أنواع العذاب وشتى سبل المحن والآلام:

إذا أردت وصال الحبيب فكن صابرا على الآلام متحملا لها

فمن الممكن أن يجتمع الورد والشوك معا

واترك نفسك حتى تصل إلى محلة الحبيب

فمثل هذه الأمور من الممكن أن تكون محفوفة بالمخاطر

وبعد أن سلكوا معه كل حيلة تحويها جبلة هؤلاء القوم الضالين، من وعد ووعيد وإيناس وتهديد ونكال وعقاب، ولم يتغير ظاهره عما يكنه فى باطنه، وعما يشتمل عليه من ثبات وإيمان وتصديق ويقين، ولم يحد عن ذلك قيد أنمله، أثبتوه بأربعة من الدسر على باب مدرسته التى كان قد شيدها فى ختن، بينما هو يرفع صوته مجلجلا بكلمة التوحيد والشهادة، ناصحا الخلائق قائلا: لا يمكن لإنسان أن يفرط فى أمور الدين نتيجة لما يلقاه من عقوبات وآلام فى هذه الدنيا الفانية، ولا يمكن أن يسلم الإنسان نفسه لنار جهنم إلى أبد الآبدين نتيجة لذلك أيضا، بل يكون عيبا تاما وعيبا كبيرا أن يستبدل الإنسان بالدار الباقية تلك الدار الفانية وأن يستبدل بنعيم الدار الآخرة ودلالها خضراء الدمن هذه، تلك الدار الفانية التى ما هى إلا لعب ولهو للصغار، قال الله تعالى: "وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون"، وظل يردد ذلك حتى أسلم الروح لبارئها وانتقل من سجن الدنيا إلى جنات نعيم العقبى وطار من المهبط السفلى إلى الكرسى العلوى.

ومضى الصديق إلى الصديق وأسرع الحبيب إلى الحبيب

وأى شىء فى الدنيا أفضل من هذا؟

فإذا ما طوقت يد شخص ما برقبة مقصوده

فمن الممكن أن يكون هذا درعا أمام جرح البلاء

فلما وقعت هذه الواقعة، دفع الحق شره ولم تمض فترة طويلة حتـــى أرسل جيش المغول إليه فذاق فى هذه الدنيا جزاءً وفاقًـــا لأعمالـــه القبيحـــة المذمومة وسيرته السيئة وله فى الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

وقد علم الإلحادُ مذ نُصر الهدى بأن ليس للدين الحنيفىِّ منسخ

قال الله تعالى: "وسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلب ينقلبون"[1].

(١) الشعراء، آية: ٢٢٧.

ذكر الاستيلاء على الماليغ وقياليغ وفوذلاذ وأحوال أمرائها

كان أرسلان خان حاكم هذه النواحى فى عهد كور خان، وقد عاونه فى إدارة دفة الأمور نائبا عنه، فلما أخذت دولة كور خان فى الاضمحلال والتلاشى، وأعلن حكام الولايات البعيدة عن مملكته العصيان والخروج عليه، خالفه سلطان ختن أيضا وانشق عليه.

عندئذ سيَّر كور خان جيشا إليه، وطلب مددا من أرسلان خان وكان ينتوى قتله، فإذا ما أعلن العصيان كسائر الأمراء قضى عليه وتخلص من شره مرة واحدة، وإذا لبى النداء ولم يعلن العصيان وعامل المسلمين معاملة طيبة ولم يسرف فى عقابه لأهل ختن اعتبر ذلك جرما أخذه به وقتله وأهلكه، فلبى أرسلان خان النداء وأسرع إليه امتثالا لأمره، وكانت بينه وبين أحد أمراء كور خان يدعى شمورتيانكو صداقة وطيدة وصفاء تام زمنا بعيدا فأخبره بفكر كور خان ونواياه ثم أضاف قائلا: "وإذا حاول الاعتداء عليك والنيل منك فسيقضى على بيتك وأبنائك جميعا، وأفضل السبل التى فيها صلاح أبنائك هى أن تبتلع سمًّا تتخلص به نفسك وروحك من غصص الزمان الشوم والسيد الغشوم حتى أتدبر الأمر وأكون وسيلة لإقامة ابنك فى مقامك". فلما ضاقت به السبل ولم يعد هناك ملجأ أو مهرب تجرع بيده سمًّا مهلكًا فأسلم الروح وعين شمور ابنه فى مقامه وفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه من قبل وأعاده إلى ملكه معززا مكرما وأرسل معه شحنة فى مصاحبته، واستمر الحال على هذا المنوال فترة من الزمان حتى ذاع أمر جنكيز خان وعم صيت خروجه وانتصاره الآفاق.

وكان شحنة كور خان قد سلك سبيل الظلم والاستبداد، وإيذاء الخلق، فقتله واتخذ سبيله إلى بلاط جنكيز خان حيث استقبل بكثير من مظاهر العناية والرعاية.

وكان فى الماليغ واحد من قرلقان قوناس، وكان شجاعا قويا، واسمه أوزار وكان قد تعود سرقة جياد الخياله من مرابعها، وارتكاب الكثير من الجرائم والأعمال الشريرة، من قطع للطرق وسرقة وغيرها.

وانضم إليه الفساق من أشرار أبناء السبيل حتى عظمت قوته وقويت شوكته، فتعود الذهاب إلى القرى المختلفة، فإذا ما أعلن أبناؤها العصيان عليه والإحجام عن طاعته، والاستسلام له، استولى عليها جبرا وقسرا، واستمر على هذا النحو حتى استولى على الماليغ قصبة تلك الناحية، فاستسلمت له الولاية كلها ودانت له ولحكمه، ثم استولى على الفوذلاذ.

وقد حاربه كوچلك عدة مرات وهزمه أوزار فى كل مرة التقيا فيها، لهذا أرسل رسولا إلى جنكيز مخبرا بأمر كوچلك، معلنا انضواءه تحت حكمه وانخراطه فى زمرة حشم السلطان فاتح العالم ومعيته فأيده وقواه بما منحه من كثير الهبات ووفير العطاء وبما خصه به من عطف حتى أصبح صهرا لتوشى تنفيذا لأمر جنكيز خان.

وبعد أن اطمأن إليه واستحكمت أسس طاعته لجنكيز وإخلاصه، توجه بنفسه إلى الحضرة السلطانية امتثالا لأمر جنكيز، فلقى عنده الكثير من العناية والتكريم، فلما هم بالعودة حباه جنكيز بعظيم التشريف وطلب منه التخلى عن الصيد وعدم ممارسته حتى لا يقع صيدا للصيادين، وأمده بألف رأس من الخراف عوضا عن صيده الذى أمره بالكف عنه.

إلا أنه عندما عاد إلى الماليغ عاود الصيد مرة أخرى، ولم يكف عنه وقبض عليه حشم كوچلك فجأة وأوثقوه جيدا ثم أحضروه إلى باب الماليغ، فأوصد أهالى الماليغ الباب، واشتبكوا معهم فى معركة حامية، إلا أنهم فجأة فى أثناء ذلك سمعوا أخبارا عن وصول جيش المغول فعادوا من باب الماليغ وولوا الأدبار وقتلوا أسيرهم فى الطريق.

ومع أن أوزار كان متهورا مقداما، فقد كان ورعا تقيا يخشى الله، ينظر إلى الصوفية نظرة إعزاز وتقدير.

وأقبل إليه ذات يوم شخص يتدثر بلباس الصوفية وقال : "لقد أتيت إليك حاملا رسالة من صاحب العزة والجلالة تقول: إن خزائننا قد أضحت خاوية، والآن فليمدنا أوزار على سبيل القرض بما يتيسر له ويقدر عليه ولا يجوز الاعتذار والامتناع"، فنهض أوزار خاشعا متواضعا والدموع تنهمر من مآقيه وأشار إلى أحد خدامه لإحضار بالش ذهبى، أعطاه للصوفى قائلا: قدم الاعتذار لسيدك بعد أن تؤدى له فروض الولاء والإخلاص.

وأخذ الصوفى الذهب ثم انصرف. وقد أكرموا ابنه سقناق تكين بعد وفاته[١] وأحلوه محل والده وزوجوه إحدى بنات توشى، أما بالنسبة إلى أرسلان خان[٢] فقد أرسلوه إلى قياليغ وخطبوا له إحدى البنات كذلك.

حينما اتجه جنكيز خان صوب ممالك السلطان، التحق به مع كثير من رجاله، وقدموا له مساعدات وخدمات جليلة، وقد بقى الآن واحد من أبناء أرسلان خان، منحه منكو قا آن حكم أوزجند، ونظر إليه نظرة إعزاز وإكرام وفاءً وتقديرًا وعرفانا لما أسداه والده من جليل الأعمال والخدمات.

وقد كرم جنكيز خان سقناق تكين كذلك، وعينه وثبته حاكما للماليغ، وفى أثناء عودته إلى موطنه وافاه الأجل المحتوم وانتقل إلى جوار ربه فقام ابنه مقامه، وكان هذا فى عام ستمائه وواحد وخمسين ٦٥١هـ.

---

(١) بعد وفاة أوزار.

(٢) المقصود ابن أرسلان خان المذكور فى بداية هذا الفصل حيث إن أرسلان خان قد قضى على حياته بنفسه بشربه السم فى عهد كور خان، ويقال إن "أرسلان خان" لقب لحكام قياليغ مثل كور خان بالنسبة إلى القراخطائية وكوجلك خان بالنسبة إلى النايمان، القزوينى -تعليقات وحواشى صفحة ٥٨.

ذكر السبب فى مهاجمة ممالك السلطان

لقد خيم السكون والأمان على دولته فى أواخر عهده، وبلغت الرفاهية والمتعة غايتهما وأمنت الطرق وخبت نار الفتن وهدأ أوارها، حتى إذا ما ظهر نفع أو فائدة فى أقصى بلاد المغرب وبداية المشرق اتجه التجار إلى هناك فى أمن وسلام، ونظرا إلى أنه لم يكن للمغول أية مدينة يستقرون بها، ولم يكن للتجار والمسافرين سبيل للوصول إليهم، والتعامل معهم، فقد ارتفعت أسعار الملابس والمفروشات فيما بينهم، وظهرت قيمة وفائدة التعامل معهم فى البيع والشراء.

لهذه الأسباب اتفق ثلاثة من التجار وهم أحمد جندى وابن الأمير حسين وأحمد بالخج وقرروا الذهاب إلى بلاد المشرق، وجمعوا كثيرا من البضائع التى تزيد عن الحد من ثياب مذهبة وكرباس (ثياب قطنية) وغير ذلك مما رأوه لائقا ومناسبا لتلك الأقطار، ثم سلكوا سبيلهم لتحقيق هدفهم، وكانت غالبية قبائل المغول قد أخضعها جنكيز خان لحكمه آنذاك وهدم دورهم وأماكن إقامتهم وطهرت تلك المناطق من الطغاة والأشرار، وعين على رءوس الطريق محافظين يسمونهم "قراقجيان" للمحافظة على الطريق وأمنه، وأمرهم بتأمين سلامة أى فرد من التجار يصل إلى تلك النواحى، وأن يرسلوا ما يرونه ملائما للخان من الأمتعة مع صاحبها، فلما وصلت هذه الجماعة من التجار وأعجبهم ما شاهدوه مع بالخج من ثياب ومتاع أرسلوه إلى الخان، فلما فتح متاعه وعرض بضاعته طلب ثلاثة بالشات ذهبية فى كل شىء اشتراه بعشرة أو عشرين دينارًا قبل ذلك، فغضب جنكيز من شططه فى القول وكذب حديثه وقال: إن هذا الشخص يظن أننا لم نر ولم يصل إلينا ثياب من قبل. وأمر بإطلاعه على ثياب السلاطين القدامى التى أعدت

وأودعت خزائنه، وأن تحصى ثيابه وتسجل أمتعتـه كتابـة، ثـم نهبوهـا ووزعوها، وأمر بالقاء هذا الشخص فى السجن، وطلب حـضور شـريكيه ومرافقيه وما كان معهما من متاع فأحضروهما إليه بسائر أمتعتهما، ومع أن المغول ألحوا سائلين عن قيمة ما بها من ثياب فقد رفضا تحديد قيمتها وذكر أسعارها قائلين: لقد أحضرنا هذه الثياب هدية للخان. فسر منهما ووقع قولهما منه موقع القبول والاستحسان وأمر بإعطائهما بالشا ذهبيا مقابل كـل ثـوب ذهبى، وبالشا من الفضة مقابل كل ثوبين من القطن والزندبيجى[1]، واستدعوا شريكهما أحمد وقدروا ثيابه بنفس هذه القيمة وأعزوهم وأكرموهم جميعـا، وكانوا ينظرون إلى المسلمين آنذاك نظرة إعزاز واحترام ولهـذا عـاملوهم معاملة طيبة، وإكراما لهم وتيمنا بهم فقد أعطوهم خياما جديدة طاهرة مـن اللباد الأبيض ليقيموا بها طوال فترة إقامتهم، وأما الآن -ونتيجة لاتهام كـل منهم للآخر ولعيوب أخلاقية أخرى- فقد أذلوا أنفسهم وأضاعوها.

فلما هموا بالرحيل والعودة أمر جنكيز الأبناء وصغار الأمراء أن يعد كل واحد منهم من قومه شخصين أو ثلاثة وأن يمدوهم برأسمال من بالشات الذهب والفضة لمصاحبة التجار وقت عودتهم إلى ولاية الـسلطان للتجـارة وحتى يجمعوا طرائف الأشياء ونفائسها، فامتثلوا لأمره وأذعنـوا لحكمـه، وسير كل أمير شخصا أو شخصين من قومه التابعين لـه، فـاجتمع بـذلك أربعمائة وخمسون من المسلمين، فأرسل جنكيز خان رسالة إلـى الـسلطان ذكر فيها أن تجار تلك الديار قد وصلوا إلينا وأنا قد ارجعناهم إليـك علـى النحو الذى سيستمع إليه، وقد سيرنا معهم جماعة من عندنا حتى يحـصلوا على كثير من طرائف ذلك الطرف وسيتأكد بعد اليوم الوفاق بين الجـانبين وتنحسم مواد النفاق فى ذات البين وسيقضى على الفساد وينتهى العناد. فلما وصلت قافلة التجار إلى مدينة أترار كان أميرها هو إينال جوق وكان واحدا من أقارب والدة السلطان تركان خاتون وكان قد لقب بلقب غاير خان. وكان

---

(١) نوع من الألبسة المصنوعة فى "زندنة" الواقعة فى تركستان على مقربة من "بخارى".

من بين جماعة التجار تلك أحد الهنود وكان على معرفة به قبل ذلك، فناداه وفقا لما كان مألوفا لديه باسم "إينال جوق" وكان مغرورا بقوته واقتداره وسلطانه فلم يخشه ولم يول مصلحته الخاصة أية عناية فتضايق غاير خان لذلك وانطوى على نفسه وطمع فى مال القافلة وسولت له نفسه أمر الاستيلاء عليها وأخذها، ولهذا السبب قبض عليهم جميعا واحتجزهم وأرسل رسولا إلى العراق مخبرا السلطان بأحوالهم، فأمر السلطان بإباحة سفك دمائهم دون تفكير أو روية، وظن أن نهب أموالهم حلال ولم يدر أن حياته ستكون حراما، بل وبالا، وأن طائر الإقبال سيصبح بلا ريش.

إن كل شخص يملك عقلا وحكمة فى سلوكه

ينظر إلى عواقب الأمور وخواتيمها

فجردهم غاير خان من أموالهم، وقضى عليهم امتثالا لما أشير عليه به، وبهذا خرب الدنيا وشتت شمل العالم وشرد الخلق، فأضحوا بلا مأوى أو طعام وقطعت أوصالهم وجرت بحار كثيرة من دمائهم عوضا عن كل قطرة أريقت منهم، وصار قصاص كل شعرة واحدة من رءوسهم مئات الألوف من الرءوس صرعى مبعثرة على مفارق الطرق ودفع فى مقابل كل دينار قنطار.

فأموالنا نهبى وآمالنا سدى	**وأحوالنا فوضى وآراؤنا شورى**
فساقوا مطايانا وقادوا جيادنا	**وفوقهما ما ينقضى السرح والكورا**
أثاثا وأثوابا ونقدا وقنية	**وما يشترى بيعا وما صين مذخورا**
بذا قضت الأيام ما بين أهلها	**مصائب قوم عند قوم ترى سورا**

وقبل أن تصل هذه الإشارة كان شخص من السجناء قد تحايل وتمكن من الهرب من مضايق السجن فلما علم بالأمر واطلع على ما جرى للأصدقاء والرفاق ولى وجهه شطر الطريق قاصدا الخان وأخبره بما جرى لشركائه فأثر هذا القول فى قلب الخان وتحرك ثقاب الثبات والسكون وألقت

عاصفة الغضب التراب فى عين الصبر والحلم واشتعلت نار الغضب حتى أسالت الماء من العيون ولم يكن إطفاؤها ممكنا إلا بإراقة الدماء وقطع الرقاب. وفى أثناء حدة غضبه صعد وحيدا إلى قمة جبل صغير وأمضى ثلاثة أيام بلياليها، حاسر الرأس مطرق الوجه متضرعا، قائلا: يا رب إنى لم أكن بادئ هذه الفتنة فامنحنى قوة الانتقام.

ثم هبط أسفل الجبل مفكرا فى الحرب مستعدا للمعركة عاقدا العزم على ذلك. ولما كان كوچلك وتوق تغان هاربين من جيشه فقد أرسل جيشا فى البداية للقضاء على عبثهما وفسادهما، كما ورد ذكر ذلك من قبل، وأرسل السفراء إلى السلطان مذكرا بالغدر الذى شجع عليه، وأقره دون مبرر لذلك ومخبرا بتحركه تجاهه حتى يستعد للنزال ويرتب آلة الضرب والطعن والقتال. والآن وضح أن كل من يزرع جذعا يابسا لن يجنى ثمرة أىّ شىء وكل من يغرس غصن الخلاف والنفاق فإنه يجنى ثمرة ذلك ندامة وحسرة. وكانت عاقبة أمر السلطان السعيد لفظاظة طبعه وسوء عادته خسرا. وكان لا بد أن يتذوق أعقابه وأحفاده مرارة عقابه وأن يتذوق الأخلاف مرارة الخلاف.

إن تعمل سوءًا تجز به　　　فعين الزمان ساهرة

صورة بيزن لا تزال باقية على جدر الإيوان وهو فى سجن أفراسياب.

ذكر توجه السلطان فاتح العالم إلى مسالك السلطان واستخلاص أترار

حينما هدأ غبار فتنة كوچلك وتوق واستراح ضميره من التفكير في أمرهما وبعد عن أفكاره رتب الأبناء والأمراء الكبار والأحفاد وقوّاد الألف والمائة والعشرة وعيّن الجناحين والمقدمة وسن أوامر جديدة. وبدأ التحرك في شهور سنة خمس عشرة وستمائة ١٢١٩- ١٢١٨م ٦١٥هـ.

و فتية من كماة الترك ما تركت   للرعد كباتهمْ صوتًا ولا صيتا

بدار قارون لو مروا على عجل   لبات من فاقة لا يملك القوتا[1]

كانوا رماة سهام مهرة يستطيعون أن يعيدوا الصقربضربة سهم من أعماق الفلك الأثير وقادرين على إخراج السمك من قاع البحر بطعنة حربة في أثناء الليل البهيم يحسبون يوم الحرب والنضال ليلة زفاف، ويعتبرون جرح الرماح لثم الملاح.

أرسل في البداية جماعة من الرسل إلى السلطان منذرين له مبلغين إياه بتصميمه وعزمه على الخروج إليه والانتقام منه على ما اقترفه من قتل للتجار قبل ذلك "ومن أنذر فقد أعذر"، فلما وصل إلى حدود قياليغ لقيه في البداية من أمرائها أرسلان خان مظهرا الخضوع والاستسلام فوقى نفسه وماله شر بأسه وسطوته، وخصه بعطفه وسار مع رجاله في عداد حشمه، وانضم إليه من بيش باليغ أيدى قوت مع خيله وسقناق تكين من الماليغ مع رجال كانوا رجال حرب أشداء، فزادوا من قوته فوصلوا إلى قصبة أترار في بداية الأمر:

في هيبة لا البرق وافى الخطى   فيه ولا الرعد خطيب جهير[2]

---

(١) من قصيدة مشهورة لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان بن محمد الغزي يمدح فيها الترك وأولها:
أمط عن الدرر الزهر اليواقيتا   واجعل لحجّ تلاقينا مواقيتا

ومنها : وفتية من كماة الترك.......
مدت إلى النهب أيديهم وأعينهم   وزادهم قلق الحداق تبييتا
بدار قارون.....

(٢) بيت من الأبيات المذكورة في "تتمة اليتيمة" وقد استشهد المؤلف بغالبية أبيات هذه القصيدة في تضاعيف هذا الكتاب.

وأقاموا معسكره فى مواجهة القلعة، وكان السلطان قد أعطى غاير خان خمسين ألف جندى له احتياطًا وأرسل إليه قراجة (خاص حاجب) لمساعدته مع عشرة آلاف آخرين، وأتموا بناء الاستحكامات اللازمة للقلعة والفصيل وسور المدينة، وجمعوا الكثير من آلات الحرب ومعداتها، بينما اتخذ غاير خان داخل المدينة كل الوسائل اللازمة للحرب والنزال، وعين الجنود والخيالة على البوابات وارتقى بنفسه أعلى السور ناظرا إلى الأمام فعض ظهر يده بأسنانه لفرط دهشته من المنظر الذى رآه ولم يكن يتخيله، فقد رأى الصحراء وقد اضحت بحرا زاخرا يموج بجيش كثيف وجمع عظيم بينما امتلأ الهواء بصهيل الجياد الملثمة المدرعة، وزئير الأسود المسلحة:

لقد اسود الهواء وأضحت الأرض كالأبنوس

وغلى البحر واضطربت أمواجه من أصوات الطبول

واتجه الجيش إلى الصحراء بإشارة من إصبعه

وهو جيش كثيف لا حدود له

واستدار الجيش حول القلعة فى حلقات متتابعة، فلما اكتمل تجمُّع الجيوش حولها عين جنكيز لكل واحد من القادة ناحية وكله بأمرها، فأرسل ابنه الأكبر مع عدة آلاف من الجنود الأشداء الأبطال إلى جَنْد وبار جليغ وأرسل عددًا من الأمراء إلى حجند وفناكت. وتوجه بنفسه قاصدا بخارى، وتاركا أوكتاى وجغتاى على رأس الجيش لمحاصرة أترار. وحينما استعدت الخيالة من كل جانب للنزال بدأت المعركة واستمرت المقاومة خمسة أشهر، ولما اشتد بأرباب أترار الخطب ووهنت عزائمهم، سأل قراجة غاير خان عن الاستسلام وتسليم المدينة لتلك الجماعة، إلا أن غاير خان أدرك أنه باعث هذه الفتنة ومحرك هذه النقمة وأنهم لهذا لا يمكن أن يتركوه على قيد الحياة.

ولم يعرف ملجأ يهرب إليه، لهذا كافح كفاحا لا نظير له بكل ما أوتى من قوة ولم يوافق فى إبرام صلح أو توقيع عهد، ولم يرض بذلك قائلا: إننا إذا لم نكن أوفياء مع ولى نعمتنا (أى السلطان) فكيف نعتذر عن غدرنا؟ ونحن لم نجد أية وسيلة أو ظلال أى اعتذار نستطيع أن نهرب به من تقريع المسلمين ولومهم. ولم يلح قراجة فى هذه المناقشة وتلك المحاولة، وإنما انتظر حتى اختفت الشمس من وجه البسيطة وأسدل الليل البهيم ستائره على النهار المضىء، فانسل مع أكثر جيشه هاربا من بوابة صوفى خانة ودخل جيش التتار تحت جنح الظلام من تلك البوابة، وقبضوا على قراجة حتى إذا ما

الشرق قد مزق ظلماءه خط عمودٍ من صباح منير

حملوه مع بعض من قواده إلى الأمراء، فحققوا معهم واستجوبوهم فى كل شىء وبكل أسلوب ثم اتجهوا إليه فى النهاية قائلين: إنك لم توف حق مخدومك مع ما له من حقوق ثابتة عليك، لهذا فإننا لا يمكن أن نطمئن إليك فى اتحادك معنا. وقتلوه هو ورفاقه، فنالوا بذلك درجة الشهادة، ثم أخرجوا جميع أهل أترار من فجار وأبرار سواء المتدثرين بالخمار أو المتقلنسين بالقلنسوة والعمامة، أخرجوهم خارج المدينة وساقوهم سوق الخراف، ونهبوا كل ما هو موجود من أقمشة ومتاع، وبقى غاير خان كالأسد متحصنا بالقلعة مع عشرين ألفا من الأبطال الأشداء والمبارزين العظماء متمثلين قول القائل:

فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

نحن جميعا شباب وشيبة إلى الموت والفناء

ولن يخلد أحد كان على ظهر هذه الدنيا فكل من عليها فان

واستبشرت قلوبهم بالموت وفرحت به وتخلصوا من أنفسهم وطباعها وكانوا يخرجون للحراسة فى مجموعات من خمسين مقاتلاً وقد سُودت أجسادهم بالطعان والسيوف:

تصيح الردينيَّات فينا وفيهم صياح بنات الماء أصبحن جوّعا

واستمروا فى كفاحهم وقتالهم ما بقى فيهم نفس واحد ينبض بالحيـــاة, ولهذا السبب قتل من المغول خلق كثير، واستمرت المعركة قائمة طوال شهر كامل.

حتى بقى غاير خان وحده مع شخصين آخرين، واستمر فى النزال ولم يول الأدبار أو يؤثر الفرار، دخل جيش المغول القلعة وقبضوا عليه وعلقوه بالسقف ولم يوثقوه مع صديقيه من أيديهم، ولما كانت الأوامر قــد صـــدرت إليهم بأسره والإحجام عن قتله، فقد أعرضوا عن قتله امتثالا للأمر، ونـــال صديقاه درجة الشهادة، ولم يبق سلاح، فأخذت الجوارى والفتيـــات يمددنـــه باللبنات اللاتى يأخذنها من جدار السراى، وحينما انتهت تلك الأحجار أطبق المغول عليه حلقة فى إثر حلقة فجاهد حق الجهاد وسلك كل السبل وشن شتى الغارات والحملات ثم سقط فى أيديهم بعد أن قتل منهم الكثير، فأحكموا قيده وشدوا موثقه وغلوه بثقيل الأغلال والقيود وسووا القلعة والسور بالطريق ثم عادوا.

أما من بقى من الرعايا وأصحاب الحرف الذين لم تحصدهم الـــسيوف فقد حملوهم وتوجهوا بهم إلى سمرقند لإلحاق بعـــضهم بـــالجيش الأمـــامى وليمارس بعضهم حرفتهم ومهنتهم.

وتوجه جنكيز إليها قادما من بخارى وأذاقوا غاير خان فى كوك سراى كأس الفناء وألبسوه ثوب البقاء والخلود.

وهكذا عمل الفلك العالى، يحمل فى إحدى اليدين تاجا وفى الأخـــرى حبلا وأنشوطة.

ذكر ذهاب ألوش أيدى إلى جند والاستيلاء على تلك الحدود

حينما صدر أمر السلطان المطاع فاتح العالم جنكيز خان والذى يقضى بتحرير تلك المنطقة من يد الأعداء وأن يصاحبه عدد من الأمراء يمثلون كل واحد من أبنائه وأقاربه مثلما عين هو قبل ذلك أمراء ووحـدات مـن قبلـه لتمثيله فى الجيوش الأخرى، وفى شهر وضع هذه العزيمة موضع التنفيـذ، أسرع مع المحاربين الأبطال من جنوده كالقضاء الذى لا راد له، وكالأجل لا دفاع له ولا حيلة معه، فلما اقترب أولاً من مدينة سقناق الواقعة على شاطئ نهر جيحون قريبا من جند، أرسل فى البداية حسن حاجى -الذى كـان قـد التحق ببلاط فاتح العالم منذ زمن بعيد كتاجر وانتظم فـى زمـرة حـشمه- برسالة يبلغها الأهالى ويحضهم فيها على الاستسلام والطاعة وينصحهم بحكم ما بينه وبينهم من صلة وقرابة إنقاذا لأرواحهم وأموالهم، فلما دخـل مدينـة سقناق، وقبل أن يؤدى الرسالة ويأخذ فى نصحهم وإرشادهم، قـبض عليـه الأشرار والأوباش والمجرمون وقتلوه مكبّرين ظانين أنهم قد جاهدوا بـذلك جهادا كبيرا، طامعين فى الأجر العظيم والثواب الكبير على قتل ذلك المسلم، وكان ذلك الفعل سببا فى فصد وريد أولئك القوم، وكان ذلك الحيـف داعيـا لحتف تلك الجماعة برمتها "إذا حان أجل البعير حام حول البير"، فلما أخبـر جنكيز خان بتلك الحال أسرعت الأعلام صوب سقناق، ولشدة ما أصابه من غضب أمر الجند والعسكر بمداومة القتال منذ الصباح الباكر حتى المـساء، واستمروا على ذلك سبعة أيام متتالية ثم فتحوها عنوة وقسرا وأغلقوا بـاب العفو والسماح، ومحوا صورة وجود أكثرهم من جريدة الوجود انتقاما لتلـك النفس، وأعطى حكم هذه البلدة لابن حسن حاجى المقتول حتى يجمع البقايـا التى بقيت فى الأركان والزوايا. ومضوا من ذلك المكـان واسـتولى علـى أوركند وبار جليغ كنت، ونظرا إلى أنهم لم يقـاوموهم أو يحـاربوهم فلـم يقتلوهم جميعا. ثم توجهوا بعد ذلك إلى أشناس وكانت غالبية جنودهـا مـن

السفلة الأوباش، وقد قاتلوا قتالا عنيفا واستشهد الكثير منهم، فلما وصلت أنباء هذه الحالات إلى جند انسحب قتلغ خان أمير الأمراء مع جيش كبير كان السلطان قد عيَّنه للمحافظة على تلك المنطقة عملا بالحكمة القائلة "من نجا برأسه فقد ربح"، ونهض كالرجال العقلاء موليا ظهره للفرار فى أثناء الليل موليا وجهه شطر الطريق حتى عبر نهر جيحون وتوجه إلى خوارزم عبر الصحراء، فلما وصل خبر جلائه وخلاء جند من الجنود أرسل جنتيمور برسالة إلى الأهالى وأخذ فى استمالتهم وينذرهم ويحذرهم عاقبة الخصام، ونظرا إلى أنه لم يكن فى جند حاكم قوى أو قائد مطلق يوجههم ويجمعهم فقد تصرف كل واحد منهم حسب رأيه الذى يتراءى له صوابا، وأحدث العوامُ الضوضاء والهرج والمرج قاصدين أن يسقوا جنتيمور شرابا مر المذاق مثلما فعلوا مع حسن فعلم جنتيمور بذلك، فخاطبهم بدهاء وذكاء ورفق ومداراة، وتمكن من تسكينهم وتهدئتهم وذكرهم بأحوال سقناق وما أصاب أهلها من جراء مقتل حسن حاجى وعقد معهم موثقا، قائلا: إنى لن أسمح لأى جيش أجنبى أن يطأ بأقدامه أرض تلك البلاد. ففرح المواطنون بتلك النصيحة والعهد، وتعهدوا بأن لا يلحقوا به أذى أو ضررا. فلما عاد إلى (ألوش أيدى) عرض عليه ما كان قد شاهد من أحوال تلك الجماعة ونيتها وما سلكه معهم، لدفع شرهم من حلو اللسان وما اتبعه معهم من تملق وخداع ووصف عجزهم وقصورهم واختلاف آرائهم وأهوائهم، ومع أن الرغبة كانت متوفرة لدى الجيش المغولى للإقامة فى قراقورم وأن لا يتعرضوا لجند بالهجوم، فإنهم لهذا السبب قد لووا أعنتهم متجهين صوبهم باذلين جهدهم لاستخلاصها، ونزلوا بخارج المدينة فى الرابع من صفر سنة ٦١٦هـ واشتغل الجند بحفر الخندق وما يلزم ذلك من أخشاب ومنجنيق وسلالم وغيرها، بينما لم يسلك أهالى جند خطوة واحدة نحو الحرب واكتفوا بإغلاق البوابة وجلسوا فوق الحائط والأسوار ينظرون كالنظارة، ونظرا إلى أن غالبية أهالى المدينة لم يكونوا قد شاهدوا حربا قبل ذلك ولا خبرة لهم بها فقد تعجبوا من أفعال المغول قائلين: كيف يستطيعون الوصول إلى حائط القلعة؟! ومتى وكيف أقيمت هذه السلالم؟!

ووضع المغول السلالم على حائط القلعة، وتحركوا هم كذلك وبدأوا فى استخدام المنجنيق، وسقط حجر كبير على الأرض كما لو كان قد طار فـــى الهواء، ثم سقط فأصاب الحلقة الحديدية لهذا المنجنيق وكسرها، وفـــى تلـــك الأثناء وصل المغول من جميع الجوانب وصعدوا إلى أعلى الحائط وفتحـــوا البوابات ولم يصب أى فرد من الجانبين، وأخرج المغول جميع المـــواطنين، ونظرا إلى أنهم كفوا أيديهم وأرجلهم عن القتال والنزال معهم فقـــد مـــسحوا جباههم بيد الشفقة والرحمة وأبقوا عليهم أحياء عدا عدد قليل من القادة الذين أهانوا جنتيمور[1] وتطاولوا عليه فى القول، فقد قتلوهم واعتقلوا أهالى تلـــك الناحية فى الصحراء تسعة أيام بلياليها، وأغاروا علـــى المدينـــة ونهبوهـــا ونصَّبوا عليها عليَّ خواجة الذى كان من سادة[2] بخارى والـــذى كـــان قـــد لازمهم وانضم إليهم منذ زمن بعيد قبل خروجهم، وعهـــدوا إليـــه برعايـــة مصالحها والاهتمام بأمرها، وقد نجح فى ذلك، وتمكن من أداء عمله واستمر يشغل هذا المنصب ما لم يصدر من دار القضاء منشور الأجل بعزله.

وسيَّر إلى مدينة كِنْت أميرًا مع عشرة آلاف من الجنود استولى عليها وترك شحنة له بها، أما بالنسبة إلى ألوش أيدى فقد رحـــل إلـــى قراقـــورم، واختار من التراكمة سكان الصحراء ما يقرب من عشرة آلاف، وعين تاينال نوين قائدا لهم ومضوا إلى خوارزم، وبعد أن ساروا عدة أيام قطعوا خلالها عدة منازل من الطريق حدثت حادثة مؤسفة، فقد لازمهم شخص نحس الطالع وحرضهم على قتل المغولى الذى اختاره تاينال ليقوم مقامه فـــى قيـــادتهم، وأعلنوا العصيان، كان تاينال يسير فى المقدمة، فاضطر إلى العودة لإطفـــاء نار الفتنة وإسكات الاضطرابات التى أحدثوها، وقتل غالبية تلك الجماعـــة، وهرب بعضهم بمعجزة وأنقذ نفسه وروحه، ومضى مع فوج آخر إلى مروو آمويه، وهناك تكاثر عددهم وازداد جمعهم كما سيثبت ذلـــك فـــى موضـــعه المناسب إن شاء الله.

---

(١) معنى هذه الكلمة: الحديد الحقيقى Boyle: 88 true iron.

(٢) فى المتن قردوان ولم أعثر لها على معنى وترجمتُها طبقا للمخطوط بـــ "سروران".

ذكر استخلاص فناكت وحجند وأحوال تيمور ملك

أرسل ألاق نويان وسكتو وتقاى مع خمسة آلاف رجل للتوجه إلى فناكت، وكان أميرها إيلتكو ملك ومعه جيش من القنقليين فتحاربوا معا ثلاثة أيام متتالية، لم يحرز المغول أى تقدم خلالها حتى حل اليوم الرابع.

حينما قذفت الشمس أنشوطتها عاليا وارتفع الفضاء إلى السموات العلى

طلبوا الأمان، وخرجوا مستسلمين ففصلوا الجنود عن أرباب الحرف وأجلسوا كل جماعة على حدة وقضوا على الجنود جميعا بعضهم بضرب السيوف وآخرون بقذف السهام، وقسموا أرباب الحرف إلى عشرات ومئات، وعينوا الصناع والحرفيين وأصحاب الجوارح ثم استخرجوا الشباب من بين الآخرين وأرسلوهم إلى الجيش الأمامى وتوجهوا إلى حجند، فلما وصلوا إلى هناك تحصن أرباب المدينة بالقلعة وتخلصوا من طوارق الزمان. وكان أمير تلك القلعة تيمور ملك الذى قيل فى حقه لو أن رستم كان لا يزال حيا فى عهده ما صلح إلا أن يكون سائسا عنده، وكان قد أقام فى وسط نهر جيحون - حيث يتفرع النهر فرعين- قلعة عالية محصنة، وذهب إلى هناك مع ألف من الرجال الأشدَّاء والمحاربين المشهورين، فلما وصل الجيش إلى هناك لم يتمكن من الاستيلاء علىِ القلعة مباشرة، فلا يمكن أن تصل إليها سهام أو منجنيق، وساقوا شباب خجند إلى الجيش الأمامى وكانوا يمدون هذا الجيش بالشباب الذين أسروهم من أترار وبخارى وسمرقند والمدن والقرى الأخرى التى استولوا عليها، حتى أصبح هناك خمسون ألف رجل فى الجيش وعشرون ألف مغولى فقسموهم جميعا إلى مجموعات عشرات ومئات، وعينوا مغوليا على رأس كل عشر مجموعات تتكون كل منها من عشرة من التاجيك، وكانوا ينقلون الأحجار من الجبل ولمسافة ثلاثة فراسخ مشيا على

الأقدام، وكان المغول يسقطون تلك الحجارة فى الماء وهم راكبون الجياد، وكان تيمور ملك قد صنع اثنى عشر زورقا مغطاة باللباد المبلل الملطخة بطبقة من الطين الممزوج بالخل تاركين البوابات الصغيرة (للقذف)، وكان يرسل شيئا من هذه الزوارق فى كل صباح إلى اتجاه معين، وكانوا يقاتلون بضراوة، ولم تكن ضربات السهام تؤثر فيها، وكان المغول يقذفون بالنار والنفط والحجارة فى الماء، ولكن تيمور كان يتخلص منها وينجو، بل ويشن عليهم غارات ليلية، فأرادوا أن يدفعوا مضرته ويتخلصوا من ضرره، وعبثا حاولوا اتقاء شره، فقد نفدت سهامهم وما معهم من منجنيق فقد استخدمت كلها، فلما تأزم الموقف وجاءت اللحظة التى لا بد وأن يختار فيها إما الشهرة وإما العار فى الوقت الذى صار فيه قرص الشمس طعاما لمعدة الأرض وأظلمت الدنيا وأصبحت قاتمة كصومعة المسكين، جهز أمتعته وأثقاله وأحماله وأجلس رجاله فى سبعين سفينة كان قد أعدها ليوم الهروب. ركب هو وجماعة من الرجال فى زورق وأضاءوا المشاعل وانطلقوا مسرعين كالبرق الخاطف كما قال الشاعر:

خاض الدجى ورواق الليل مسدول   برقٌ كما اهتز ماضى الحد مصقول

وتحرك الجيش على شواطئ النهر بينما هو يتحرك فى زورقه إلى كل مكان يستخدمون فيها القوة ويقذفهم بالسهام التى لا تخطئ هدفها مثل القضاء، فقاد السفن وأسرع بها، واستمر على هذا النحو حتى وصل إلى فناكت، وكان المغول قد أقاموا سلسلة وسط الماء حتى تكون حائلا للشقى من التقدم فقذفها بضربة من رمحه وغيرها، واشتركت بعض الجيوش فى حرب من الطرفين حتى وصل إلى حدود جند وبارجليغ. وهاجمته الجيوش من كل جانب. فلما وصلت أخباره إلى سمع ألوش أيدى وكان يمتلك جيشا على شاطئ النهر فى عدة أماكن، وشيد قنطرة من السفن وأعدت آلات القذف للعمل وأخذ تيمور ملك فى ترصُّد الجيش وانتظاره له، فلما وصل إلى حدود بارجليغ كنت اتجه صوب الصحراء، وخرج من الماء وقطع الصحراء هاربا مثل الفأر على

جواد سريع وأسرع جيش المغول فى أثره متعقبا له، وبينما كانوا يجرون وراءه كان هو قد أرسل أمتعته إلى الأمام وتخلف مستعدا للقتال قابضا على سيفه قبضة أشد الرجال. وكلما تحركت الأمتعة مسافة أكثر مضى فى أثرها مرة أخرى، واستمر يكافح على هذ النحو عدة أيام حتى قُتل وجُرح من رجاله الكثير بينما كان جند المغول يزداد يوما بعد يوم، وأخذ المغول أمتعته منه وبقى مع عدد قليل من رجاله إلا أنه ظل مصرا على القتال وعدم الاستسلام، فلما قتل الأشخاص القليلون الذين كانوا معه ولم يبق معه سلاح سوى ثلاثة من السهام أحدها مكسور لا حربة له مضى فى أثره ثلاثة من المغول فرماهم بالسهم المكسور الذى لا رأس له فأصاب أحدهم وأعماه، ثم قال للاثنين الآخرين: لقد بقى سهمان بعددكما وإنى مستاء لاستخدام السهم ضدكما والأفضل لكما وما فيه صلاحكما أن تعودا وتحفظا أرواحكما. فعاد المغوليان عنه ومضى هو إلى خوارزم وبدأ فى الاستعداد للحرب مرة ثانية، وذهب مع جمع من الجنود إلى مدينة كنت وقتل النائب الذى كان يتولى أمرها هناك ثم عاد.

فلما لم يطب له المقام فى خوارزم ولم يجد فيها أمنه ذهب فى أثر السلطان الذى التحق به فى الطريق إلى شهرستان، وبعد مدة بينما كان السلطان يبحث فى كل مكان ويتقدم ويتأخر أظهر بدوره كثيرا من المقدرة والكفاية ثم ذهب بعد مدة فى زى الصوفية إلى الشام....وبعد بضع سنين هدأت دائرة الفتن والتأمت جروح الزمان فإن حب الوطن والأهل كان الباعث له على العودة، بل كان القضاء هو محرضه على ذلك حتى وصل إلى فرغانة واستوطن مقابر قصبة "أرس" عدة سنوات، كان فيها على اتصال دائم بالأخبار وكان يذهب فى كل وقت إلى خجند ليرى ابنه الذى أنعم عليه من حضرة باتو بأسباب والده وأملاكه، وتوجه إليه فاقترب تيمور منه وقال: إذا كنت ترى والدك فهل تتعرفه؟ فأجاب الابن: لقد كنت طفلا رضيعا حين تركنى والدى وتخلفت عنه وإنى لن أتعرف عليه ثانية، ولكن هناك غلاما يعرفه. فأحضروا الغلام الذى شاهد العلامات التى كانت بأعضاء تيمور

فشهد عندئذ بأنه هو حقيقة وشاع هذا الأمر بين الناس ولم يصدقه بعـــضهم، لأن الودائع كانت فى أيديهم فأنكروا ذلك، ولهذا السبب فكر فى الذهاب إلـــى حضرة القا آن حتى ينعم برعايته وشفقته، والتقى فى الطريق (بقدقان) الذى أمر بتقييده، وسأله قدقان فيما يختص بحربه وفعاله مع المغول.

لقد رآنى البحر والجبل وأنا فى قتالى مع أبطال توران المشهورين

وما فعلته بهم النجم شاهد عليه، فإنى

بالشجاعة والإقدام قد أخضعت الأرض كلها لى.

وتعرف عليه المغولى الذى كان قد أصابه بالسهم المكسور وأكثر من توجيه الأسئلة إليه، إلا أنه أهمل فى إجابته أسلوب الاحترام والتعظيم الـــذى يتبع بين المتكلمين فى حضرة السلاطين، ولشدة غضبه انطلـــق منـــه أحـــد السهام فكان ردا على جميع السهام التى قذفها من قبل فالتوى متألما متأوهـــا ولم يعد يفكر فى خير أوشر وقد أصابت الطعنة مقتله وانتقل من بيت الـــدنيا الفانية إلى الدار الباقية. ما من الموت خلاص ولا عنه مناص:

أيتها الدنيا عجبا لأفعالك فمنك السليم ومنك المكسور

ذكر استخلاص ما وراء النهر على سبيل الإجمال

تشتمل بلاد ما وراء النهر على بلاد وبقاع ونواح ورباع إلا أن بخارى وسمرقند هى خلاصة تلك المساكن وزبدة هذه الأماكن، وقد ورد فى كتاب معجم البلدان عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ستفتح مدينة بخراسان خلف نهر يقال له جيحون تسمى بخارى محفوفة بالرحمة محفوفة بالملائكة منصور أهلها النائم فيها على الفراش كالشاهر فى سبيل الله سيفه، وخلفها مدينة يقال لها سمرقند فيها عين من عيون الجنة وقبر من قبور الأنبياء وروضة من رياض الجنة تحشر موتاها يوم القيامة مع الشهداء، ومن خلفها تربة يقال لها قطوان يبعث منها سبعون ألف شهيد يشفع كل شهيد فى سبعين من أهل بيته وعشيرته.

وسوف تثبت وقائع هاتين المدينتين بالتفصيل على التخصيص ويؤيد صحة هذا الحديث أن أمور العالم نسبية وقد قالوا: وبعض الشر أهون من بعضه.

وتحت كل الظروف والأحوال فإن الشكر واجب على العبد فالشر الكثير أسوأ من الشر القليل.

وصل جنكيز خان بنفسه إلى تلك البلاد، وكانت أفواج جيش التتار تترى كأمواج البلاء والفناء. ولم يشف صدره الانتقام منهم والتشفى فيهم أو إسالة دمائهم أنهارا كما سطر ذلك حكم القدر فى جريدة القضاء. فلما استولى على بخارى وسمرقند فقد أدخل السرور على نفسه بالقتل والإغارة إلا أنه لم يبالغ أو يفرط فى قتلهم. ولم يتعرضوا (أى جنكيز خان) لما يجاور تلك البلاد وضواحيها لاستسلامهم وانقيادهم لحكمه، ثم اتجهوا بعد ذلك لإعادة العمارة وتأمين ما بقى من الأهالى، حتى إذا ما حلت شهور سنة ثمانٍ وخمسين

وستمائة عادت عمارة ورونق بعض هذه البقاع إلى رونقها الأصلى واقترب بعضها الآخر من ذلك، بخلاف خراسان والعراق التى ابتليت بالحمى اللازمة والحرارة المطبقة، فقد أغاروا على مدنها وقراها عدة مرات وقتلوا أهلها، وقد استمر ذلك الاضطراب عدة سنوات، فعند ذلك الحين حتى يوم القيامة فلو توالد الناس وتناسلوا وازداد عدد الناس وتكاثروا فإنه لن يصل إلا عشر ما كان عليه قبل ذلك، ونستطيع أن نتعرف على ذلك من آثار الأطلال والدمن التى سجلت ونقشت أعمال الزمان على جدرانها وإيواناتها، وكان من مظاهر الاهتمام بتلك الممالك أن عهدوا بزمام تلك البلاد إلى كفاءة الصاحب الأعظم يلواج وخلفه الصادق الأمير مسعود بك حتى يصلح برأيه الصائب وبصره الثاقب المفاسد التى ألمت بها، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر.

فرفع عن كاهل الأهلين مؤن الجيش وأثقال الضرائب وزوائد العوائد، وتؤيد صحة هذه الدعوى آثار النعمة والعمارة والرخاء الذى أصاب الأهلين، التى هى مشرق أنوار ذلك العدل والرأفة، تلك الآثار التى ظهرت على صفحات تلك الأمصار، التى تتجلى بوضوح على أحوال تلك الأقاليم وقاطنيها.

ذكر استخلاص بخارى

هى من البلاد الشرقية قبة الإسلام، وتعتبر مدينة السلام فى تلك النواحى والأنحاء، ازدان سوادها ببياض نور علمائها وفقهائها وزينت أطرافها وجملت بطرف المعالى.

وهى منذ قديم الزمان وفى كل قرن مجمع نحارير علماء كل دين وفق دين كل عصر، واشتقاق كلمة بخارى من بخار، وهى تعنى بلغة المغان مجمع العلم، وهذا اللفظ بلغة الأويغوريين والختاى عبدة الأوثان. قريب من هذا المعنى أنهم يطلقون على معابدهم التى تضم الأصنام كلمة بخار، وكان اسم المدينة وقت إنشائها بمجكث[1]، فلما فرغ جنكيز خان من ترتيب الجنود وتجهيزهم وصل إلى ممالك السلطان وأرسل الأبناء الكبار والأمراء مع جيوش كثيفة إلى كل مكان، وتوجه هو بنفسه قاصدا بخارى، واشترك معه من أبنائه الكبار تولى مع جيش كبير من الأتراك الشجعان الذين لا يفرقون بين الطاهر والنجس ويحسبون كأس الحرب كأس شراب لذيذة ويظنون غمد الحسام كأس المدام. وتحرك عن طريق زرنوق فى الوقت الذى ارتفعت فيه الشمس من الأفق الشرقى فى الصباح الباكر، وصل إلى طرفها فجأة، وفى الوقت الذى رفع فيه سلطان النجوم العلم من الأفق الزمنى كان أهالى المدينة غافلين عن القضية التى ولدتها الأيام والليالى. فلما رأوا أطراف المدينة وأكنافها وقد أحاط بها الفرسان واستحال الهواء المنير إلى ليل بهيم من تراب الخيول استولى الفزع والهول عليهم وارتسم الخوف والجبن على وجوههم، لجأوا إلى القلعة وتحصنوا بها وأغلقوا أبوابها ظانين ومفكرين أنه ربما يأتيهم فوج من جيش كثيف أو موج من بحر لُجِّىٍّ متلاطم حتى يقاتلوا ويسيروا إلى

---

(١) اسمها الصغدى القديم Bumich Kath وتعنى العاصمة.

حتفهم بأرجلهم فأنقذهم بواسطة اللطف الربانى وثبتت أقدامهم ولـم يختلفـوا فيما بينهم، وفى أثناء ذلك أرسل سلطان العالم وفقا لعادته المتبعة رسولا هو و"الشحنة صاحب" برسالة إليهم مخبرا بوصول الموكب وناصحا لهم بتجنب الوقوف فى وجه السيل الشديد.

إلا أن نفرا منهم ممن ينطبق عليهم القول "استحوذ علـيهم الـشيطان" أرادوا بمعارضته التعرض له وإيذاءه فصاح فيهم معليًا صوته قـائلا: إنـى فلان ابن فلان مسلم ابن مسلم قد أتيت إليكم ابتغاء مرضاة الله برسالة مـن جنكيز خان نافذ الأمر والسلطان حتى أخرجكم وأنقذكم من أعمـاق الهـلاك وبحار الدماء، فهذا هو جنكيز خان قد أتى بنفسه ووصل إلى هنا على رأس عدة من الألوف من المحاربين الأشداء، فإذا أبديتم أية رغبة فـى الخـلاف والعناد فإن القلعة والصحراء والوادى ستصبح فى ساعة واحدة بحرا كبيـرا من الدماء، وإذا أصغيتم واستمعتم لنصيحته وموعظتـه ووعتهـا عقـولكم وآذانكم وانقدتم إليه وأطعتم أمره حفظتم أنفسكم وأموالكم فى حصن الأمان.

فلما استمع الناس من خاصة وعامة لأقواله التى لمـسوا فيهـا سـمة الصدق وإحساس اليقين أصغوا إلى نصيحته وأدركوا تمـام الإدراك أنـه لا قدرة للسيل على ملء ممره واعتراض سبيله. وستزلزل الجبال زلزالها ولن تعرف الأرض الاستقرار والقرار، ورأوا الصلاح فى الصلح والفـلاح فـى قبول النصح فأخذوا منه موثقا وتعهدا من باب الاحتيـاط والأمـان، إذا مـا استقبله الأهالى فرحين واستسلموا لحكمه وأصاب الضرر أى فرد منهم فإن ذنب ذلك الجرم يقع على عاتقه ويقتص منه، وهكذا هدأ الأهلون واسـتقروا وأمنوا وسحبوا أقدامهم عن طريق الخطأ والعناد، وكفوا أفكارهم عن ذلـك وولوا وجوههم شطر المصلحة والمنفعة، وأرسل أكابر زرنوق وعظماؤهـا وفدا إليه حاملا الكثير من الهدايا، فلما وصلوا إلى موقف خيول الخان سألهم عن أحوال قادة ومعارف زرنوق وغضب لتخلفهم وتقاعدهم، وأرسل رسولا لاستحضارهم، ولشدة هيبة السلطنة وخوفهم مما سينالهم ارتعدت فرائـصهم

واضطربت أحوالهم وزلزلت أركانهم زلزالا شديدا، كجبل دُكَّ دَكَّةً واحدة وأسرعوا فى التو والحال إلى حضرته، فلما مثلوا بين يديه أظهر لهم جنكيز الكثير من الشفقة والعطف والرحمة، وأمَّنهم على أرواحهم حتى استقرت نفوسهم وهدأت أمورهم، ثم أصدر أمرا بخروج أى كائن كان فى زرنوق سواء أكان من أصحاب القلانس والعمامة أم أصحاب القناع والبراقع، فجمعوهم فى الصحراء وأحالوا القلعة إلى صحراء جرداء ثم أحصوا الجماجم وعينوا جيشا أماميا من الفتيان والشبان لمهاجمة بخارى وسمح للآخرين بالعودة إلى ديارهم وأسموا القرية قتلغ باليغ (المدينة المباركة).

واتخذوا من تراكمة تلك المواضع دليلا خبيرا بالطرق والسبل وعلى دراية وعلم كبيرين بشأنها فقاد الجيش فى طريق لا يسلكه أحد ويطلقون على هذا الطريق منذ ذلك الحين الطريق الملكى. وكان مرورى فى شهور سنة تسع وأربعين وستمائة فى مصاحبة الأمير أرغون فى أثناء ذهابه إلى بلاط منكو قا آن من هذا الطريق، وكان طاير بهادر يسير فى المقدمة، فلما اقتربوا من مدينة نور ساروا وسط عدد من الحدائق، وفى أثناء الليل جذوا الأشجار وصنعوا منها سلالم ومصاعد وأمسكوا السلالم أمام جيادهم، وتقدموا ببطء وتؤدة، وظن مراقبو السور أن هؤلاء جماعة من التجار، وظلوا على هذا النحو حتى وصلوا إلى باب قلعة نور فأظلم النهار عليهم، وغشيت الظلمة أعينهم.

وهذه هى حكاية زرقاء اليمامة: لقد شيدت قلعة عالية وكانت ثاقبة النظر لدرجة أنها كانت قادرة على رؤية جيش خصومها من بعيد إذا قصدها خصم من الخصوم، فتستعد وتتسلح لمنعهم وصدهم، ولم يكن خصومها قادرين على تحقيق أى شىء ضدها سوى الحسرة والندم، بعد أن يكونوا قد فعلوا كل خدعة محكمة ولم يغفلوا عن أية حيلة ممكنة، وفى النهاية أمرهم أن يقطعوا الأشجار من جذوعها بأغصانها وأن يمسك كل فارس بالشجرة أمامه، وكانت الزرقاء تقول : إنى أرى شيئا عجبا فإنى أرى شبه غابة تتحرك

نحونا. فقال قومها: ربما اعترى نظرك خلل أو ألم بــه مكــروه , إذ كيــف تتحرك الأشجار؟ وأهملوا المراقبة وأخذ الحيطة والحذر حتى كــان اليــوم الثالث وصلت جيوش الخصوم وهجموا، وانتصروا عليهم وقبــضوا علــى الزرقاء وقتلوها، والخلاصة أن أرباب نور أغلقوا الأبواب وأرســل طــاير بهادر رسولا مخبرا بوصول السلطان فاتح العالم وناصحا بالانقيــاد وتــرك العناد، وكانت أهواء الأهالى وآراؤهم مختلفة متباينة والسبب فى ذلك أنهم لم يكونوا مصدقين بوصول جنكيز خان بنفسه، بل كانوا فى حذر شــديد مــن وصول السلطان مستعدين له وكانوا مترددين لا يعلمون ما يفعلــون فكــان بعضهم راغبا فى الاستسلام والانقياد والدخول فى الرعية وآثــر آخــرون التمرد والعصيان... وبعد مفاوضات قام بها الرسل والسفراء استقروا علــى أن يرتب أهالى نور نزلا وطعاما أرسلوه فى مصاحبة الرسول إلى حــضرة سلطان الوقت وأن يقدموا له فروض الــولاء والطاعــة وســمات االوفــاء والانقياد.

وقنع طاير بهادر بالقليل من النزل مما قدموه ومضى فى سبيله وأرسل أهالى نور رسولا مخبرا بما تم الاتفاق عليه، وبعد أن شرف الرسول بقبول السلطان للنزل أمر أن يتوجه سبتاى فى المقدمة إليهم وأن يسلموه المدينــة. فلما وصل سبتاى امتثلوا للأمر الصادر إليهم وسلموا له المدينة واتفقوا على أن يقنعوا بنجاة المواطنين وأن يهيأ لهم ما لا بد منه مــن أمــور المعــاش ومصالح العمارة والزراعة من أغنام وبقور وأن يخرجوا إلى الصحراء وأن يتركوا المنازل كما هى حتى يغير عليها الجنود فنفذوا ما أمروا به ودخــل الجيش إلى المدينة ونهبوا كل ما وجدوه ولم يحد المغول عن الاتفاق الــذى أقروه ولم يصيبوا أى فرد منهم بأذى أو مكروه، واختــاروا ســتين رجــلا أرسلوهم مع إيل خواجة ابن أمير نور وعونا كما كان متعارفا إلى دبــوس، فلما وصل جنكيز خان قاموا وهبوا لاستقباله حاملين معهم ما يناســبه مــن الهدايا والنزل فخص جنكيز خان تلك الجماعة بالعطفة السلطانية وسألهم: ما الضرائب التى يفرضها السلطان على أهالى نور؟ قــالوا ألــف وخمــسمائة

دينار. فأمرهم بأن يدفعوا قيمة هذا المقدار نقدا وأن لا يتعرضوا لأى شىء آخر خلاف ذلك، وقدم نصف هذا المبلغ من قلائد النساء وجواهرهن وتعهدوا بسداد الباقى بعد مدة ثم دفعوه إلى المغول وتخلص أهالى نور من مذلة الأسر وعبودية التتار وحصلت نور على الرخاء والرفاهية. ثم توجه من هناك إلى بخارى ونزل فى أوائل المحرم من سنة سبعة عشر وستمائة على بوابة القلعة.

ثم أقاموا بعد ذلك مقاما للسلطان فى الصحراء فى مواجهة القلعة.

كان عدد الجنود يزيد عن عدد النمل والجراد ويفوق حد الحصر والإحصاء، وكانوا يصلون فوجا بعد الآخر كأنهم أمواج بحر زاخر متلاطم الأمواج ونزلوا حول المدينة، وكان هناك عشرون ألفا من جيش السلطان من خارج المدينة يتقدمهم كوك خان الذى كانوا يقولون عنه إنه كان مغوليا وهرب من جنكيز وانضم إلى السلطان - والعهدة على الراوى- ولهذا السبب نال حظوة عند السلطان وعلا أمره، وقد خرج هو وأمراء آخرون عند غروب الشمس مثل خميد بور وسونج خان وكشلى خان من القلعة مع أكثر القوم، وحينما وصلوا إلى شاطئ نهر جيحون تعقبهم حرس ومقدمة الجيش الاستطلاعية وأطبقوا عليهم ولم يتركوا أثرا لهم.

إذا لم يكن يغنى الفرار من الردى   على حالة فالصبر أولى وأحزم

وفى اليوم الثانى حينما أضحت الصحراء من انعكاس قرص الشمس طستا ممتلئا بالدم، فتحوا البوابة وأوصدوا باب النزاع والنزال والحرب والخصام وذهب أئمة وأعيان مدينة بخارى إلى جنكيز خان، ودخل جنكيز لتفقد القلعة والمدينة من الداخل ودلف إلى المسجد الجامع ووقف فى مواجهة المقصورة وترجل ابنه تولى وصعد المنبر وسأل جنكيز: أهذه سراى السطان؟ فقالوا إنها بيت الرحمن، فنزل عن جواده هو الآخر وصعد درجتين أو ثلاثا وقال: إن الصحراء خالية من العلف، فليطعموا الجياد. ففتحوا المخازن التى كانت موجودة بالمدينة وأخرجوا ما بها من غلات ثم أحضروا

صناديق المصاحف إلى وسط صحن المسجد حيث تقاذفتها الأيدى والأقدام، وجعلوا من صناديقها إصطبلا للخيول وأخذوا يداومون فى احتساء كئوس النبيذ واحضروا مغنيات المدينة فاستمعوا لهن ورقصوا على أنغامهن. وبينما كان المغول يرفعون أصواتهم على نغمات غنائهن كان الأئمة والمشايخ والسادات والعلماء ومجتهدو العصر يقومون بحراسة الجياد والبوابة وحظائر الأمراء والمحافظة عليها والتزموا بالامتثال لحكم هؤلاء القوم... وبعد ساعة أو ساعتين عزم جنكيز على العودة مرة أخرى إلى معسكره وسارت معه الجماعة التى كانت هناك وصارت أوراق مصاحف القرآن موطئا للنعال وسط القاذورات.

وفى تلك الأثناء توجه الأمير الإمام جلال الدين على بن الحسن الرندى الذى كان قدوة وإماما لسادات بلاد ما وراء النهر وكان على درجة كبرى من الزهد والورع إلى الإمام العالم ركن الدين بن الإمام الذى كان من أفضل علماء العالم طيب الله مرقديهما وقال: ما هذه الحالة التى أراها يا مولانا؟! وهل ما أراه يا رب حقيقة أم منام؟! فقال مولانا: أصبت، إنها رياح الاستغناء عن الله التى تهب، إننا لا قدرة لنا على الكلام.

فلما خرج جنكيز خان من المدينة ذهب إلى مصلى العيد وصعد المنبر وكانوا قد أحضروا أهل المدينة جميعا فسأل عن الأغنياء فيما بينهم فعينوا مائتين وثمانين شخصا منهم مائة وتسعون من أهل المدينة وتسعون آخرون غرباء من التجار الذين وفدوا إليها من الأقطار الأخرى وأحضروهم إلى مقربة منه ثم بدأ خطابه ذاكرًا غدر السلطان وخلافه الذى ما ذكر عنه كاف، وقال فى بداية قوله: أيها القوم اعلموا أنكم قد اقترفتم الكثير من الذنوب والآثام، وقد ارتكب هذه الآثام عظماؤكم وكبراؤكم. تسألوننى ما دليلى على ما أقول، فأجيبكم: إن سبب ذلك هو أنى عذاب الله، فإذا لم تكونوا قد ارتكبتم المعاصى والآثام لم يرسل الله عذابا مثلى ليصب فوق رءوسكم العذاب، ولأذيقنكم وبال أمركم أختتم الخطبة بهذه النصيحة قائلا: لا حاجة إلى

الاعتراف بأموالكم الظاهرة والواضحة على وجه الأرض، أخبروني عما يحتويه باطن الأرض. ثم سألهم بعد ذلك قائلا من أمناؤكم والمعتمدون لديكم؟ فتحدث كل شخص عن أقاربه والمرتبطين به وعين مع كل واحد منهم مغوليا أو تركيا نائبا عنه باسم باسقاق حتى لا يتعرض أحد من الجنود لهم أو يخضعوهم ويقهروهم بالإذلال والهوان، ثم بدأوا فى أخذ المال من هؤلاء المعتمدين فأخذوا ما أعطوه لهم من الأموال دون أن يفرضوا عليهم أضعافه أو يحمّلوهم ما لا يطيقون. وفى كل يوم فى وقت طلوع الشمس كان الموكلون يحضرون كبار القوم إلى حضرة سلطان العالم، وكان جنكيز خان قد أصدر أمرا بإخراج جيش السلطان من داخل المدينة والقلعة، فلما كان تنفيذ ذلك الأمر عسيرا بالنسبة إلى المواطنين، وكانت تلك الجماعة حماية لنفسها وأرواحها قد سلكت كل ما يمكن لها من محاربة وقتال وإغارة ليلية، لهذا أصدر أمرًا بإضرام النار فى المحلات، ونظرا إلى أن مبانى المدينة كلها كانت من الأخشاب، فإن غالبية المدينة قد احترقت خلال عدة أيام عدا المسجد الجامع وبعض القصور التى كانت قد شيدت من الآجر، ثم ساقوا أهل بخارى لمحاربة ومهاجمة القلعة واشتعلت نار الحرب من الجانبين وأعد المغول من الخارج المنجنيق والحجارة وأحنوا الأقواس وأعدت السهام والحجارة، أما من الداخل فكانت آلات القذف وقوارير النفط معدة للاستعمال، وكانت مشتعلة كالتنور الذى يغذونه بأكوام وجبال من الأحطاب الجافة، وقد تناثر الشرر من جوف التنور مرعدا فى الهواء، واستمرت المعركة على هذا النحو عدة أيام شن أهل القلعة خلالها حملات شديدة على المهاجمين وبخاصة كوك خان الذى يبدو وكأنه قد اختطف من ذكر الأسود فقد كان شجاعا مقداما حارب بجسارة معارك عدة وأبلى بلاء حسنا وقتل فى كل هجمة عددا من الرجال، بل أسر وحده عددا كبيرا من الجيش، حتى اضطرب الأمر فى النهاية، ولم يعد هناك مجال للاختيار والتفكير وقيل عذر تلك الجماعة عند الخالق والمخلوق، وامتلأ الخندق بالحيوانات والإنسان، وارتفع بالجيش الأمامى والبخاريين واستولوا على الفصيل وأضرموا النار بالقلعة وقد

أضحى الملوك والقادة والأعيان الذين كانوا أعيان الزمان والمقـربين لـدى السلطان والذين تجاوزت عزتهم كل حد حتى وضعوا أرجلهـم علـى رأس الفلك، هؤلاء جميعا قد أضحوا أسرى المذلة والهوان وغرقى فى بحر الفناء والدماء:

الدهر يلعـب بالـورى	لعب الصوالج بـالكرة
أو لعب ريـح عاصـف	فـاعلم بكف مـن ذرة
الدهر قنُاص ومـا الـ	إنـسان إلاَّ قنبـرة[1]

ولم يتركوا أى واحد من الرجال حيا بعيـدا عـن ضـرب الـسياط والتعذيب.

وقد أحصى الذين قتلوا من الرجال بما يزيد عن ثلاثين ألفا، وقد أسروا صغار الأولاد وأولاد الكبار منهم والنساء الفارعات الجميلات القد، وحينمـا طهرت القلعة والمدينة من الطغاة وسويت الجدر والفصيل بالأرض وأضحت كثيبا مهيلا ساقوا جميع أهالى المدينة من رجال ونساء وقبيح وجميـل إلـى منطقة المصلى وأمنهم جنكيز خان على حياتهم ولكنه اختار الشباب والكهول الذين يصلحون لأداء الأعمال للاستعداد للانضمام إلى الجيش المتقدم لغـزو سمرقند ودبوسيه. وتوجه من هناك قاصدا سمرقند وتفرق أربـاب بخـارى بسبب الخراب الذى ألم بهم وأضحوا كبنات الـنعش وذهبـوا إلـى القـرى المختلفة، وأضحت تلك المدينة قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجـا ولا أمتـا، وكان واحد من أهل بخارى قد هرب بعد الوقعة ووصل إلى خراسان، وقـد سألوه عما جرى فقال : قدموا، واقتلعوا، وحرقوا، وقتلوا، ونهبوا، ثم ذهبوا. وقد شهد أهل الفصاحة والبلاغة والذين استمعوا لهذا القول بأنه لا يمكـن أن يكون هناك أوجز وأبلغ من هذا القول فى الفارسية تعبيرا لما جرى وكل ما هو موجود ومسطور فى هذا الجزء أى خلاصة هاتين الكلمتين أو الـثلاث

---

(١) من أبيات للقاضى أبى الفضل أحمد بن محمد الرشيدى اللوكرى الذى كان من أولاد هارون الرشيد، أوردهـا الثعالبى فى تتمة اليتيمة.

التى ذكرها هذا الشخص، وبعد أن استولى على سمرقند عين توشا باسقاق نائبا عنه لإمارة وحكم منطقة بخارى، فقدم إلى بخارى، فاستعادت رونقها قليلا، حتى إذا ما تولى مقاليد الحكم سلطان العالم، حاتم آخر الزمان، زاد اهتمامه بها فعهد بأمرها إلى بلواح الذى جذب بمغناطيس عدله ورأفته الشذاذ والمتفرقين الذين هربوا بأنفسهم لاجئين إلى الزوايا والخبايا، فعادوا إلى أوطانهم، وولوا وجوههم من جميع البلدان والأمصار وأقاصى الأقطار وأدانيها شطرها فارتقت عمارتها، وحسنت إدارتها بفضل رعايته لها وعنايته بها، ولم تقف عند هذا الحد بل بلغت أقصى درجات الرقى والازدهار، وصارت ساحتها مستقرا للكرام والكبار ومجمعا للخاصة والعامة من الناس.

وفجأة وفى شهور سنة ستة وثلاثين وستمائة خرج من أطراف بخارى أحد المتصوفه واسمه غربال مرتديا زى أهل الخرقة، فاجتمعت عليه العامة من الناس وزادت الأمور سوءا حتى بلغت حدا كبيرا فقد صدرت الأوامر بقتل جميع أهالى بخارى، ولكن الصاحب بلواح كالأبرار دفع بخير دعائه شر القضاء، وارتفع عنهم ما حل بهم فجأة من بلاء وزالت عنهم الغمة، فاستعادت ساحة تلك البلدة رخاءها ورونقها، وانتعشت الأمور من جديد.

ويوما بعد يوم انتشر قبض فضل واجب الوجود مكونا بالرحمة والشفقة بساط العدل والجود وأشرقت كالشمس الوضاءة على يد شفقة محمود ودر ذلك البحر المسعود[1]، والآن فلا تستطيع أى مدينة من ديار الإسلام أن توازيها أو تدانيها ازدحاما بالأخلاق وكثرة للصامت بها والناطق واجتماعا للعلماء وازدهارًا للعلم وطلبته وتشييدا لمبانى الخير.

---

(١) المقصود هو الصاحب الأعظم محمود بلواح وابنه مسعود بك، وقد عين محمود بلواح من قبل أوكتاى قا أن بن جنكيز خان حاكما على ممالك الختاى فى شمال الصين، ومسعودبك حاكما لبلاد الأويغور وختن وكاشغر وما وراء النهر حتى نهر جيحون –القزوينى نقلا عن جامع التواريخ –رشيد الدين – بلوشيه صفحة ٥٦- ٨٦.

والمكانان اللذان أحكم بناؤهما وتشييدهما فى هذا التاريخ فى تلك الرقعة أولهما المدرسة السلطانية التى شيدتها سرقويتى[1]، والثانى هو المدرسة المسعودية التى يدرس ويستفيد بها فى كل يوم ألف طالب من طلاب العلم وكان أساتذتها من نحارير علماء العصر وعظماء الدهر الأفذاذ.

والحق أن هذين البناءين الشامخين قد زينا ميدان بخارى وكانا لها زينة وبهاء، وليس هذا فحسب بل كانا زينة وبهاء للإسلام قاطبة، وتحت ظلال هذه الظروف والأعمال نعم أهل بخارى وعم الرخاء، وخفضت عنهم الضرائب والمكوس. نتضرع إلى الحق تعالى أن يزين ساحات هذا العالم ببقاء السلطان العادل وازدهار الإسلام والدين الحنيف.

---

(١) Sorgagrani كما ذكرها صاحب التاريخ السرى للمغول وهى ابنة Gambu أخى أونك خان حاكم الكرايت، وقد تزوجت تولى بن جنكيز خان وأم أولادهم الأربعة منكو قا آن وقوبيلاى قا آن وهولاكو خان وأربق بوغا.

ذكر خروج تارابى

كان قران النحس فى شهور سنة ست وثلاثين وستمائة فى برج السرطان، وكان المنجمون قد أفتوا بأن فتنة ستظهر، ومن الجائز أن يخرج أحد المبتدعة، وهناك قرية تبعد عن بخارى بثلاثة فراسخ، يطلقون عليها اسم تاراب، وكان أحد الرجال بها ويدعى محمودا صانع الغربال، وقد قالوا عنه إنه فى حماقته وجهله وصلفه لا نظير له، قد ظهر وبدأ فى ادعاء الزهد والتقوى خداعا وزورا ثم ادعى امتلاكه لقوى سحرية يقصد أن الجن تحدثه، وعن غيبيات الأمور تخبره.

ويوجد فى بلاد ما وراء النهر وتركستان كثير من الناس أغلبهم من النساء يدعون امتلاك هذه القوى السحرية، وكانوا يزورون كل شخص ألم به مرض أو أصابه مكروه، ويسمونهم قراء الغيب ويؤدون الرقصات وغيرها، والتزم الجهلة والعامة بذلك الأسلوب وتلك الخرافات.

وكانت أخت محمود قد اعتادت محادثته فى كل نوع من أنواع الهذيانات السحرية حتى يشيعها فى الناس، والآن ماذا يجب على العامة من الناس أن يفعلوا؟ لا يستطيعون إلا أن يتبعوا جهالاته، والحقيقة أن الناس قد ولوا وجوههم شطره، وحيثما ظهر مريض أقعده المرض أو إنسان مبتلى بنازلة حملوه إلى محمود واتجهوا إليه، ومصادفة شفى واحد أو اثنان من هؤلاء المرضى واسترد قليلا من الصحة فازداد إقبال الناس عليه وكثر وفودهم إليه سواء أكانوا من الخاصة أو العامة "إلا من أتى الله بقلب سليم".

ولقد سمعت من بعض ثقات القول فى بخارى أنهم شاهدوه بأعينهم وفى حضورهم يداوى واحدا أو اثنين من العمى ينفخ غائط الكلب فى أعينهم فاستردوا أبصارهم، فسألت وهل كانا أعميين تماما؟ وإلا فإن هذه معجزة عيسى بن مريم "عليه السلام" فحسب. قال الله تعالى : "تبرئ الأكمه والأبرص"، ولو شاهدت تلك الحالة بعينىْ رأسى لشغلت نفسى بمداواة عينى.

وكان ببخارى آنذاك أحد العلماء الفضلاء، وقد اشتهر بفضله وعراقة نسبه، وكان يلقب بشمس الدين محبوبى، وبسبب التعصب والخلاف الذى كان بينه وبين أئمة بخارى فقد شنعوا عليه وألحقوه بزمرة مريديه والمعتقدين فيه ونسبوا إليه أنه قال لهذا الجاهل: إن والدى قد روى وكتب فى كتاب أن واحدا من تاراب بخارى سيظهر وسيكون له شأن كبير وسيستولى على هذا العالم، وقد أوضحت صفاته وعلاماته، وإن هذه العلامات ظاهرة فيك بادية عليك. فازداد غرور هذا الجاهل الغبى بهذه الخرافة كثيرا، وقد وافقت هذه الدعوى ما أفتى به المنجمون ولهذا ازداد المقبلون عليه يوما بعد يوم وكثر المحيطون به واتجه أهالى القرية والمدينة جميعهم إليه، وظهرت آثار الفتنة وبوادر الأزمة، فتشاور الأمراء والنواب الذين كانوا حاضرين آنذاك فى بخارى لمعالجة الأزمة وتسكين دائرة الفتنة وإخماد أوارها، وأرسلوا رسولا إلى محمود يلواج بخجند مخبرا إياه بهذه الحال، وتوجهوا هم إلى تاراب مدعين رغبتهم فى التبرك منه والتقرب إليه، والتمسوا منه التوجه إلى بخارى لتزدان المدينة وتتشرف بمقدمه، فقرر الذهاب إليها، واتفقوا على أنه إذا ما وصل إلى سربل وزيدان أمطروه رجما بالسهام فجأة، وحينما غادروا بخارى لاحظ تغيُّرا فى أحوال تلك الجماعة، فلما اقتربوا من بريل اتجه بوجهه إلى تمشا الذى كان من كبار النواب، وقال: ارجع عن فكرك السيئ وأقلع عنه وإلا أمرتهم بسمل عينيك دون تدخل أى من بنى آدم. فلما سمع منه المغول هذا القول قالوا: إنه مما لا شك فيه أن أحدا لم يخبره بقصدنا وهدفنا، وعلى هذا فمن الجائز أن تكون أقواله كلها على حق و صواب. فخافوا ولم يتعرضوا له بأذى حتى وصل إلى بخارى، ونزل فى سراى سنجر ملك فبالغ الأمراء والأكابر والصدور فى إكرامه وإعزازه متحينين الفرصة لقتله، إلا أن العامة من الناس تدافعت مقبلة إليه، وامتلأت تلك المحلة التى كان ينزل بها والسوق المجاور لها بالناس، وضاق المجال وأصبح الناس كتلا متلاحمة ولم يكن هناك مجال لمرور هرة، وتجاوز ازدحام الناس كل حد ورفضوا العودة دون تبرك منه، ولم يعد هناك مجال للدخول ولم يعد

هناك مجال للخروج، عندئذ صعد إلى السقف ونفث عليهم ماء من فمه فعاد كل واحد منهم أدركته رذاذة من فمه إلى بيته ضاحكا مستبشرا. إلا أن شخصا من أتباع غيه وضلاله أخبره عن مكر تلك الجماعة ونواياها وقصدها فانسل خارجًا من أحد الأبواب فجأة واعتلى صهوة جواد من الجياد التى كانت موثقة لدى الباب، ولم تكن الأقوام الغريبة تعلم من هو فلم يلتفتوا إليه أو يهتموا بأمره، وفى عدوة واحدة وصل إلى تل باحفص سريعا، وفى لحظة واحدة اجتمع جمع غفير من الناس حوله، وبعد وقت قصير طلب المغول ذلك الجاهل فلم يعثروا عليه فأخذ الفرسان يعدون فى كل جانب طالبين إياه وباحثين عنه... ثم عثروا عليه فجأة فوق ذلك التل المذكور ثم عادوا وأخبروا الناس بأمره فصاح الناس قائلين: لقد طار السيد بضربة واحدة من أجنحته حتى وصل إلى تل باحفص. وفى لحظة واحدة سقط زمام الاختيار من يد الكبار والصغار.

واتجهت أكثر الخلائق إلى الصحراء والتل واجتمعوا حوله، فنهض لصلاة العشاء، ثم توجه إلى الناس وقال: يا عباد الله، لماذا التوقف والانتظار؟ إن الدنيا يجب أن تطهر من دنس الكفرة، فليسلح كل واحد منكم نفسه بما يتيسر له من سلاح ودرع أو عصى أو قطعة خشبية. وشرع كل واحد منهم فى سبيل ذلك وتوجه إليه كل رجل كان فى مدينة بخارى.

وفى يوم الجمعة نزل المدنية ودخل إلى سراى رابع ملك وطلب صدور وأكابر ومعارف المدينة, أعطى الخلافة لسيد الصدور والدهور، برهان الدين سلالة أسرة برهان الدين، وبقية عائلة صدر جهان، لرجاحة عقله وفضله التى لم يختلف أحد عليها، وعين شمس محبوبى فى منصب الصدر ثم أهان أكثر الأكابر والأمراء وتحدث إليهم حديثا لا يليق فبكتهم وأسال ماء وجوههم، وقتل بعضهم، وهرب آخرون، واستمال العامة والغوغاء إليه، وجمعهم وقال: إن جيشى يتكون من عنصرين: الأول ظاهر من البشر، والثانى مستتر من الجنود السماوية التى تحلق فى الهواء وحزب

من الجن يسير فى الأرض، وسأظهر لكم ذلك الآن، فانظروا إلى السماء والأرض حتى تروا صدق دعواى، وكانت الخاصة من مريديه تنظر وتقول: إنهم يحلقون فى ذلك المكان فى ثوب أخضر، وها هم كذلك يطيرون فى ثوب أبيض فى نفس المكان . وكانت العامة من الناس تقر بما يقولون، وكان كل شخص يجاهر برأيه ويقول "لا أرى" يضربونه بالعصى حتى يعلن موافقته ورؤيته لما يقولون، وكان يقول لهم كذلك: إن الحق تعالى قد أمدنا بالسلاح من الغيب. وفى أثناء ذلك وصل أحد التجار من ناحية شيراز وبصحبته عدد كبير من السيوف تقدر بحمولة أربعة من الحمير، وبهذا صدقه العامة ولم يعد هناك شك لديهم فى انتصاره، فقرأوا اسمه (اسم محمود) فى خطبة الجمعة كسلطان لبخارى، وحينما فرغوا من الصلاة أرسل إلى بيوت العظماء وكبار الرجال فأحضروا خياما وبسطا وفرشا وسائر ما يلزم، وقسم الناس أنفسهم إلى مجموعات عسكرية فى طول البلاد وعرضها، وانطلقت العامة والأوباش إلى بيوت الأغنياء فأمعنوا السلب والنهب فيها، فلما جن الليل اختلى السلطان فجأة بتماثيل الحسناوات الجميلات الوجوه جمال الملائكة، والعذارى الفاتنات وقضى معهن وقتا جميلا، ثم أحضرهن فى الصباح إلى حوض الغسيل حسب القول:

إذا ما فارقَتْنى غسَّلَتْنى　　　كأنا عاكفان على حرام

وتيمُّنا بهذا الماء وتبرُّكا به قسموه عليهم بالمن والدرهم وجعلوه دواء للأمراض وقسم الأموال التى حصل عليها على هذا وذاك وفرقها على الجيش والخاصة.

فلما رأت أخته تصرفه ومجونه فى الفروج والأموال، انفصلت عنه مبتعدة قائلة: إن أمره الذى كان موكولا إلىَّ قد أصابه السوء واعتراه الخلل.

وفى أثناء ذلك كان الأمراء والصدور الذين آثروا الفرار قبل الآن قد اجتمعوا فى كرمينيه، وجمعوا المغول الذين كانوا بتلك الأنحاء بجانبهم، وأعدوا كل ما يمكن إعداده وتجهيزه، واتجهوا صوب المدينة بينما كان هو

بدوره يستعد للقتال، فتقدم مع رجال صائحين مهللين لا يلبسون سوى القميص والإزار، واصطف الفريقان على الجانبين ووقف تارابى مع محبوبى فى صف واحد دون سلاح أو دروع، ونظرًا إلى ما شاع بين الجنود المغول من أفكار فحواها أن أى شخص يرفع يديه فى وجهه مخالفا شلت يده، ونتيجة لهذا أيضا أبطأ الجند فى قذف السهام وضرب السيوف... وفجأة انطلق أحد السهام من تلك الجماعة فأصاب مقتله مصادفة، وأصاب سهم آخر محبوبى، ولم يعلم أحد بما جرى لا من قومه ولا من خصومه، وفى أثناء ذلك عصفت ريح عاتية فأثارت التراب وانعدمت الرؤية ولم ير الواحد منهم الآخر فظن جيش الخصوم أن ما جرى إنما هو من كرامات تارابى فكفوا أيديهم عن الضرب وولوا الأدبار منهزمين، فتعقبهم جيش تارابى ومضى فى أثرهم، وخرج أهالى القرى من قراهم حاملين المعاول والفئوس وتوجهوا فى أثر هؤلاء الفارِّين وقبضوا على كل من أدركوه وبخاصة من العمال والمتصرفين، وانهالوا عليهم ضربا بالفئوس حتى قطعوهم إرْبًا إرْبًا وتعقبوهم حتى وصلوا إلى مقربة من كرمينية، فقتلوا ما يقرب من عشرة آلاف منهم، فلما عاد أتباع تارابى لم يجدوه فقالوا: لقد احتجب واستتر السيد عنا، وسيقوم مقامه حتى ظهوره أخواه محمد وعلى . وسار هذان الجاهلان مسيرة تارابى وعلى نهجه وتبعتهم العامة من الناس واطلقوا العنان لأيديهم فى السلب والنهب، وبعد أسبوع واحد وصل إيلدزنوين وجكين قورجى مع جيش جرار، فاندفع هذان الجاهلان مرة أخرى ومعهما اتباعهما إلى الصحراء ووقفوا يقاتلون عراة دون سلاح، وقتل هذا الشقيان الضالان بانطلاق أول سهم فى المعركة، وقتل فى هذه المرة ما يقرب من عشرين ألفا، وفى اليوم الثانى وبعد أن شق مبارزو الصباح فرق الليل ساقوا الخلائق من رجال ونساء إلى الصحراء، وحمى المغول أسنان التشفى والانتقام، وفتحوا فم الحرص قائلين: سنوجه الضربات ونحقق أمانينا ورغباتنا، وسنجعل الخلائق حطبا لتنور البلاء، وسنأخذ أموالهم وأولادهم غنيمة.

إلا أن الفضل الرباني واللطف الإلهى قد وضع حدا لتلك الفتنة على يد شفقة محمود كما يتجلى من اسمه، وأحال طالع تلك المدينة إلى السعادة مرة ثانية، فلما وصل إليهم منعهم من القتل والنهب، قائلا: كيف يمكن قتل الآلاف من الناس بسبب بعض المفسدين؟ وكيف يمكن تخريب وإبادة مدينة بذلت الكثير من الجهود حتى تستعيد رونقها وبهجتها بذنب جاهل أحمق؟ وبعد إلحاح وجدال ومبالغة وافق على عرض الأمر على حضرة القا آن، وأن ينفذوا الأمر على النحو الذى يصدره، ثم أرسل السفراء بعد ذلك إلى الإمبراطور، وسعى سعيا بليغا حتى تجاوز عن هذه الزلة، التى كان من المستحيل التجاوز عنها، وأبقى على حياتهم، ونتيجة لاجتهاده هذا فقد اكتسب المدح والثناء.

ذكر الاستيلاء على سمرقند

أعظم بقاع مملكة السلطان، تتميز باتساع الرقعة، وهى أجمل الربـــاع وأطيب البقاع وأطهر وأجمل جنات الدنيا، وهى بالإجماع واحدة من الجنان الأربع:

إن قيل فى الدنيا ترى جنـــة فجنـــة الـــدنيا ســـمَرْقَندُ

يا من يوازى أرض بلخ بها هل يستوى الحنظل والقند؟!

يميل هواؤها إلى الاعتدال، ويشتمل ماؤها لطف ريح الشمال، وتتميز تربتها بالخصب الشديد، وقد حصل لترابها من قوة إصرابها خاصـــية نـــار الخمر:

أرض حصاها جوهر وترابهـــا مسك وماء المد فيها قرقف

وحينما عاد السلطان من المعركة سقط نقاب السكون من يده وتحولت جاذبة القرار إلى فرار واستولت عليه الحيرة واستقرت فى أعماقه وزاغــت منه الأبصار، وعهد بالمحافظة على البلاد والأمصار إلى قواده وأنـــصاره، ومن ذلك أنه قد خصص لحماية سمرقند مائة وعشرة آلاف رجل، كان مـــن بينهم ستون ألفا من الأتراك مع خاناتهم الذين كانوا وجوه أعيان الـــسلطان، الذين لم يكن أمام إسفنديار العظيم رغم ضخامة جثته – إذ رأى مـــن جيلـــه سهامهم وسنان حرابهم – إلا أن يقر بعجزه وقلة حيلتـــه، وطلـــب الأمـــان والاستسلام، وخمسون ألفا من التازيك الشجعان الذين كان كل واحد منهم فى نفسه رستم الوقت، وقائدا للجيوش، وكان معهم عشرون من الفيلـــة، قويـــة البنيان كأنها جان وشيطان:

يقلِّبنَ أســاطينَ ويلعبن بثعبــان
عليهن تجافيف يسهرن بألوان[١]

وكان لفرسان السلطان ومشاته على ساحة المعركة وزير للمحافظة عليهم ولم يولوا وجوههم عن القيام بالهجوم وشن العديد من الصولات والجولات على الرغم من أن عدد المواطنين بالمدينة يفوق الحصر والعد، وعلى الرغم من هذا كله فقد أحكموا تقوية القلعة ووسائل الدفاع عنها، فأقاموا حولها الكثير من الجُدُر والمتاريس والاستحكامات الخارجية وتطاولوا فى بنيان الفصيل حتى بلغت الثريا وعمقوا فى حفر الخندق أسفل طبقات الأرض حتى نبع الماء.

وحينما وصل جنكيز خان إلى أترار كان خبر استحكام القلعة وكثرة جند سمرقند الغفيرة قد طبق الآفاق والأقطار، وكان كل شخص يظن أنه يلزم العديد من السنين للاستيلاء على المدينة، فكيف يصل إلى القلعة مع ما يقال عنها؟ فرأى أنه من الأصلح والأفضل الالتزام بالحذر والحيطة، ورأى أن يطهروا المناطق المحيطة بها ثم يتوجه إليها بعد هذا.

فتوجه إلى بخارى فى البداية، وبعد أن فرغ من أمر الاستيلاء عليها وهدأ باله من ناحيتها مال إلى القضاء على سمرقند فلوى العنان ميمما وجهه نحوها وساق من هناك جيشا أماميا، ولم يتعرض بأى أذى للقرى التى صادفته وأعلنت الاستسلام له والانقياد لسلطانه، وترك جيشا لمحاصرة القرى التى عصته ولم تستسلم له مثل سربل وديوسيه. ولم يتوقف بنفسه على الإطلاق حتى وصل إلى سمرقند ولحق به أبناؤه بعد أن فرغوا من أمر الاستيلاء على أترار، واختاروا كوك سراى مقرا ومخيَّما لجنكيز خان، وكلما وصلت الجنود الأخرى عسكروا بدورهم حول المدينة.

(١) من قصيدة لبديع الزمان الهمذانى فى مدح السلطان محمود الغزنوى . القزوينى، الحاشية رقم ٩١.

طاف جنكيز خان بنفسه يوما أو يومين فاحصا ومدققا النظر فى السور والجدر الداخلية والبوابة، وأعفى الجند وأراحهم من القتال والنزال وأرسل جبه وسبوتاى اللذين كانا من كبار قواده وأكفأهم مع ثلاثين ألفا من الرجال لمطاردة السلطان وتعقبه، وأرسل وغداق نوين يسور إلى وخش والطالقان، حتى إذا ما حل اليوم الثالث وارتفعت شعلة الشمس بنورها بين ظلمة دخان الليل الحالك الظلام، انزوى الليل الأسود فى زاوية النسيان، أحاط بالمدينة عدد كبير من جنود المغول والمرتزقة الذين يزيد عددهم عن رمال الصحراء وقطرات المطر فخرج من المدينة البار خان وشيخ خان وبالا خان وبعض الخانات الآخرين ووقفوا فى مواجهة حشم السلطان فاتح العالم، وتبادل الفريقان رمى السهام فقتل من الجانبين الكثير من الفرسان والمشاة وأظهر أتراك السلطان الكثير من الكر والفر فى هذا اليوم، وضوء المصباح يضوى قليلا ثم يخفت قبل انطفائه، وقتلوا من جيش المغول خلقا كثيرا وأسروا بعضهم الآخر، وحملوهم إلى المدينة وسقط منهم كذلك ألف من الرجال حتى إذا حل وقت اختفت فيه نار السماء وتلاشت بين دخان الأرض ولى كل واحد وجهه شطر مقره .

ولما حان الوقت الذى قذف فيه حامل الدرع المكار بسيفه قمر الليل، ركب جنكيز خان بنفسه وامتطى صهوة جواده ولف الجيش حول المدينة وأداره حول مدارها واستعدت القوات من الداخل والخارج للقتال، واستمرت رحى الحرب دائرة حتى صلاة العشاء، وطارت السهام والحجارة من قذف المنجنيق والأقواس واحتلت جيوش المغول مواقع مهمة على البوابات، ومنعوا جيش السلطان من الخروج إلى ساحة المعركة، وأضحى طريق النزال والحرب مسدودا أمامهم، واختلط الفريقان على بساط الحرب ولم يعد هناك مجال لخيالة السلطان ليصولوا بخيلهم فى ميدان النزال والكر والفر، وكلما ألقوا الفيلة لم يول المغول وجوههم، بل العكس من ذلك قد تمكنوا من فتح وتحرير حاميتهم (قرزين بند) بجرح سهامهم، فعمت الفوضى فى صفوف المشاة، وحينما جرحت أفيال القبول ولم تعد قادرة على مواجهة مشاة

الشطرنج عادوا وقد دهموا كثيرا من الناس تحت حافرهم، حتى إذا ما أسدل سلطان ختن النهار على وجهه أغلقوا البوابات، وخاف أرباب سمرقند مما جرى فى حرب هذا اليوم واختلفت أهواؤهم وتنوعت أهواؤهم تجاهه فرغب بعضهم فى إظهار الاستسلام والانقياد بينما خاف آخرون على أرواحهم، وبينما حال القضاء السماوى بين طائفة والصلح، رغب آخرون فى الإذعان له والابتعاد عن القتال. وأخيرا وفى اليوم التالى بسطت الشمس المشرقة شعاعها وعظمتها وألقى غراب الفلك الأسود ريشه، وكان جيش المغول أكثر شجاعة وإقداما وأهالى سمرقند مترددين فى الرأى والتدبير، إلا أنهم نزعوا فكرة الحرب من رءوسهم وكفوا عن ذلك أيديهم، وبادر القاضى شيخ الإسلام مع قوم آخرين من أصحاب العمائم بالتوجه إلى بلاط جنكيز خان حيث اطمأنوا وتشجعوا بعظيم وعوده.

ودخلوا المدينة مرة أخرى بتصريح منه وفتحوا بوابة المصلى وقت الصلاة وأوصدوا باب العناد، ودخل جيش المغول وعملوا طوال اليوم بتخريب المدينة والحائط الداخلى للقلعة (الفصيل) وابتعد أهالى المدينة عن التحرش بهم إيثارا للسلامة والأمان فلم يؤذهم المغول أو يتعرضوا لهم بالإيذاء.

حتى إذا ما انتهى النهار وتدثر بلباس الختائيين الأسود أشعلوا المشاعل واستمروا فى مشاغلهم وأعمالهم حتى ساووا الجدر بالأرض وعبَّدوا ممرا فى كل مكان للمشاة والفرسان.

فلما حل اليوم الثالث عبس الدهر لهم، وقطب جبينه أمام المرآة، فهو مخادع عديم الشفقة، أسود القلب أزرق الوجه، ودخل غالبية المغول إلى داخل المدينة وساقوا الرجال والنساء مائة أثر أخرى فى مصاحبة المغول إلى الصحراء ولم يعفوا من الخروج سوى القاضى وشيخ الإسلام وأقاربهم أو من كانوا بجوارهم ولاذوا بهم، وكان عدد من بقى تحت حمايتم يزيد عن خمسين ألفا من الناس، ثم نادى المنادى بأن أى شخص قد طلب الأمان

مختفيا فى زوايا الاختفاء دمه باطل وإهراقه مباح، ثم أعمل المغول والجنود السلب والنهب والإغارة، وقتل كثير من الناس الذين كانوا قد تحصنوا فى المغارات والجحور وأحضر أفيالهم إلى جنكيز خان طالبين علفا لها فسألهم عن طعامها قبل أن تقع فى أيدى الرجال والأسر فقالوا أعشاب الصحراء، فأصدر أمره إليهم قائلا اتركوها تضرب فى الأرض ترعى لنفسها وتبحث عن طعامها، فأصابها الهزال وضعفت ثم هلكت جوعا، فلما هبط ملك الأفلاك على الكرة الأرضية خرج المغول من المدينة وأهالى القلعة خائفون وجلون قد انشقت قلوبهم هلعا وخوفا لم يستقروا على قرار ولم يولوا الأدبار، فتشجع ألب خان مفرطا فى روحه وخرج هو وألف من الرجال الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم وانطلق وسط الجيش المغولى حتى التحق بالسلطان، وفى صباح اليوم التالى حينما طلع رسل إله النجوم السيارة مطلعين سهامهم أحاط جيش المغول بالقلعة وبدأ الضرب وقذف السهام والحجارة.

فحطموا فصيل القلعة وجدارها، وخربوا نهر أرزير، واستولوا بين الصلاتين على البوابة ودخلوا القلعة، ولجأ ألف من الرجال الأبطال إلى المسجد الجامع وتحصنوا به وخاضوا معهم معركة عنيفة مستخدمين النفط والسهام الدائرية، واستخدم جيش جنكيز قوارير النفط كذلك حتى أضحى المسجد الجامع وكل من بداخله هشيما تذروه الرياح، وصاروا وقودا لنار الدنيا، وطهورا بماء العقبى، فساقوا كل شخص بقى حيا بالقلعة إلى الصحراء وفصلوا الأتراك عن التازيك، وقسموهم جميعا إلى عشرات ومئات وحلقوا للأتراك شعورهم من مفرق الرأس كما يفعل المغول حتى يبعثوا فى أنفسهم الهدوء والاطمئنان وحتى يزيلوا ما بهم من خوف، إلا أن نهار حياتهم قد زال بزوال شمس الغروب.

وفى مساء ذلك اليوم، أضحى كل رجل من رجال قنقل غريقا فى بحر البوار، حريقا لنار الدمار، وكانوا ما يزيد عن ثلاثين ألفا من القنقل والترك يتقدمهم برشماس خان وتغاى خان وسرسغ خان وأولاغ خان مع ما يزيد عن

العشرين من كبار أمراء السلطان الذين أثبتت أسماؤهم فى المنشور الذى كتبه جنكيز خان إلى ركن الدين كرت، وقد فصلت فى هذا المنشور أسماء جميع أمراء الجيش والولايات التى استولى عليها وضربها، فلما أضحت المدينة والقلعة خرابا يبابا تواجه الواحدة منها الأخرى وتجرع الجنود والأمراء والأهالى الكثير من كئوس الهلاك والفناء، وفى اليوم التالى وحينما رفع العقاب الذى هو جمشيد الأفلاك رأسه خلف قمم جبال الأرض وأضحى قرص الشمس مضيئا فى كبد السماء، أحصى من نجا وهرب من الخلائق من حد سيوفهم، واختار منهم ثلاثين ألفا من الصناع والعمال.

وقسمهم على الأبناء والأقارب، واختار من الشباب والأبطال مثل هذا العدد للجيش الأمامى، وأما الآخرون الذين سمح لهم بالعودة، فقد وجه إليهم الشكر لأنهم لم ينالوا درجة الشهادة وبقوا فى زمرة الأحياء، وحكم على من تحصنوا بالقلاع بمائتى ألف دينار وعين ثقة الملك والأمير عميد بزرك اللذين كانا من كبار أصحاب المناصب فى سمرقند لتحصيلها، وعين عددا من الناس شحنة لهم فى ذلك المكان، ورافقه بعض جنود الجيش الأمامى إلى خراسان وأرسل آخرين مع أبنائه إلى خوارزم، وكانوا يطلبون بعد ذلك كثيرا من الجنود على فترات متعاقبة، ولم يسمح لأى شخص من أفراد الجيش الأمامى بالخروج منه، ولهذا السبب أصاب البلاد خراب كلى، وأضحت خرابا. وكانت هذه الواقعة فى ربيع الأول سنة ثمانى عشرة وستمائة، فأين أصحاب البصائر لينظروا بعين التفكير والاعتبار فى حركات هذا الزمان الذى امتلأ شعوذة ودجلا ومداهنة وجفاء، وحتى يروا جفاء هذا الفلك الدائر الذى لا نفع فيه، وحتى يعلموا أن نسيمه ليس متوازيا ومعادلا لسمومه وأن نفعه ليس محاذيا ضره، خمره ساعة وخماره على الدوام، ربحه ريح وكنزه تعب وبلاء.

أيها القلب لا تجزع	فهذه الدنيا زائفة
أيتها الروح لا تحزنى	فهذه السراى ليست خالدة

ذكر واقعة خوارزم

وهذا هو اسم الناحية واسمها الأصلى جرجانية، يسميها أربابها وسكانها أوركنج، وكان لها قبل تقلب الأيام والدهور حكم "بلدة طيبة ورب غفور"، وكانت مقرا لسلاطين العالم، ومستقرا لمشاهير بنى آدم، احتوت أكنافها أشراف الدهر، وصارت أطرافها ظروفا لطرائف الزمان تضىء مغانيها بأنوار المعانى، وتزدان رباعها وبقاعها بآثار أصحاب الأقدار، فأضحت حديقة غناء.

وأضحت مجمعا للمشايخ الكبار وسلاطين الزمان فى بقعة واحدة لها حكم القول: بها ما شئت من دين ودنيا

خوارزم عندى خير البلاد فلا أقلعت سُحُبُها المغدقة[1]
فطوبى لوجه امرئ صبَّحَتـ ـهُ أوجه فتيانها المشرقة

وحينما فرغ جنكيز خان من الاستيلاء على سمرقند، تمت له بذلك السيطرة على جميع بلاد ما وراء النهر. وتم له سحق المخالفين والمعارضين فى بوتقة الدمار وطواحين البلاء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت حدود جند ويار جليغ كنت آمنة محاطة بسياج من الأمن والأمان، وبهذا بقيت خوارزم بين البلاد كخيمة اقتلعت أوتادها، ومزقت أطنابها.

وحينما أراد جنكيز أن يتوجه بنفسه لتعقب السلطان والقضاء عليه، وأن يطهر ممالك خراسان من المعارضين والمخالفين، اختار ابنيه الكبيرين چغتاى وأوكتاى للاستيلاء على خوارزم، وجهزهما بجيش كثيف كحوادث الزمان، فامتلأت بهم الجبال والوديان، وأمر توشى أن يمدهم من ناحية جند بجيش آخر، فسارا عن طريق بخارى، وأرسلا فى مقدمتهم جيشا استطلاعيا يندفع كالقضاء السيئ ويومض كالبرق الخاطف.

---

(١) البنيان لابن عنين (ياقوت مادة خوارزم).

كانت خوارزم آنذاك خالية من السلاطين، وكان بها خمار التركـــى[1] الذى كان من كبار قادة الجيش ، ومن أقرباء تركان خاتون. وتخلف هنـــاك أيضا من أعيان الأمراء مغول حاجب وأربوقا بهلوان، والقائد سبهسالار على دروغينى[2] وجمع آخر من الأمراء الذين يصبح تعدادهم وتفصيل أســمائهم تطويلا لا طائل له.

وكان بالمدينة من العظماء وأفاضل الدهر ما لا يعد ولا يحصى، وكان عدد السكان بها يزيد عن حبات الرمال والحصى عددا، ونظرا إلى أنه لـــم يكن هناك وسط هذا السواد الأعظم والبحر المتلاطم من البشر ســيد وقائـــد يرجعون إليه إذا ما ألمت بهم حوادث الزمان يكفيهم مــصالحهم، ويرعـــى شئونهم، يقاومون بقيادته وإرشاده نوائب الدهر وحوادث الأيام، لهذا كله فقد عينوا خمار سيدا عليهم لما يتمتع به من صلة قرابة ووشائج قربى وجعلـــوا منه "سلطان نوروزى"، وكانوا غافلين عما يمــوج بـــه العـــالم مـــن فتنـــة واضطراب، وما أصاب الخاصة والعامة من الناس من دمار وهلاك.

وفجأة رأوا عددا ضئيلا من الفرسان يمضى على هيئة دخان، يسوقون الماشية حتى وصلوا إلى بوابة المدينة، ففرح بعض قصار النظر، وظنوا أنهم قد أتوا فى هذا العدد القليل حماقة وغرورًا وأنهم ارتكبوا هذه الحماقات لعبـــا ولهوا، ولم يعلموا أن وراءهم الكثير من البلايا وأن خلف هذه العقبة عقبات، وفى عقب هذا عذابا شديدا، فاتجه خلق كثير مـــن النـــاس مـــشاة وفرســـانا مندفعين عن طريق البوابة صوب هذا العدد القليل، بينما المغـــول كالـــصيد الوحشى، حينًا يخافون ويفزعون وحينًا يحدقون إليهم بنظراتهم ثم يجـــرون ويفرون، حتى إذا ما وصلوا إلى باغ خرم التى تبعد عن المدينـــة بفرســـخ واحد، أسرع فرسان التتار والرجال الشجعان وانطلقوا من مكامنهم وسيطروا على الطريق من الخلف والأمام وأطبقوا عليهم من كل جانب، وأمعنوا فيهم قتلا وتدميرا، كذئاب جائعة انقضت وسط قطيع من الخراف لا راعـــى لـــه،

---

(١) ويروى "خمارتكين".

(٢) سمى الدروغينى لشدة كذبه، فكلمه دروغ فى الفارسية تعنى الكذب.

فقذفوهم بالسهام الطائرة فى البداية ثم أحكموا تصويب السيوف والحراب إليهم وساقوهم أمامهم حتى أسقطوا منهم حتى زوال النهار ما يقرب من مائة ألف من الرجال الأشداء، وتعقبوهم فى أثناء هذا الاضطراب والهيجان فى صياح ونفير حتى دخلوا المدينة من بوابة قابيلان.

وانطلقوا مسرعين كالنار حتى وصلوا موضعا يقال له تتورة، وحين مالت الشمس للغروب انسحب الجيش الأجنبى ملتزما جانب الحزم والحرص، وفى اليوم التالى حينما أطلت الشمس بوجهها من مكمن الأفق وغار ضاربو السيوف الشجعان الأتراك الفتّاك الذين لا يخافون شيئا، اصطفوا فى مواكب كثيرة وولوا وجوههم شطر المدينة، حيث كان فى انتظارهم فريدون غورى الذى كان واحدا من قادة السلطان، مع خمسمائة شخص من الأبطال على بوابة المدينة مستعدا للقتال والدفاع، وحالوا بين هؤلاء الرجوم والهجوم، واستمروا حتى نهاية اليوم فى صراع وقراع.

وبعد ذلك وصل جغتاى وأوكتاى مع جيش كثيف كالسيل فى انحداره وكالرياح والعواصف فى سرعتها وزمجرتها، ومن باب الاستطلاع والرؤية طافوا حول المدينة وأرسلوا الرسل داعين الأهالى إلى الاستسلام والطاعة، وحينما أحاط الجيش كله حول المدينة كما تحيط الدائرة بالمركز ونزلوا حولها وأحاطوها بقواتهم وأبقوا عليها كالأجل اشتغلوا بترتيب وإعداد آلات الحرب من أخشاب ومنجنيق وحجارة، ونظرا إلى أنه لم يكن بجوار خوارزم حجارة فقد قطعوا أشجار التوت وجعلوها كالحجارة، وكعادتهم وما هو مألوف لديهم فقد شغلوا الأهالى يوما بعد آخر بالوعد والوعيد والإيناس والتهديد، وكانوا يتبادلون قذف بعض السهام أحيانا حتى إذا تم ما يلزم الحرب من تمهيد وإعداد للآلات وغيرها ولحق بهم الجند والأعوان، من نواحى جند وما سواها هجموا على المدينة من جميع أطرافها دفعة واحدة كالبرق الخاطف صائحين مزمجرين وصبوا عليها وابلا من السهام والحجارة وأصدروا أوامرهم فجمع الجند الحشائش وقطعوا الأخشاب وملأوا الخندق بالماء، ثم حركوا المرتزقة فى حلقة دائرية لتقويض الجدار الداخلى من أساسه.

وعلا التراب حتى بلغ عين الأفلاك، وحين أضحى السلطان لا وجود له وقائد الجيش خمار ثملا بشراب الإدبار، كما قال الله تعالى "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون"[1] وشاهد نكالهم وسوء أفعالهم ازداد به الخوف والجزع وانشقً قلبه نصفين لشدة ما أصابه وطابقت علامات انتصار التتار ظنه الخفى فانعدمت الحيلة فى جبلته واختفى عنه، مع ظهور التقدير الخفى، صواب الرأى والتدبير، فهبط من البوابة إلى أسفل الوادى، ونتيجة لما أصاب الأهالى وسرى بين أوصالهم من تشتت وتمزق فقد رفع جيش التتار العلم أعلى الحائط، وصعد المحاربون أعلى القلعة وانطلقوا فى جوف الأرض فزلزلت مع أصواتهم وصياحهم وصراخهم، وتحصن أهل المدينة فى الدروب والمحلات وقاتلوهم فى كل درب من الدروب وقاوموهم فى كل مكان، وأحرق الجيش المغولى بقوارير النفط دورهم ومحلاتهم والتحم الخلائق بعضهم ببعض برمى السهام وقذف المنجنيق، فلما جن الليل واختفى أمام ظلمته رداء نور الشمس ارتدوا إلى خيامهم، واستمر الأهالى فى حربهم كل صباح على هذا المنوال ردحا من الزمان، وحاربوهم فيها بالسهام والسيوف والأعلام، حتى أصبح جزء كبير من المدينة خرابا يبابا وأضحت أماكنهم ومساكنهم مع أموالهم ودمائهم تلا من التراب كثيبا مهيلا، وأصاب الجيش المغولى اليأس والقنوط لعدم انتفاعهم بذخائر الأموال فاتفقوا على أن يتركوها تلتهمها النيران ومنعوا عنهم ماء النهر الذى كانوا شيدوا جسرا فوقه وسط المدينة، وعسكر ثلاثة آلاف من الجنود المغول فوق هذا الجسر مستعدين للقتال متأهبين له فحاصرهم أهالى المدينة فى هذا المكان وأوقعوهم فى فخهم وشركهم حتى إنه لم يعد لأحد منهم القدرة على العودة. وقد دفع هذا الموقف

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٧٢.

الأهالى إلى مزيد من الجهد فى العمل فأصبحوا أكثر صبرا على القتال والنضال وصارت آلات الحرب وأسلحتها أكثر هيجانا من الخارج حتى تلاطمت أمواج بحر الحرب واشتد صخبها، وثارت رياح الفتنة فى الأرض والسماء، ثم استولى المغول على المدينة حيًا حيًا، وبيتًا بيتًا، وهدموها وقتلوا جميع الخلق بها حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها بتمامها، وعندئذ ساقوا الأهالى إلى الصحراء وفصلوا عنهم ما يزيد عن مائة ألف كانوا من الحرفيين والصناع.

وأخذوا الأطفال والفتيات وأسروهم وقسموا باقى الرجال على الجيش فقتل كل واحد من الجنود المقاتلين أربعة وعشرين من الرجال. قال الله تعالى: " فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور"[١]. واشتغل الجيش بالنهب والسلب والإغارة وخربوا ما بقى من البيوت والمحلات، وخوارزم التى كانت مركزا لرجال الحرب ومجمعا لنساء الاجتماعات والندوات والتى أحنت لها الأيام رقابها على أعشابها والتى كانت كنة لطائر السعادة، أصبحت بعد هذا كله مأوى لابن آوى ومرتعا للبوم والغربان وهجرت السعادة الديار التى كانت تظللها وترفرف عليها وأصاب الخراب قصورها، وذبلت جناتها وتغيرت أحوالها حتى أصبحت ينطبق عليها الآية "وبدلناهم بجنتيهم جنتين"[٢] وأصبحت كما لو أن هذه الآية قد نزلت بشأنها، وقد أثبت علم كل ما هو آت على إيوانها وبساتينها ومتنزّهاتها هذه الأبيات:

---

(١) جزء من الآية الكريمة "فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور" سورة سبأ، الآية ١٩.

(٢) سورة سبأ الآية: ١٦.

رب ركب قد أناخوا حولنـــا   يمزجون الخمر بالماء الزلال

ثم أضحوا عصف الدهر بهم   وكذاك الدهر حال بعد حال[١]

والخلاصة أنهم حينما فرغوا من حرب خوارزم سلكوا ســبيل الــسلب والنهب والسبى والقتل والسفك، وقسموا أرباب الحرف والصناعات وأرسلوهم إلى البلاد الشرقية، وتوجد الآن مواضع كثيرة فى تلك المناطق عمرها ســكان خوارزم وازداد نسلهم بها، وعاد الأميران جغتاى وأوكتاى عن طريق كاسف، واستولوا عليها وألحقوها بخوارزم خلال يوم أو يومين، ولقد سمعت عن كثرة عدد القتلى الذين سقطوا فى أعمال المقاومة والقتال بما يعادل خوارزم حــذو النَّعل، بالنَّعل حتى إن ما سمعته لم أصدقه، ولم أكتب عنه شيئا، اللهم عافنا من كل بلاء الدنيا وعذاب الآخرة.

(١) البيتان لعدى بن زيد (الأغانى : ١٨/٢) مع اختلاف فى الرواية.

تحرك جنكيز خان إلى نخشب[١] وترمذ

حينما تم الاستيلاء على سمرقند أرسل ابنيه جغتاى وأوكتاى إلى خوارزم، وأمضى ربيع ذلك العام بجوار سمرقند ثم تركها إلى حدائق نخشب، وحينما انتهى الصيف وبلغ نهايته وسمنت الحيوانات واستراح الجند سار إلى ترمذ، فلما وصل إلى هناك أرسل الرسل إلى أهلها داعيا إلى الاستسلام والطاعة وتخريب القلعة، إلا أن المواطنين أعرضوا وتحصنوا بالقلعة الحصينة. كانوا قد أقاموا نصف سورها وسط النهر، وأصابهم الغرورو لما عندهم من رجال وعتاد، فلم يقبلوا بالاستسلام أو الطاعة وأقدموا على الكفاح والحرب وتبودلت رماية المنجنيق من الجانبين، ولم يستريحوا من الحرب والنزال ليلا أو نهارا حتى تمكنوا من فتحها قسرا وقهرا فى اليوم الحادى عشر وساقوا إلى الصحراء كل من كان فيها من الخلق رجالا كانوا أو نساء. وقسموهم على الجند كعادتهم حسب عدد الأهالى فقتلوهم جميعا ولم يتركوا أحدًا حيا، وفى الوقت الذى فرغوا فيه من ذلك شاهدوا امرأة قالت لهم: أبقوا على حياتى حتى أعطيكم ما معي من لآلئ قيمة. فلما طالبوها بالآلئ قالت: لقد ابتلعتها. فبقروا بطنها وأخرجوا ما بأحشائها من حبات اللؤلؤ. لهذا السبب بقروا بطون القتلى امتثالا لأمره. فلما فرغوا من النهب والقتل ذهب ناحية كنكرت[٢] وحدود سمان وأمضى الشتاء حتى نهايته فى تلك المنطقة وطهر تلك النواحى كذلك بالقتل والقلع والحرق وأرسل الجيوش إلى منطقة بدحشا وما يجاورها من حدود وبلاد فاستسلم بعضها باللطف والحيلة واستخلص أكثرها عنفا وقسرا.

وهكذا لم يبق فى هذه المنطقة أى أثر للمخالفين والمعارضين، وحين انتهى فصل الشتاء تركها وكان هذا فى شهور سنة ٦١٧هـ[٣].

---

(١) موجودة الآن فى أوزبكستان باسم "كرشى".
(٢) تقع "كنكرت" فى تاجيكستان وكذلك "سمان" وتدعى اليوم "ستالين آباد" جنوب روسيا.
(٣) هنا تناقض واضح مع ما قاله صفحة ٩٦ ، فقد قال إن فتح سمرقند قد تم عام ٦١٨هـ ثم قال فى بداية هذا الفصل إنه توجه لفتح نخشب وترمذ بعد أن سيطر على سمرقند ، فكيف يمكن التوفيق بين الاثنين؟ لا بد أن ما ذكره عن فتح نخشب خطأ وأن الصواب هو عام ٦١٨ وليس ٦١٧هـ. ويقول القزوينى إن رشيد الدين ذكر أن فتح نخشب حدث فى بداية خريف عام الثعبان (سال موغاى نشيل) وأن هذه الفترة تقابل شهور شعبان ورمضان وشوال من عام ٦١٨هـ. جامع التواريخ جـ ٣ ص ١١١- ١٧٣.

ذكر عبور جنكيز خان طريق ترمذ والاستيلاء على بلخ

تميزت بلخ عن سائر البقاع الأخرى بكثرة الغلال وأعلاها ارتفاعا وفضائل أخرى، وكانت أراضيها أكثر اتساعا وامتدادا من الأراضى الأخرى، وكانت بلخ تنعم فى القرون السابقة بين البلاد الشرقية بما تنعم به مكة فى الطرف الغربى من مكانة. يقول الفردوسى:

لقد اختار بلخ معبدا للزرادشتية حيث كانت طقوس العبادة تجرى فى ذلك الزمان، وقد نعم ذلك المكان بالمنزلة التى تنعم بها مكة بين العرب فى هذا الزمان.

وعبر جنكيز خان النهر متوجها إلى بلخ فقابله رؤساء المدينة معلنين الانقياد والاستسلام حاملين الكثير من الهدايا والمؤن والطعام "ترغو"، وبعد ذلك ومتعللا بضرورة إجراء إحصاء أصدر أمرا بخروج من كانوا فى بلخ فخرجوا جميعا عن بكرة أبيهم وأحصوهم عددا.

فى إثر ذلك ونظرا إلى أن السلطان جلال الدين كان لا يزال يثير الفتن والاضطراب فى كل الأنحاء آنذاك ويعدو بالجواد فى ميدان العناد واللجاج فلم يعتمد على أقوال رؤساء المدينة وما أبدوه من استسلام وطاعة وبخاصة فى منطقة خراسان، ولأن بحر فناء البلاد والعباد كان لا يزال مصطخبا ولم يصل طوفان البلاء إلى نهايته فلم يكن فى الإمكان دفعه بأية حيلة، ولأنه قد حم القضاء ووقع البلاء لم يفد الاستسلام ولم يستطيعوا تأمين وحماية ظهورهم على الرغم مما أعلنوه من انقياد وإذلال، وكان عصيانه سمًّا قاتلا ومرضا لا دواء له.

ولهذا أمره جنكيز خان بإخراج جميع أهالى بلخ صغيرا أو كبيرا قليلا أو كثيرا رجالا أو نساء إلى الصحراء، ووفقا للعادة المألوفة فقد قسموهم إلى مئات وألوف حتى يعملوا فيهم السيوف قتلا فلم يتركوا أثرا لأخضر أو يابس وتركوهم مرتعا للوحوش تنعم فى التهام لحومهم ردحا طويلا من الزمان فشبعوا وتآلفت السباع مع الذئاب ولازمت النسور الصقور دون خلاف أو نفور.

كُلية وجرِّيه جَعار وأبشِرى   بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره

وأضرموا النار فى حديقة المدينة وكرسوا جهودهم حتى خربوا الفصيل والسور والدور والقصور، قال الله تعالى: "وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا" [(١)].

وحينما عاد جنكيز خان من بيشاور ووصل إلى حدود بلخ رأى جماعة من المشردين الهاربين الذين كانوا قد اختفوا إبان الغارة فى الزوايا والجحور ثم خرجوا فأمر بقتلهم جميعا، وطبق عليهم حكم الآية الكريمة "سنعذبهم مرتين"[(٢)]، فهدموا كل جدار لا يزال قائما ومحوا آثار العمران والحضارة فى تلك البقعة وتركوها قاعا صفصفا:

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٨ ، جامع التواريخ جـ ٣ ص١١١- ١٧٣.

(٢) جزء من الآية الكريمة ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ سورة التوبة آية: ١٠١.

وتبكى دورهم أبدا عليهم وكانت مألقا للعز حينا

وقفنا معجبين بها إلى أن وقفنا عندها متعجبينا[١]

وحينما فرغ من أمر القتال فى بلخ، عين ابنه تولى مع جيش كثيف للاستيلاء على بلاد خراسان، وتوجه بنفسه إلى الطالقان، وكانت قلعتها تعرف باسم "نصرت كوه" وكانت محصنة غاية التحصن تضم بين أطرافها رجالا أشداء وشجعانا أقوياء مستعدين للنزال والقتال بغية نيل الشهرة وعلو المقام، وكلما أرسل السفراء والرسل إلى تلك الجماعة داعيا إياهم إلى الاستسلام والطاعة أعرضوا ولم يرضوا إلا بالقتال والنزال، فأحاط المغول بالقلعة من كل جانب، وأخذوا فى قصفها بالمنجنيق، ولم يكفوا عن الحركة والضرب، وفى الوقت نفسه لم يستسلم أرباب القلعة ورجالها ولم يكفوا عن النضال والكفاح ولم يغفلوا أو يستريحوا، وجرى بين الجانبين قتال عنيف وحرب مخيفة سقط فيها من الطرفين الكثير من القتلى والعديد من الجرحى، واستمروا يقاومون على هذا المنوال مدة من الزمان حتى تم لـ "تولى" الاستيلاء على خراسان وأسلمت له قيادها فعاد لتوه من هناك مع جيش غفير فازدادوا عددا وكثر جمعهم وفتحوا الطاقان جبرا وقسرا وأبادوا من فيها وما فيها، ولم يتركوا بها أثرا لكائن حى، وخربوا القلعة وجدرها وحطموا الدور والقصور.

وفجأة وصل خبر يفيد بانتصار السلطان جلال الدين على تكجوك وأنه قد أحرز نصرا كبيرا عليه واستولى على جيش كان معه، فأسرع جنكيز الخطى متجها إليه وسلك طريق كرزوان، إلا أنه لم يتمكن من مواصلة السير بسهولة لما لقيه من أهالى تلك الناحية من عناد ومقاومة أخرته شهرا حتى استولى عليها وسقاهم مرغمين شرابا وبيلا من قتل ونهب وتخريب جزاء لما قدموا، ثم رحلوا عن هذا المكان ووصلوا إلى باميان فقاومهم الأهالى بها وتبادل الجمعان ضرب المنجنيق والقسى والسهام.

---

(١) البيتان لأبى بكر عبد الله اللاسكى فى رثاء الدولة السامانية (تتمه اليتيمة - مخطوطة) [حاشية الدكتور محمد التونجى].

وفجأة حُمَّ القضاء وانطلق من داخل المدينة قائل حكم بالقضاء التام على جميع المواطنين، فقد أصاب واحدا من أبناء جغتاى وكان أحب أحفاد جنكيز خان إليه، فعجلوا بالاستيلاء عليها، ولما تم لهم فتحها أصدر أمرا بقتل جميع الأحياء فيها من بنى آدم أو من الحيوانات، ولم يأخذوا منهم أسرى حتى إنهم لم يتركوا الأجنة فى بطون أمهاتهم، ولم يسكن هذه المدينة أى مخلوق بعد هذا، ولم يعمر هذا المكان على الإطلاق، وأطلقوا عليها اسم ماووباليغ، وتعنى باللغة الفارسية القرية السيئة. ولم يقطن هذا المكان أحد حتى الآن، وكانت هذه الحادثة فى أوائل شهور سنة ثمانى عشرة وستمائة.

ذكر توجه جنكيز خان لحرب السلطان

عين جنكيز خان وهو بالطالقان تكجوك وعددا آخر من أمراء الجيش للقضاء على السلطان جلال الدين، إلا أن السلطان كان قد قوى جانبه بانضمام أغراق[1] وغيره من الأبطال إليه، فاستولى على الجيش الذى اختاره جنكيز خان لمحاربته وساعده على ذلك قلة عدد الجيش وقصور وسائل إمداده، فلما علم جنكيز خان بهذا النبأ أصابته الدهشة وغشيه الحزن، فظن النهار ليلا – فى عجلة من أمره – وحسب الليل نهارا، وعبر طريقين وعرينا فى مدة وجيزة لا تكفى لإنضاج طعام نيِّئ.

وفى الوقت الذى وصل فيه جنكيز خان إلى غزنة أخبر بأن جلال الدين غادرها منذ خمسة عشر يوما قاصدا عبور نهر السند، فعين ماما يلواج نائبا عنه شحنة على غزنة، وانطلق فى أثر السلطان جلال الدين كالرياح تسوق سحابا، حتى لحق به على شاطئ نهر السند، فأطبقوا (المغول) عليه من المقدمة والمؤخرة، وأحاطوا به من كل جانب، ووقفوا فى حلقات متتابعة بعضها فى إثر بعض مثل القوس وجعلوا من نهر السند وترا له، وأمر جنكيز خان بخوض القتال بضرواة والتشدد فى القتال والنزال وأن يبذلوا قصارى جهدهم للقبض عليه حيا.

ووصل على الفور كل من جغتاى وأوكتاى من خوارزم.

وحينما رأى السلطان أن اليوم يوم عمل ونزال، وأن الوقت وقت حرب وعراك وأن اليوم أمر، ألقى بنفسه ومن معه من العدد القليل فى ميدان الهيجاء وصال من اليمين صوب الشمال، وجال من اليسار إلى القلب، وشن حملات متتابعة فتقدمت صفوف الجيش المغولى جماعة فى إثر أخرى حتى ضاقت عليه ساحة المعركة ولم يعد أمامه مجال للكر والفر، فحارب بجسارة كأسد غاضب.

---

(١) يقصد سيف الدين أغراق.

وفى كل ناحية كان يعدو بفرسه كانت تختلط الدماء بالتراب

ولما كان جنكيز قد أصدر أمرا بالقبض عليه حيا، لم يبالغ الجيش فى قذفه بالحراب والسهام امتثالا لأمر جنكيز خان، إلا أن جلال الدين أسرع فى الفرار من أمامهم وانسحب من مواجهتهم، وأحضروا له جوادا جديدا، فلما امتطى صهوته هاجمهم مرة ثانية، ثم ارتد سريعا، وألقى بنفسه فى النهر كالبرق الخاطف واختفى كالريح العاصف، فلما رأى جنكيز أنه قد ألقى بنفسه فى النهر وأن الجيش المغولى يريد أن يركب متن البحر اقتفاء لأثره، حال بينهم وبين ما يريدون، ولفرط ما أصابه من عجب ودهشة وضع يده على فمه واتجه إلى أبنائه قائلا: هكذا ينبغى أن يكون الابن الذى يخلف أباه فأنعم بهذا الابن.

حينما نظر إسفنديار خلفه رآه على المنطقة اليابسة من الشاطئ البعيد للنهر، وقال إن هذا لا يسمى رجلا بل هو فيل هائج محاط بالعظمة والأبهة. فنظر إلى تلك الناحية وقال: لقد ذهب رستم باحثا عن طريقه.

وخلاصة القول أن كل رجل من رجاله لم يدركه الغرق أصابته السهام فاردته قتيلا. وأحضروا نساءه وأبناءه، فأما من كانوا من الذكور حتى الأطفال الرضع فقد أرضعوهم ثدى المنية، وعهدوا بتربيتهم ورعايتهم إلى ابن الداية، يعنى أنهم أسلموهم للغربان.

يعز علينا أن يظل ابن داية[1]   يفتش ما ضمت عليها شئونها

ولما كانت غالبية الثروة التى يقتنيها السلطان نقدا من الذهب والفضة فقد أمر بإلقائها فى النهر فى ذلك اليوم، وأرسل المغول على الفور غواصين لإخراجها من النهر كلما أمكن ذلك.

---

(١) الداى : مفردها الداية وهى فقار الكاهل من ظهر البعير خصوصا : وابن الداية هو الغراب لأنه يقع على داية البعير (دبره) فينقرها.

وقد وقع هذا الأمر الذى هو من عجائب الأيام فى رجب سنة ثمانى عشرة وستمائة [1].

وفى الأمثال "عِشْ رجبًا تَرَ عجبًا"، وتقدم جنكيز خان على شاطئ نهر جيحون وأعاد أوكتاى من هناك إلى غزنة التى كان سكانها قد أعلنوا استسلامهم فأمر بإحصائهم وإخراجهم من المدينة إلى الصحراء، واختار منهم من كانوا من أصحاب الحرف، وقتلوا الباقين، وخربوا المدينة، وترك قتقونويين على رأس هؤلاء الأسرى والضياع لقضاء شتاء هذا العام فى ذلك المقام، وعاد أوكتاى عن طريق كرمسير هراة، وحينما وصل جنكيز خان إلى كرمان وستوران علم بعبور السلطان للنهر منذ فترة وجيزة وقتل أناسا بطريقه ، فترك جغتاى فى منطقة كرمان ولكنه لم يعثر على السطان، فجدَّ فى البحث عنه وأمضى ذلك الشتاء فى حدود بوية كتور وهى مدينة بالقرب من أشتقار، وكان سالار أحمد حاكم تلك الناحية قد تمنطق بحزام الانقياد وجهز كل ما كان ممكنا للجيش من طعام ومئونة، ونتيجة لعفونة الجو فقد داهم المرض غالبية المرافقين، وضعفت قوة الجيش، وكان برفقتهم كثير من الأسرى، وأخذوا من تلك الناحية كثيرا من الغلمان الهنود.

وهكذا كان بكل بيت عشرة أو عشرون من الأسرى، وكانوا جميعا يعملون فى إعداد الطعام من تنقية للأرز وغيره، وكان الجو ملائما لهم موافقا لطباعهم، وأصدر جنكيز خان أمرا بأن ينقى كل أسير أربعمائة من الأرز فامتثلوا لأمره وفرغوا من الأرز جميعه خلال أسبوع واحد، ثم أعقب جنكيز خان ذلك بإصدار أمر آخر بقتل كل من يضمهم الجيش من الأسرى، ولم يكن لهؤلاء المساكين علم بذلك، وذات ليلة وقبل أن يشرق الصباح غربت أرواح الأسرى والهنود جميعا وقتلوهم عن بكرة أبيهم.

---

(١) وهذا سهو واضح فقد صرح رشيد الدين فى كتابه جامع التواريخ. برزين جـ ٣ صفحة ١٢٥- ١٧٤، بأن هذه الواقعة قد حدثت فى عام الجواد الذى يبدأ فى محرم سنة ٦١٩، صفحة ١٧٤.

وذكر خواجة نصير الدين الطوسى هذا التاريخ فى كتابه زيج إيلخانى نسخة المكتبة الأهلية بباريس ورقة ١٣، وذكرها النسوى فى شوال سنة ٦١٨/ حاشية القزوينى صفحة ١٠٨.

ونتيجة لهذا أرسلت الأقوام المجاورة له رسلا معلنين الاستسلام والطاعة، وأرسل جنكيز رسولا إلى رانا فقبل الانقياد فى بادئ الأمر ثم ارتد فأرسل إليه جيشا قبض عليه وقتله، وبعث بعد ذلك جيشا لمحاصرة أغراق[١] والقلعة التى تحصنوا بها.

وحينما استرد الجيش صحته واستعاد قوته عزم جنكيز على العودة فورا عن طريق بلاد الهند إلى بلاد التنقوت وقطع عدة منازل ولكنه عاد منها حيث وجد الطريق مسدودا فأتى إلى فرشاور (بشاور) ورجع من نفس الطريق التى كان قد أتى منها.

(١) سيف الدين أغراق أحد قادة السلطان جلال الدين المشهورين، أو اسم قبيلته.

ذكر عودة جنكيز خان

حينما حلت تباشير قدوم الربيع للرَّبع المسكون اكتست الربا والبقــاع سندسا وحريرا، وأخرجت الأرض ثمارها، وأخذت البلابل والطيور والحمام تصيح وتنوح على أغصان الأشجار فى الأسحار وعلى ذكر الشباب الغــض الذين كانوا يضيئون وجه أنوار البساتين والمتنزّهات وأزهارها فى كل ربيع، وكانت السحب تمطر دموعا من مآقيها فيظنونه مطرا...

والبرعمة التى امتلأت ضيقا وألما ملأت كأسها دما لما أصــابها مــن حسرة بدت وكأنها ضاحكة مستبشرة، والوردة قد مزقت ثيابها أسفا على مــا أصاب الحسان والوجوه النضرة، وقالت: لقد تفتحــت وأينعــت. وأزهــار السوسن وقد اتشحت بثياب المعزّين وتدثرت باللون الأزرق، غالطت نفــسها وقالت: إن لونى هو لون السماء. وشجرة السرو الفارعة المتمايلة قد تنهدت كل صباح وثنت جذعها تشوُّقًا لرؤية الحسناوات الفارعات وئيدات الخطــى وقد أسمت ذلك تبخترا وخيلاء، واتفاقا معه وبعدا عن الخلاف وضعت رأسها على أديم الأرض الغبراء، وأهالت التراب على رأسها لمــا أصــابها مــن غصص الزمان ونوائب الأيام قائلة: إنى فراش الخميلة. وألقت كأس المــدام خمرا فى الحلقوم وأخذ الصنج والرباب يعزف ألحان النواح والعويل:

"انتبه فى وقت السحر حتى تستمع من البلبل إلى أغنية بهلوية

إنه ينوح لوفاة إسفنديار الذى لم يبق لديه عنه ذكرى سوى النواح"

ولم تنفرج شفة أى شخص طوال هذا العام طربا ولم تسترح الدنيا من الفتنة لحظة واحدة فى تلك السنة، من الذى أظهر لى وجها باسما متفتحا فى هذا العام، وأى وقت كان جميلا فى تلك السنة؟

وصمم جنكيز على العودة من فراشور إلى موطنه الأصلى، وكان عجولا فى عودته لِمَا تناهى إلى مسمعه من ارتداد الختاى والتنقوت عن ولائهم له ولطول غيابه وبعده، فقد اضطربت أهواؤهم واختلفت آراؤهم فى الانقياد له والإذعان لأمره أو الارتداد عنه والعصيان له، فهرب عن طريق جبال باميان مع أمتعته الثقيلة التى تركها فى منطقة بغلان. وأمضى الصيف فى مراتع ذلك المكان حتى إذا ما أقبل فصل الخريف بدأ السير من جديد، وعبر النهر، ثم أرسل ترباى تقشى فى أثر السلطان مرة ثانية وأمضى ذلك الشتاء فى منطقة سمرقند، وأرسل رسولا لإحضار ابنه الأكبر توشى حتى يتوجه هو الآخر من صحراء القبجاق، ويسوق الصيد الذى كان أغلبه من الحُمُر الوحشية.

ومضى جغتاى وأوكتاى إلى قراكول[1] لتسلية نفسيهما بمشاهدة صيد الإوز "قوقو" وأمضيا ذلك الشتاء فى مشاهدة ذلك والاستمتاع به، وكانا يرسلان إلى جنكيز كل أسبوع خمسين جملا محملا بالإوز "البجع" دليلا على صيدهما.

وفى النهاية وحينما انتهى الصيد ووصل الشتاء إلى نهايته، وأضحت الأرض حدائق غناء ومراعى خضراء، وتدثرت الديار بالزهور والأنوار، صمم جنكيز على الرحيل والانتقال، فاجتمع الأبناء جميعا حول والدهم على شاطئ نهر فتاكت وعقدوا مجلس الشورى "قوريلتاى" (الاجتماع الرسمى)، وغادروا ذلك المكان حتى وصلوا قلان ناشئ حيث لحق بهم توشى من الجانب الآخر وانضم إلى والده.

وكان من بين الهدايا التى قدمها لوالده عشرون ألفا من أصيل الجياد البيضاء. وامتثالا لأمر والده ساقوا – من صحراء القبجاق- على هيئة الخراف قطعانا من الحمر الوحشية، ويحكون أن حوافر هذه الحمر الوحشية

---

(١) قراكول اليوم : اسم مدينة فى أوزبكستان.

قد تورمت وتآكلت من طول الرحلة التى قطعتها فألبسوها نعالا، حتى وصلوا موضعا يقال له أوتوقا، عندئذ ركب جنكيز وأولاده وضباطه الجياد وساقوا الحمر الوحشية أمامهم وأحاطوا بها وبدأوا قنصهم وأطبقوا عليها من كل جانب حتى أصابها الإعياء والنصَب واعتراها الملل ولم يبق سوى هزيل الحمر فوضع كل شخص علامته على حيواناته وتركها حرة.

والخلاصة أنهم أمضوا الصيف فى قلان تاشى، وأحضروا إلى ذلك المكان عددا من الأمراء الأويغور وأعدموهم على ما اقترفوا من ذنب وإثم، ومضى جنكيز خان من هناك ووصل إلى معسكره فى الربيع.

ذكر ذهاب توربای تقشی فی طلب السلطان جلال الدين

حينما عاد جغتاى، ولم يعثر على السلطان جلال الدين، اختار جنكيز خان توربای تقشی مع عشرين ألفا من الجنود المغول للذهاب فی أثره، فعبر نهر السند حتى وصل إلى حدود بيه وهى ولاية هندية كان يمتلكها قمر الدين كرمانى، ثم استولى عليها أحد أمراء السلطان جلال الدين، وتمكن تربای من الاستيلاء على قلعتها وكانت أكثر تحصنًا، وقتل خلقا كثيرا ثم توجه إلى المولتان، ونظرا إلى عدم وجود الحجارة بها فقد ساقوا منها خلقا كثيرا، ألحقوهم بالجيش الأمامى، وصنع أعمدة من الأخشاب وملأها بأحجار المنجنيق وألقوها فی النهر.

وحينما وصل إلى المولتان أطلق المنجنيق وبدأ الرماية وهدم جزءا كبيرا من حائطها وسورها فاستسلمت بعد فترة وجيزة. ولم يطب له المقام هناك لشدة الحرارة فی تلك الأنحاء فأغار على ولاية المولتان ولاهور وقتل أهلها ثم عاد وعبر نهر السند، وبوصوله إلى غزنة انضم إلى جنكيز ومضى إثره.

ذكر ذهاب يمه وسبتاى عقب السلطان

حينما وصل جنكيز خان إلى سمرقند، واستدار حولها وحاصرها، سمع بعبور السطان نهر ترمذ، وأنه فرق أكثر جيشه وحاشيته وحشمه فى سائر القلاع والبقاع ولم يبق معه سوى عدد ليس بالكثير، وقد عبر النهر خائفا يترقب، مشتت الضمير، فقال جنكيز خان: لا بد من الانتهاء منه حتى يهدأ البال قبل أن يجتمع الناس حوله، وقبل أن ينضم إليه الأشراف من سائر الأطرف ويمدوه بما يحتاج. فاختار من كبار الأمراء يمه وسبتاى ليتعقباه، وعين من الجيش الذى كان معه ثلاثين ألف جندى وألفا من جنود السلطان، الواحد منهم كذئب وقطيع من الخراف وجذوة من النار وغابة يابسة، وعبروا نهر البنجاب، وجدُّوا فى البحث عنه كجلمود صخر حطه السيل من عل، وأسرعوا فى أثره باحثين وسائلين كأنهم دخان.

وصلوا فى البداية إلى بلخ فأرسل إليهم مشاهير بلخ جمعا منهم وقدموا لهم المؤن (تزغو) من طعام وشراب فلم يؤذوهم وعينوا عليهم شحنة ، وأخذوا منهم دليلا ومرشدا وسيَّروا طايس فى المقدمة للاستكشاف.

وحينما وصلوا إلى زاوة طلبوا مئونة (علفا)، إلا أن أهل زاوة أغلقوا أبوابهم ولم يعيروا أقوالهم التفاتا وانتباها ولم يعطوهم شيئا، ونظرا إلى أنهم كانوا فى عجلة من أمرهم لم يتوقفوا عندهم واستمروا فى سيرهم، فلما رأى أهالى المدينة عملهم وعلموا أن المغول قد تركوهم وولوا ظهورهم رفعوا أيديهم عن القلاع – تحقيقا لرغباتهم – وأخذوا يدقون الطبول والدفوف فرحين وتفوهوا ببذىء القول وفحشه، فلما رأى المغول استخفافهم وسمعوا سبهم وأصواتهم عادوا إليهم من فورهم ودقوا أقدام الحرب حول القلاع الثلاثة، وأقاموا السلالم فوق الجدار.

وفى اليوم الثالث وفى الوقت الذى امتلأت فيه كأس الأفق من ماء الشفق وصلوا إلى أعلى الجدار ولم يبقوا على أحد رأوه حيا، ونظرا إلى أن الفرصة لم تكن متاحة لهم للمقام فقد أحرقوا كل ما كان ثقيلا حمله ودمروه، وكانت هذه أول كأس أنزلها الزمان على رقعة الحفاء وأول لعبة خرجت من الفلك المخادع الغادر.

وكان هذا وكأن ذلك الكفاح مرتبط بحوادث الأيام وكوارث الزمان اللامتناهية، فقد حدثت من أصواتها زلزلة بخراسان وأصاب الناس الهلع والولع لسماع تلك الحادثة التى لم يسمع بمثلها قط، وصل يمه وسبتاى إلى نيسابور فى أوائل ربيع الآخر سنة سبع عشرة وستمائة، وأرسلا رسولا إلى مجير الملك كافى رخى وفريد الدين وضياء الملك الزوزنى وزراء وصدور خراسان يدعوهم إلى الاستسلام والانقياد لجنكيز خان واتباع أوامره، راجيا تقديم المئونة والطعام.

فبعثوا إليه بثلاثة أشخاص من أواسط الناس حاملين المؤمن والعلف والهدايا ومبلغين بالاستسلام والطاعة فأسدى إليهم يمه نصائحه التى حذرهم فيها من المخالفة والمعارضة وحثهم فيها على نبذ القتال وضرورة استقبال أى مغولى أو رسول موفد من قبلهم استقبالا حسنا، وأن لا يعتمدوا على مناعة حصونهم وقوة أسوارهم، وكثرة جموعهم حتى يصونوا أسرهم وأموالهم، وكدليل على ذلك أعطى الرسل "التمغا" (خاتما بالخط الأويغورى)، إن الأمراء والعظماء والرعية يعلمون جيدا أن...[1].

ونسخة من أوامر جنكيز خان كان مضمون معانيها والمقصود منها ما يلى: لقد أعطيتك وجه الأرض جميعا من شروق الشمس حتى غروبها، وكل شخص ينضوى تحت حكمك يكون قد رحم نفسه ونساءه وأولاده وأهله، وكل شخص خالفك وعصاك فقد أهلك نفسه ونساءه وأبناءه وأهله.

---

(١) فجوة فى الكتابة.

وقد كتبوا رسائل عديدة على هذا النحو وشجع الأهالى بـــالكثير مـــن الوعود ثم انصرفوا وغادر يمه نيسابور عن طريق جوين، ووصل ســبتاى إلى طوس عن طريق جام وأبقى على كل شخص قابلهم معلنا الاستسلام لهم، واستأصل شأفة كل شخص خالفهم وعصاهم، وأعلنت القرى الواقعة شــرق طوس – وهى نوقان والربع، استسلامها – وقد نعمت الآن بالأمان، وأرسلا من هناك رسولا إلى المدينة فلم يعطوه الإجابة المطلوبة والملائمة، فأفرطوا فى قتل سكان المدينة والقرى المجاورة لها، وحينما وصل سبتاى إلــى راد كان أعجبته خضرة المروج وعيون الماء فلم يعرّض تلك الجماعــة لــلأذى والضرر وترك بها شحنة عنه، فلما وصل إلى خبوشان قتلوا مــنهم الكثيــر نتجة لما أبدوه من تقصير وعدم اكتراث بهم، وتوجه من هناك إلى أسفرايين، وقتلوا الكثير من أهل أسفرايين وأدكان، ولوى يمه العنان قاصدا مازنــدران عن طريق جوين، وأسرع سبتاى عن طريق قومش، وقتل يمه فى مازندران خلقا كثيرا، وقد قتل أهل آمل بخاصة تقتيلا وترك جيشا لمحاصــرة القــلاع التى كانت تضم فى داخلها حرم السلطان والاستيلاء عليها.

وصل سبتاى إلى دامغان فلجأ عظماء المدينة إلى كردكــوه، وبقيــت جماعة من الأشرار (رنود) لم يرضوا بالاستسلام وخرجوا تحت جنح الليــل وقاتلوا على بوابة القلعة وقتل من الجانبين عدد وفير، ووصلوا من هناك إلى سمنان حيث قتلوا الكثير من أهلها وفعلوا فى خوار الرى مثل ذلــك، فلمــا وصلوا إلى الرى خرج القاضى مع عدد مــن الأشــخاص إلــيهم وأعلــن استسلامهم، وحينما علموا بأن السلطان توجه إلى همدان منذ قليل أسرع يمه من هناك مقتفيا أثره، واتجه سبتاى إلى قزوين وتلك الأنحاء، فلما وصل إلى همدان أعلن علاء الدولة حاكم همدان الاستسلام وأرسل إليــه الكثيــر مــن المأكولات والمشروبات والملبوسات والركائب وقبل شحنة من قبل المغــول، فلما هزم السلطان عاد يمه ووصل إلى همدان، فلما تواترت الأنباء بأن جمعا

غفيرا من جيش السلطان قد اجتمع فى سجاسى[1] يتقدمهم بكتكين السلاح دار وكوج بفاخان، توجه إليهم وأبادهم عن بكرة أبيهم وأغار على بلاد العراق ونواحيها وقتلوا من أهلها الكثير، وتوجهوا من هناك إلى أردبيل واستولى عليها بعد محاصرتها وقتل أهلها ونهب خيراتها، وحينما حل فصل الشتاء ذهبوا إلى موغان حيث أمضوا فصل الشتاء بها، وكانت السبل قد سدت فى ذلك العام لكثرة الثلوج التى تساقطت، وأوقد جمال الدين أيبه وجمع آخر معه نار الفتنة والاضطراب فى العراق من جديد وأعلنوا التمرد والعصيان، وقتلوا الشحنة الذى كان بهمدان وقبضوا على علاء الدولة لما أعلنه من استسلام للمغول وسجنوه بقلعة كريت، وحينما حل الربيع توجه يمه إلى العراق للانتقام لمقتل الشحنة، وعلى الرغم مما أبداه جمال الدين أيبه من مظاهر الاستسلام والطاعة لم يُجْدِ هذا فتيلا ، وقتله مع عدد آخر ممن معه، وغادر تلك الناحية وأخضع تبريز لحكمه، وقتل جميع أهالى مراغة ونخجوان وسائر تلك الولايات، وأقبل الأتابك خاموش وأعلن خضوعه واستسلامه فأعطاه الخطاب والتمغا، وأقبل من هناك إلى أران واستولى على "بيلقان"، وغادرها عن طريق "شروان"، فلما وصلوا إلى دربند لم يكن أحد يعلم أن جيشا قد عبر من تلك الناحية أو حارب فيها، تحايلوا حتى عبروها، والتحق بها جيش توشى الذى كان يقيم بصحراء القبجاق وتلك الحدود، وتوجهوا من هناك إلى بلاد جنكيز خان.

ويتضح من ذكر هذه الحكايات غلبهم وقهرهم بل وتحقق قدره "وهو القاهر فوق عباده"، ذلك أن فوجا صغيرا من أحد الجيوش قد أقبل وسيطر على عدد من السلاطين والملوك والممالك، ولم يبق فى الجهات الأربع لأى مخلوق القدرة على معارضتهم وممانعتهم، وأن هذا لا يمكن إلا أن يكون شيئا واحدا هوا انتهاء دولة وابتداء دولة.

---

(١) سجاسى: اسم مدينة بين همدان وأبهر.

ذكر استيلاء تولى على خراسان على سبيل الإجمال

حينما غادر السلطان محمد خراسان، انطلق يمه وسبتاى فـى أثـره مسرعين كالنار فى تطايرها، بل إنهم فى الحقيقة كالعاصـفة فـى هبوبهـا وشدتها، فقد اجتاحت جيوشهم كل أرجاء خراسان ولم يبق منها سوى النـذر اليسير من الأنحاء لم تطأها أقدام أفواج جيوشهم، وكلما مضوا مـن ناحيـة أرسلوا رسولا إلى كل ولاية تقع فى طريقهم يخبر أهلها بوصـول جنكيـز خان، ويحذرهم من الإقدام على الحرب والتمسك بالعناد والإبـاء ورفـض الانقياد، ويزيدهم رعبا وخوفا، وحيثما أعلنوا الاستسلام والطاعة ترك عليهم شحنة عنه ومعه التمغا كعلامة وانصرف، فإذا ما عارضوه وأحجموا عـن الانقياد له هاجم المكان واستولى عليه فى يسر وسهولة، ولم يرحموا أهله بل ويأسرونهم ويقتلونهم، فإذا ما ولوهم الأدبار انشغل الأهالى بتحصين القـلاع والأبراج وتخزين المؤن والطعام والعلف، ثم تتراخى همتهم مرة ثانية بعـد عدة أيام وقد هدأت حدة أصوات الجيش المغولى، فظنوا أن تلـك الجماعـة ربما كانت سيلا قد ابتلعته الأرض أو زوبعة من الرياح قد أثـارت بعـض التراب من سطح الأرض أو وميض نار قد أبرقت ثم تلاشت واختفت! فلمـا عبر جنكيز النهر وتوجه بنفسه فى أثر السلطان، اختار ابنه ألغ توين الـذى كان فى عقابه وسياسته سيفا بتارا وفى أفعاله نارا حامية، إذا أصابت ريحه أى شخص أضحى هشيما، وكان فى الفروسية برقا خاطفا انطلق من خـلال حجاب السحاب حيثما سقط أصبح المكان رمادا ولم يترك أثرا أو علامة ولا يلبث الزمان ولا يستقر. اختاره للتوجه إلى بلاد خراسان وقسم الجيوش التى كانت معه على أبنائه جميعا بنسب متساوية، واختار من كل عشرة أشخاص شخصا للذهاب مع تولى، رجالاً أشداء إذا ما هبت ريح الحـرب والهيجـاء اشتعلت النار فى قلوبهم وأثارت حميتهم، وطار لبهم وسقط عقال الثبات من

أيديهم، فإذا كان خصمهم بحرا خضمًا أطموه وأسـلموه لأحـشاء الأرض. وحينما ذهب تولى عيَّن الأمراء على الجناحين وتولى بنفسه قلـب الجـيش وأرسل طلائع استكشافية فى المقدمة وتوجه هو عن طريق مروجـق ويـغ وبغشور.

كانت خراسان آنذاك قد قُسِّمت إلى أربع مدن: بلـخ ومـرو وهـراة ونيسابور، وقد أباد جنكيز خان بنفسه بلخ كما ورد ذكر ذلـك علـى حـدة وأحوال المدن الثلاث الأخرى بسبب ما حدث فى تلك البلاد من أحوال قبـل وصول المغول، وبعده سيأتى ذكر كل واحدة منها بالتفصيل. وأرسـل إلـى باقى الجهات فى الشرق والغرب والشمال والجنوب جيوشـا لإخـضاعها، فاستولت عليها جميعا مثل أبيورد ونسا وبازر وطوس وجـاجرم وجـوين وبيهق وخواف وسنجان وسرخس وزورابد، ووصلوا من ناحية هراة حتـى حدود سجستان وأمعنوا فيهم قتلا وتخريبا وسلبا ونهبا، وأصبح العالم الـذى كان يموج فى عمار ورخاء خرابا بركْضة واحدة، وأضحت الديار والربـاع خرابا يبابا وأمسى أكثر الأحياء أمواتا، وباتت الجلود والعظام رفاتًا، وأصبح الأعزاء أذلاء غرقى ديار البوار والدمار، ولو كان هناك خلى البال يستطيع أن يقف حياته كلها على دراسة وبحث هذه الأحوال ويركز همه وهمته عليها فلن يستطيع فى زمن طويل الوفاء بما تطلبه حادثة واحدة من شرح وتفصيل، ولن يستطيع ثبتها ولحمها فى سدة الكتابة، وكيف يصل إلى تحقيق ذلك؟!

ونتيجة للرغبة التى توفرت لمحرر هذه الكلمات، ومع أنه لم يتيسر له طرفة عين من التحصيل والدراسة، فإنه يختلس ساعة فى أوقات راحة القافلة ويسوِّد تلك الحكايات، والخلاصة أن تولى فى شهرين أو ثلاثة قد تمكن مـن إخضاع هذه المدن مع العديد من الربوع التى كانت كل قصبة منها مدينـة، وكانت كل واحدة منها بما تموج به من الخلائق بحرا متلاطما، وقد خربـت أطرافها وأكنافها وسويت وأضحت ملساء كراحة اليد، لا ترى فيها عوجا ولا أمتًا وأذل العصاة الذين رفعوا رءوسهم عصيانا وتمردا وأذاقهم شرابا وبيلا

فأضحوا صغارا أذلاء فى يد حوادث الزمان، وكانت آخر هذه المدن هــراة التى أصابها، ما أصابهم فلما ألحقها بأخواتها الأخريات توجه إلــى حــضرة والده، ولم يكن قد تم له الاستيلاء على الطالقان قبل الالتحاق بوالده، وقد تم له فتح هذه المدينة بمعاونة منه ومساعدته، واستسلمت له خــوارزم وجنــد وسائر تلك النواحى فى خلال شهرين، ولم تستسلم هذه المدن لأى سلطان من السلاطين على هذا النحو منذ هبوط آدم حتى يومنا هذا، ولم يُنظر مثل هــذا فى كتاب.

ذكر أحوال مرو وكيفية واقعتها

كانت مرو عاصمة السلطان سنجر وموضع لقاء كل صغير وكبير، كانت مساحتها أكثر مساحات بلاد خراسان امتيازا، يحلق طائر الأمن والسلام بين ربوعها وفوق أكنافها، يتنافس عدد رعوس أبنائها مع قطرات أمطار نيسان المدرار، تتبارى أرضها مع السماء ويتساوى فلاحوها لكثرة ما ينعمون به من نعيم مع ملوك العصر وأمرائه، وُضعوا قدم المساواة مع عظماء العالم وكبرائه.

بلد طيب ورب غفور	**وثرى طينه يفوح العبيرا**
وإذا المرء قدم السير منه	**فهو ينهاه باسمه أن يسيرا**

حينما عزل السلطان محمد أنار الله برهانه مجير الملك شرف الدين مظفر من الوزارة بسبب الجرم الذى اقترفه عمه، وفوض أمور هذا المنصب لابن نجيب قصة دار الذى كان معروفا باسم بهاء الملك، بقى مجير الملك ملازما لركاب السلطان حتى انصرف السلطان من ترمذ مهزوما.

اتجه كشكين بهلوان لاستطلاع رأى أهل البلاط الذين كانوا يقيمون بمرو وأنبأهم عن الاضطراب والتفرق الذى حدث وعن خروج جيش أجنبى، وبعد ذلك وصلت رسالة من السلطان موشحة بتوقيعه وإمضائه "طغرا" وخاتمه السلطانى ومملوءة بالعجز والضعف، وكان مضمونها والمقصود منها أن يتحصن الجنود والضباط وأصحاب الأعمال بقلعة مراغة، وأن يبقى الفلاحون والعجزة الذين لا يستطيعون انتقالا حيث هم وأن يستقبلوا جيش التتار فى أى وقت خير استقبال وقاية لأنفسهم وأموالهم وأن يمتثلوا لأوامرهم ويقبلوا نائبهم.

والآن إذا ما اعترى السلطان – وهو بمثابة القلب لأعضاء الإنسان – ضعف، فكيف تبقى القوة للجوارح الأخرى؟ ولهذا سيطر الخوف على الناس وملك قلوبهم، وشاع الفشل فى صفوفهم واضطربت أحوالهم وغشيتهم الحيرة والتردد.

قام بهاء الملك ومعه جمع غفير من النبلاء والقادة بعمل الاستعدادات اللازمة، وحينما وصل إلى القلعة لم يجد من الصالح الإقامة بها، وتوجه مع جمع إلى قلعة ياق يازر، وأما الآخرون فقد اتجه كل واحد منهم إلى حيث يريد وعاد قوم قد جذبهم عنان الأجل إلى مرو، وترك بهاء الملك نقيبا من آحاد الناس ليقوم مقامهم. رغب هذا الرجل فى الاستسلام وإعلان الطاعة، وكان شيخ الإسلام شمس الدين الحارثى يبارك هذه الفكرة ويسانده فيها، بينما كان القاضى والسيد الأجل يخالفان ذلك ويعارضانه، فلما أصبح واضحا ومؤكدا لهم وصول جيش يمه وسبتاى إلى مروجق أرسلوا رسولا إليه معلنا الطاعة والاستسلام.

وفى تلك الأثناء خرج من إحدى الزوايا تركمانى كان قائدا ومرشدا للسلطان وكان يدعى بوقا، واجتمع حوله عدد من التركمان.

ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فاجتمع حوله عدد من الناس خالفوا الجيش التترى وعارضوا الاستسلام له، وخلع النقيب نقاب الإمارة عن وجهه[1] وولى تركمان تلك الحدود وجوههم شطره والتجأ إليه عدد من أهل جند الذين هربوا من الجيش الأمامى وذهبوا إلى مرو لما تنعم به من خصب ونعم، فكثر حشمه وتزايد عدد أنصاره، وحينما توفى السلطان فى جزاير آب سكون وسكنت روحه فيها توجه مجير الملك ومعه حمار وحيد تارة يركبه وتارة يسير بجانبه فمر بقلعة صعلوك حيث لقيه الأمير شمس الدين على بالكثير من مظاهر الإعزاز والإكرام وتوجه من هناك إلى مرو حيث نزل

---

(١) يعنى أنه استقال من الحكومة وسلمها إلى بوقا.

بحديقة ماهيا باد[1] الواقعة على بوابة سرماجان فأقبل عليه عدد من قادة مرو الذين كانوا تابعين له فردا فردا، ولكن بوقا لم يسمح له بالبقاء في المدينة خوفا من التفاف عامة الناس حوله، فلما اجتمع حوله عدد قليل خرجوا وسط النهار وقد أخفوا أسلحتهم بمعاطفهم الفضفاضة، وألقوا بأنفسهم داخل المدينة فأسرع إليه على الفور جنود مرو وتمنطقوا بحزام خدمته، وأقبل عليه بوقا وحده معتذرا إليه وطالبا العفو منه، وانضم إليه، واحتمى تحت سلطانه التركمان وأهل جند الذين كانوا بالمدينة والذين كان عددهم يزيد عن سبعين ألف رجل، فاعتبر نفسه فى منصب أعلى من الوزارة وأسمى منها، وقوى له خياله حلم السلطنة فى رأسه مستندا إلى أن والدته كانت أعظم حظية من حرم السلطان قد منحها السلطان لوالده وشرف بذلك، وكانت حبلى وقت تسليمها إليه. وخلاصة القول فإن صيته قد ذاع بخراسان وشاع فيها فانضم إليه العامة والجهلة من الناس فاستحكمت فى سويداء قلبه سوداء الحكم وظن أن الفلك لا يستطيع أن يدور دورته دون إذن منه ولا تقدر الرياح على الجريان فى ميادين الهواء إلا بأمره، وفى تلك الأثناء كان أرباب سرخس قد قبلوا شحنة عليهم من قبل التتار وأعلنوا الاستسلام له.

وأرسل شيخ الإسلام – الذى كان لا يزال يميل إلى التتار – خطابات سرية إلى قاضى سرخس الذى كان من أقربائه، وأخبروا مجير الملك بتلك الحالة فلم يعقب، ولم يقل شيئا، حتى إذا ما خطب شيخ الإسلام على منبر المسجد الجامع واعظا مرشدا جرى لسانه بهذا الدعاء: "اللهم اقطع عصب روح الأعداء"، فأصابت الحاضرين الدهشة لما سمعوا وشغلوا بما قال فصمت وأصابته الحيرة والدهشة وقال: لقد جرى هذا الكلام على لسانى دون إرداة منى. وكان هذا على النقيض من الفكر والضمير، إلا أنه حينما حل الوقت، انطلقت الدعوات على اللسان حسب مقتضيات الزمان، قال الله تعالى:

---

(١) ماهيا باد: اسم محلة كبيرة تقع شرق مرو.

"قُضِيَ الأمر الذى فيه تستفتيان"[١]. وصل هذا القول إلى أذن مجيــر الملــك أيضا، فأيد شكوكه فيه واتهامه له، ولكنه كان على صلة وقرابة به، فــضلا عن اكتسابه لمنصب شيخ الإسلام، يضاف إلى هذا أنه كان فى حقيقة أمــره عالما، كما أن مجير الملك لم يشأ أن يتعــرض لـــه بالــضرر والأذى دون وضوح بيِّنه أو حجة يراها العالم كله، وحتى لا يكون لأى إنسان مجال للقدح والاستنكار، فقد حصلوا على الخطاب الذى كان قد كتبه بخط يده إلى قاضى سرخس من يد الرسول الذى حمله إليه فى أثناء سيره فى رحلته، فلما قــرأ مجير الملك الخطاب أرسل شخصا لاستدعائه، وسأله فأنكر علمه بأى شىء عن الرسالة وعن أخبارها، فأعطاه مجير الملك رسالته التى كتبهــا والتــى كانت كصحيفة المتلمس قائلا: "اقرأ كتابك"[٢]. فلما وقع نظر شيخ الإســلام على رسالته وأبصر خطه أسقط فى يده. وأصابته الحيرة وغشية الاضطراب فأمر مجير الملك بالقبض عليه، وأمسك به القادة، وصبوا عليه نــار الــبلاء ومزقوه بالسكاكين إرْبًا إرْبًا، أمسكوه من قدمه وجروه على وجهه حتى طافوا به أركان المدينة الأربعة[٣]، وهكذا تكون عاقبة المكر والنفاق وخيمــة، ولا تحمَد عاقبة الخداع والغدر، وبسبب ما أبدته سرخس مــن اســتلام المغــول أرسل مجير الملك جيشا إليها وأذاقوا أرباب سرخس الهوان والدمار، وفــى تلك الأثناء هرب بهاء الملك من قلعة ياق والتجأ إلى مازندران، هناك أصبح قريبا من المغول والجيش الثانى المرتزقة وتحدث عن أحوال مــرو وذكــر أوضاعها وعرض أن يذهب إليها، ويسلم مرو إليهم وأن يقدم للخزانة كــل عام من كل بيت ثوبا من الكرباس.

ولقى هذا القول لديهم آذانا مصغية، وأرسلوه إلى مرو مع سبعة مــن المغول، وكان غافلا عما جرى بمرو من تطورات وأمور، جاهلا بــدوران

---

(١) سورة يوسف، الآية ٤١.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٤، وليست ١٥ كما يذكر.

(٣) يذكر Boyle أنهم جروه على وجهه حتى وصلوا به إلى السوق، صفحة ١٥٦.

الفلك العجيب، فلما وصل إلى مدينة شهرستان[1] مملوءًا شرهًا وحرصًا علم باستيلاء مجير الملك عليها فأرسل فى المقدمة ضابطا مخبرا بوصوله وكتب خطابا إلى مجير الملك يتضمن ما يلى: "إذا كان قد حدث بين الجانبين قبل هذا بزمن بعيد اختلاف وتضارب حول المناصب فقد زال الآن، وقدرة الجيش المغولى كبيرة لا يمكن التصدى لها أو مدافعتها إلا بالاستسلام والطاعة، ويتوجه الآن إلى مرو سبعة آلاف من المغول يرافقهم عشرة آلاف من المرتزقة، وقد استسلمت لهم ورافقتهم، وقد دمروا وخربوا مرودنسا وأبورد[2] فى لحظة واحدة، وقد أرسلت الآن وعلى وجه السرعة رسولا مخبرا بهذه الأحوال من باب الإشفاق وطلب الوفاق حتى تكفوا أيديكم عن النقار والعراك وحتى لا توقعوا أنفسكم فى غمار البوار وتنور الدمار".

فاستولت الحيرة والاضطراب والتمزق على مجير الملك وأكابر المدينة وعظمائها، لهذا السبب فكر كبار الملازمين لمجير الملك فى أن يتفرقوا ويتركوا المدينة، إلا أنهم فكروا وتدبروا أمرهم وقالوا إن الاعتماد على أقوال المغرض والوسواس دون تيقن ويقين أمر بعيد عن الحزم والصواب، لهذا اتصلوا برسل بهاء الملك كل على حدة وبحثوا معهم عدد جنود المغول، وحينما وقفوا على حقيقة الأمر والحال قتلوهم وأرسلوا لمحاربتهم ألفين وخمسمائة فارس من بقية جيش السلطان الأتراك، وحينما علم بهاء الملك والمغول بأمرهم عادوا من ناحية سرخس وتفرق ضباط بهاء الملك فقيد المغول بهاء الملك وأوثقوه وحملوه معهم إلى طوس حيث قتلوه ، ومضى جيش مجير الملك حتى وصل إلى سرخس، ونظرا إلى ما قام به القاضى شمس الدين وقت وصول يمه نوين إلى المدينة من فروض الاستقبال، وأضحى ملكا وحاكما لسرخس وحصل على جائزة خشبية من

---

(١) شهرستان أو شهرستانة مدينة تقع على بعد ثلاثة أميال شمال نسا.

(٢) يذكر القزوينى أن بعض النسخ أضافت بعد أبورد نيسابور فقالت: "ونيسابورا" ، وهذا بعيد عن الصواب ذلك أن نيسابور تم فتحها بعد مرو، وقد ذكرها باتولد "أبيورد" وقد ذكرها الجوينى بعد ذلك بـأبيورد: صفحة ١٢٥.

جنكيز خان، لهذا قبضوا عليه وأسلموه إلى ابن بهلوان أبى بكر فى ديوانه فقتله قصاصا لوالده، وكانت حدة صولة جيش المغول فى ذلك الوقت قد انكسرت فاشتغل مجير الملك وأعيان مرو بالتنزه والنشاط وانهمكوا فى شرب المدام وأفرطوا فيه وداوموا عليه. وصل فى أثناء ذلك اختيار الدين ملك آمويه أفاد أن: جيش التتار مشغول الآن بمحاصرة قلعة كلات وقلعة نو، وأن فرقة منهم قد وصلت إلى "آمويه"، وهم قادمون فى أثرى. فأكرم مجير الملك وفادته، واتصل اختيار الدين بتراكمة آخرين ونزل عندهم ووصلت فرق مغولية مكونة من ثمانمائة جندى وهجموا عليه فأقبل شيخ خان وأغل صاحب من خوارزم مع ألفين من الأبطال وهجموا على المغول من الخلف ولحقوا بهم وحاربوهم وتركوا أكثرهم قتلى فى أرض القتال وهرب بعضهم لقوة جيادهم، فانطلق فى أثرهم جماعة من التراكمة الأتراك من جيش السلطان وأسروا منهم ستين شخصا وقتلوهم بعد أن طافوا بهم حول أرجاء المدينة وأسواقها، ونزل شيخ خان وأغل صاحب بدستجرد، ونصَّب التراكمة اختيار الدين قائدا لهم وتعاهدوا فيما بينهم على الاتفاق والوفاق وارتدوا عن مجير الملك وبدأوا فى إثارة العديد من الاضطرابات والفتن التى غبَّرت وجه الأرض وكللته بالسواد، فأضحى كقلوب المنافقين، وقصدوا إلى الاستيلاء على المدينة، إلا أن مجير الملك أخذ علما بأمر غارتهم الليلية وفكرهم المدبَّر، فأخذ لنفسه ما يلزم من الحيطة، لهذا لم يحققوا أى ظفر عليه وأصبحت أوضاعهم غير آمنة فمضى التراكمة إلى شاطئ النهر ومدوا أيديهم إلى السلب والنهب حتى وصلوا إلى باب المدينة وأغاروا على القرى وسلبوا كل ما رأوه وما شاهدوه، وعيَّن جنكيز خان تولى للاستيلاء على خراسان مع سبعين ألفا من الجنود.

** ** **

وفى ذلك الوقت، وحينما عيَّن جنكيز خان تولى[1] للاستيلاء على خراسان مع رجال عمل وأسود معارك، واستخرج جيشا أماميا من الولايات التى استسلمت له فى طريقه إليها مثل أبيورد وسرخس وغيرها، فأضحى الجيش المغولى مكونا من سبعين ألف جندى، وحينما اقتربوا من مرو أرسلوا من الطريق قوة استطلاعية مكونة من أربعمائة فارس، ووصلوا تحت جنح الليل إلى ناحية خيول التراكمة، وراقبوا أحوالهم وقد تجمع هناك اثنا عشر ألفا من التراكمة الفرسان، واعتادوا الذهاب صباح كل يوم إلى البوابات لمهاجمة المدينة.

"وذات ليلة وحينما اغتسلت الوجوه بالقار، لا يظهر فيها المريخ ولا زحل ولا عطارد، نصب المغول كمينا فى طريقهم وحبسوا أنفاسهم" انتظارا لهم، ولم يكن التراكمة قادرين على معرفة بعضهم بعضا وكانوا يصلون فوجا إثر فوج فيتلقفهم المغول ويغرقونهم فى الماء على رياح الفناء، وحينما حطم المغول قوتهم أسرعوا كالريح إلى مرابض خيلهم وقتلوها جميعا، وتركوها كما يترك الذئب قطيع الخراف، وأما التراكمة الذين كان عددهم يزيد عن سبعين ألفا فقد هُزموا وأصبحوا أذلاء عاجزين على يد حفنة قليلة من الرجال، وألقى غالبيتهم بأنفسهم فى الماء حتى غرقوا وانهزم الباقون واستسلموا، ولما كان جيش المغول يعتمد على حظه السعيد ومساعدة الزمان له، فلم يستطيع أحد أيا كان مشاكسته ومناقرته، وأما من كان لا يزال فى عمره بقية فقد ألقى سلاحه وهرب.

واستمر المغول على هذا النحو حتى جن الليل، وتجمع فى الصحراء ستون ألفا ماشية بخلاف الخراف التى ساقها التراكمة من البوابات مع سائر ممتلكاتهم الأخرى التى لا يمكن حصرها ولا يتسع الوهم لاستقصائها.

---

(١) ورد هذا فى النسخة ج وهذا هو الصحيح، بينما ذكرت بقية النسخ "توشى" وهذا سهو واضح، فقد أجمع المؤرخون على أن تولى خان هو الذى كلف بفتح خراسان وليس توشى.

وفى اليوم التالى حيث كانت غرة المحرم من سنة ثمانى عشرة وستمائة[1]، والتى كانت الساعات الأخيرة من حياة غالبية أهل مرو، وصل تولى ذلك الضرغام المقتحم مع جيش كالليل المدلهم، والبحر المتلاطم الأمواج يزيد جنوده عن حبات رمال الصحراء وجميعهم محاربون أشداء وأبطال مغاوير أقوياء.

وتوجه هو بنفسه مع خمسمائة فارس إلى بوابة فيروزى -النصر- وأقام سياجا وحصارا حول المدينة طوال ستة أيام، وظن المواطنون بالمدينة أنهم مانعتهم حصونهم وكثرة عددهم، حتى إذا ما حل اليوم السابع:

وأرادت الشمس المشرقة أن تلقى قوسها المتألق من البرج العالى

تجمعت الجيوش ونزلت إلى بوابة شهرستان وبدأت الحرب بين الجانبين، وبرز مائتان من الرجال من البوابة وهاجموهم فترجل تولى بنفسه.

وأطلق صيحة كفيل ثمل ورفع كتفه فوق رأسه وأظهر يده

وتقدم صوبهم وهاجمهم والمغول فى ركابه وساقوهم جميعا إلى داخل المدينة، بينما خرج جمع آخر من بوابة أخرى فردتهم جماعة أخرى كانت هناك من المغول على أعقابهم.

ولم تستطع أية جماعة من المواطنين تحقيق أى شىء من أى جانب حتى إنهم لم يكونوا قادرين على أن يطلوا برءوسهم من البوابة.

حتى إذا ما اتشح الزمان بوشاح الحزن الأسود وتدثر بثوب الحداد أقام المغول سياجا حول المدينة والتفوا حول مدار القلعة عدة حلقات وأقاموا حراسة طوال اليوم للمراقبة، فلم يكن لأحد سبيل للخروج، فلم ير مجير الملك طريقا للخروج سوى الانقياد والاستسلام.

---

(١) الموافق ٢٥ من فبراير سنة ١٢٢١م.

ولهذا فإنه فى الصباح وحينما رفعت الشمس البرقع الأسود من فــوق هذا الوجه القمرى، أرسل الإمام جمال الدين الذى كان من كبار أئمة مــرو برسالة طالبا الأمان، وبعد أن اطمأن قلبه بالوعود والأفعال رتب الكثير من الهدايا مع عدد من الحيوانات التي كانت بالمدينة من خيول وجمال وبغــال وذهب إلى تولى، سأله تولى عن أحوال المدينة وأخبارها وتفاصــيل أمــور أغنياء المدينة وكبرائها فأعطاه مجير الملك قائمة بمن فيها من الأشــخاص، فأمر تولى بإحضارهم، وكان لمطالبة هذه الجماعة زلزلة "زلــزت الأرض زلزالها"[1] ، ولاستخراج ما أخفوه من نقود وأدوات زينة فعــل "وأخرجــت الأرض أثقالها"[2].

وبعد ذلك دخل الجيش المدينة وساقوا الخاصة والعامة من كرام ولئام إلى الصحراء، واستمر الناس يخرجون من المدينة طوال أربعة أيام بلياليها، ثم أحاطوا بهم جميعا، وفصلوا الرجال عن النساء.

وا أسفاه، لقد أخرجوا الكثير من الحسناوات من أحــضان أزواجهــن، وفصلوا الأخوات عن إخوتهن، وانتزعوا الأبناء من أحضان أمهاتهم وكثيرا ما ألحقوا الأذى والضرر وأدخلوا الحسرة فــى قلــوب الآبــاء والأمهــات لاغتصاب العذارى والأبكار من بناتهم، وأمر بتعيين ما يزيد عن أربعمائــة شخص من الحرفيين، اختيروا من بين الرجال، وساقوا بعض الصغار مــن الفتيان والفتيات أسرى ثم قتلوا جميع المواطنين بما فيهم النساء وأولادهــن، ولم يبقوا على أرضها من الإنس ديّارًا، وقسموا أهل مــرو علــى الجــيش والجيش الأمامى. وما يمكن قوله إجمالا واختصارا أن كل فرد مــن أفــراد الجيش قد قتل ثلاثمائة أو أربعمائة شخص. وأقدم أربــاب ســرخس علــى الانتقام من قاضى الإسلام كما لو كان شخصا لا علم له عن الإسلام ولا خبر له به، وبالغوا فى إذلاله وإخضاعه وقتلوا الكثير من الناس ليلا حتى أضحت الجبال كثيبا مهيلا[3] واصطبغت الصحراء بدماء الأعزاء والأحباب.

---

(1) سورة الزلزلة، الآية ١.

(2) سورة الزلزلة، الآية ٢.

(3) يذكر القزوينى أن قول الجوينى "وأصبحت الجبال تلالا" لا معنى له وأن الصواب: كوها يعنى كوديهــا – أى الحفر، ورأى بويل أن هذا الافتراض ليس ضروريا ومن الممكن ترجمتها على النحو التــالى: وأصــبحت الجبال تلالا.

فرضنا بأرض لم يَدس فى عراصها سوى خد خود أو ترائب أغيدِ

وأصدر أوامره حتى خربوا الحائط وسووا القلعة بالأرض وأضرموا النار فى مقصورة المسجد التى كانت مخصصة للأحناف أصحاب الإمام الأعظم أبى حنيفة رحمة الله عليه. وكان ذلك انتقاما للحريق الذى أشعله بعض المتعصبين للمذهب الحنفى فى المسجد الجامع الذى شيده شمس الدين مسعود الهروى وزير مملكة السلطان تكش لأصحاب الإمام الشافعى رضى الله عنه.

وحينما فرغوا من أمر النهب والأسر والاغتيال تلقى الأمير ضياء الدين على – الذى كان من أكابر مرو والذى أبقوا عليه لأنه كان من سكان الخلوة – تلقى أمرا بالذهاب إلى المدينة ليصبح أميرا وحاكما على الجماعة التى تتجمع من الزوايا والخبايا مرة أخرى وترك المغول برماس شحنة عليهم.

وحينما غادر الجيش المدينة عاد مرة أخرى كل شخص كان قد اختبأ فى الجحور والزوايا ونجا بنفسه.

فتجمع خمسة آلاف من الخلق مرة أخرى، وفى أثناء ذلك وصلت جماعة أخرى من المغول كانت متخلفة عن الباقين، وأرادت أن تنال نصيبها من التقتيل فأمر "برماس" أن يحمل كل شخص قدرا من الغلة للمغول، ولهذا السبب وقع فى بئر الفناء كثير من المواطنين الذين نجوا منهم قبل ذلك، وتوجهت تلك الجماعة من هناك إلى نيسابور وقتلت كل شخص صادفهم فى الطريق كان قد فر من المغول أو هرب من الصحراء.

وبهذه الطريقة قتل خلق كثير، وبعد هذا وصل طايس الذى هرب وارتد عن يمه نوين إلى مرو، فوضع بدوره مرهما على جراحهم، يضاف إلى هذا أن الجماعة المغولية قتلت كل شخص وجدته حيا وأذاقته شراب الفناء.

نحن والله فى زمان غشوم لو رأيناه فى المنام فزعنا

أصبح الناس فيه من سوء حال حقٌ من مات منهمُ أن يهنا[1]

كان سيد عز التشابه من كبار السادات آنذاك وكان مشهورا بورعه وفضله، وقد استمر مع آخرين فى إحصاء عدد القتلى ثلاثة عشر يوما بلياليها، وبلغ مجموع ما كان ظاهرا من القتلى بخلاف الذين ضمتهم الجحور والأوكار والقرى والصحارى ألف ألف وثلاثمائة ألف قتيل أو يزيد.

وفى هذا المقام انطلق لسان عز الدين منشدا رباعية لعمر الخيام ومناسبة لهذه المقام:

أن مكونات الكأس التى انصهرت معا

لا يستطيع ثمل كسرها وفصمها

وكثير من الرءوس والأقدام العاشقة

قد جمعها على محبة وفرقها على حقد وكراهية

وظل الأمير ضياء الدين وبارماس مقيمين فى مرو حتى سمعا بأمر الفتنة التى أثارها سرخس بهلوان أبو بكر ديوانه بن شمس الدين، وحينما توجه الأمير ضياء الدين مع عدد من الرجال لإخماد الفتنة والقضاء عليه أخرج برماس الحرفيين وغيرهم من أهالى مرو عاقدا العزم على التوجه إلى بخارى فنزل بظاهر المدينة، وظن جمع الناس الذين امتلأت كئوس أعمارهم وتنكر الحظ لهم أنه قد أقبل للشحنة من طرف السلطان وأنه مستعد للفرار والهزيمة، فى الحال دقوا الطبول وأعلنوا التمرد والعصيان. وفى آخر أيام رمضان سنة ٦١٨ وصل برماس إلى باب المدينة وأرسل جماعة لاستدعاء معارف المدينة فلم يتوجه إليه أى شخص ولم يعامله أى منهم باحترام وتقدير، فقتل جميع الناس الذين لقيهم على باب المدينة مبالغة فى الانتقام

---

(١) هذان البيتان نسبهما الثعالبى فى يتيمة الدهر جـ ٢ ص١١٨ إلى ابن الحسن محمد بن حمد المعروف بابن لنكك البصرى- القزوينى.

والتشفى، ومضى مع الجماعة التى كانت فى مصاحبته، وكان الخواجة مهذب الدين باسنابادى من تلك الزمرة، ومضى فى مصاحبته حتى وصل إلى بخارى، حيث ترك نائبا، عنه وبقى أرباب مرو هناك، وحينما عاد ضياء الدين دخل المدينة تحت ستار الاستعداد والتجهيز ووزع الغنائم التى كانت معه على المواطنين وأرسل إليهم ابن بهاء الملك قائلا إنه ابنه. أما هو فلم يتعامل معهم، أعلن العصيان عليهم وعمر القلعة والجدار مرة ثانية واجتمع حوله جمع من الناس، وفى تلك الأثناء وصلت جماعة من المغول رأى من الواجب رعايتهم ومعاملتهم معاملة طيبة وحافظ على بعضهم.

وحينما وصل كشتكين بهلوان من حشم السلطان مع جمع غفير وقام بمحاصرة المدينة أعلن جمع من العامة مخالفته وذهبوا إلى كشتكين وانضموا إليه، وحينما أدرك ضياء الدين أنه لا يمكن إنجاز أى عمل ما مع اختلاف الآراء والأهواء اتجه مع جماعة المغول التى كانت ملازمة له إلى قلعة مرغة، ودخل كشتكين المدينة وأراد أن يضع أساسا جديدا للتعمير وتطوير الزراعة فأقام سدا للمدينة. أرسل جماعة من المواطنين خطابا فى الخفاء إلى ضياء الدين حرضوه فيه على العودة إلى المدينة وشجعوه على ذلك، فلما عاد ونزل إلى بوابة المدينة دخل واحد من خدمه إليها وأخبر أحد الناس بوصول ضياء الدين فوصل هذا الخبر فى الحال إلى سمع كشتكين وخصومه فأرسلوا جماعة قبضت عليه فطالبه بالمال فقال ضياء الدين: لقد أعطيتها للفاحشات. فسأله: من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الأبطال والثقات الذين اصطفوا أمامك الآن هم من اصطفوا أمامى من قبل وحينما دقت ساعة العمل تخلوا عنى وتركونى وعلقوا سمات الغدر على نواصيهم. وحينما علم أنه لا فائدة من وراء ضياء الدين ولا طائل منه ولا مال عنده أدرك كشتكين أن حياته تكمن فى قتل ضياء الدين وظن أن فناءه بقاء لملكه... هدأ خاطره واستراح باله بعد وفاته وتوجه للتعمير والزراعة ورحم مجرى النهر وأصلحه وأقام سدا للنهر وكانت مياه آبار البوار قد خربت عمره وأغرقت ماء حياته فى بئر بواره، وفى أثناء تلك الغفلة وصل إليه خبر وصول قراجة نوين إلى

سرخس مع ألف فارس من الأبطال فادار له ظهره مع ألــف فــارس مــن الأبطال تحت جنح الليل متخذا طرق سنك بست فمضى قراجــة فــى أثــره ولحق به في سنكبشت وقتل غالبيتهم، بينما بقى نوابه لتولى أمور الحكم فى مرو، وبعد ثلاثة أو أربعة أيام وصل إلى مرو مائتان مــن فرســانه كــانوا متوجهين نحو قتفونوين فسار نصفهم لقضاء المصلحة التى كان قد كلف بها واشتغل نصفهم الآخر بمحاصرة المدينة، وأرسل رسلهم على الفــور إلــى سكان مرو فى نخشب بغرض وصول جيش ترباى وقبار على الفور .

وكان الغرباء المقيمون فى الزوايا والأطراف فى الولايات والأطراف البعيدة قد ولوا وجوههم شطر مرو لخصوبتها ووفرة نعمتها وألقوا بمواطنيها الذين دافعوا عنها بعقيدة حب الوطن فى غيابة الجب، وفى خلال خمسة أيام وصل ترياى مع خمسة آلاف رجل ومعه همايون سبهسالار القائــد الملكــى الذى كان يلقب آق ملك واستولى على مرو فــى ســاعة واحــدة وسلــسلوا المؤمنين كالجمال المكممة المخرومة وقطروهم عــشرة عــشرة وعــشرين عشرين فى حبل واحد وألقوهم فى طغار من الدم واستشهد منهم ما يزيد عن مائة ألف، وقسموا المحلات على الجيش فخربوا أكثــر الــدور والقــصور والمساجد والمعابد، وعاد الأمراء مع الجيش المغولى تاركين آق ملك مع قوة صغيرة من الرجال للقبض على كل شخص تسول له نفسه التمرد، كان قــد اختفى وهرب من السيف البتار ولجأ إلى الزوايا فقام بالتجسس والحيل كلما أمكنه ذلك قيام وتحايل رجل لا يخاف الله، فلما أعيته الحيلة اتفق مع رجــل من أهل نخشب كان مواليا لهم فأذن للصلاة داعيا إليها فخرج لسماع صوته كل شخص كان قد اختبأ فى الجحور فقبضوا عليه وسجنوه فــى المدرســة الشهابية، وفى النهاية يلقونه من أعلى المدرسة إلى أسفلها، وبهذه الطريقــة هلك كثيرون آخرون. واستمر على مداومة هذا العمل طوال واحدا وأربعين يوما ثم عاد من حيث أتى ولم يبق فى المدينة بأســرها أكثــر مــن أربعــة أشخاص، ونظرا إلى أنه لم يبق بمرو وما يجاورها أى أثر للجيش فقد توجه إليها كل شخص كان قد لجأ إلى قرية من القرى أو سلك سبيل الــصحراء، وتولى إمارة مرو مرة أخرى ابن أحد الأمراء ويدعى أرسلان واجتمع حوله العامة من الناس، فلما وصل خبر مرو وما حدث فيها إلى نسا كــان هنــاك

تركماني فجمع حوله عددا من التراكمة ثم توجه إلى مرو فانضم إليه كثير من المواطنين حتى اجتمع إليه عشرة آلاف رجل، وظل أميرا عليها لمدة ستة أشهر وأرسل قوات إلى مرو الرودو بنج ديه والطالقان لسرقة مئونة المغول وسَوْق ماشيتهم، وفي تلك الأثناء فإن التركماني رغبة في الاستيلاء على نسا توجه إلى هناك مع أكثر قواته وحاصر المدينة التي كان يحكمها نصرت. واستمر في ذلك حتى سقط عليها فجأة بهلوان من يازر فبدأ في الهروب، وفي أثناء الطريق لحق به حاكم القلعة وقتله، وفي تلك الأثناء كان قراجة نوين قد أتى من حدود الطالقان قاصدا مهاجمته فوصل إلى مرو فجأة مع ألف من الفرسان والمشاة ومرة أخرى وضع الملح على المحروق وقتل كل من صادفه وأطعم غلالهم للجياد ووصل في أثره قتقونوين مع مائة ألف من الناس فبدأ في عقابهم والتمثيل بهم ثم بدأ في مضايقة الخلجيين والغزنويين والأفغان الذين كانوا انضموا إلى الجيش الأمامي عقابا لم ير أحد مثله من قبل، فألقى بعضهم في النار وقتل بعضهم بتعذيب آخر ولم يبق على أي مخلوق، واستمر على هذا النحو طوال أربعين يوما ثم غادروا المدينة ولم يبق في المدينة والقرية مائة شخص لم يبق معهم من الطعام ما يفي بحاجة هذا العدد المحدود من الضعفاء، وبالإضافة إلى تلك الحوادث فإن شخصا باسم شاه مع بعض العامة والسفهاء قد بقوا في الجحور والكهوف. وقتلوا كل ضعيف صادفوه، فتفرق الضعفاء الذين كانوا قد بقوا سوى عشرة أو اثني عشر من الهنود الذين استقروا في ذلك المكان منذ عشر سنوات ولم يكن هناك أي ديار في تلك الديار:

لياليَ مروِ الشهاجانِ وشمْلُنا	**جميعٌ سقاك الله صوب عماد**
سرقناك من صرف الزمان وريبه	**وعين النوى مكحولة برقاد**
تنبه صرف الدهر فاستحدث النوى	**وصيَّرهم شتى بكل بلاد**

ذكر واقعة نيشابور

إذا كان من الممكن أن تقارن الأرض بالأفلاك، فإن بلادهـا بمثابـة النجوم لها، فإن نيشابور هى زهرة السماء بين كواكب الزهرة، وإذا مثلت بالنفس البشرية فإنها من الممكن أن تكون عين الإنسان لما تتمتع بـه مـن نفاسة وعزة:

ومـاذا يـصنع المـرء	**ببغـداد وكوفـان**
ونيـشابور فـى الأرض	**كالإنسان فى الإنـسان[١]**

يا حبذا مدينة نيشابور التى إذا كانت على الأرض جنة كانت هى، فإذا لم تكن هى لم يكن على ظهر الأرض جنة.

وتوجه السلطان محمد من بلخ قاصدا نيشابور، وقد اضطربت أحواله واستولى عليه فزع اليوم الأكبر وظهر الخوف والجبن فى أقواله، ذلك أن ما يحدث على وجه الأرض من أمور هو من تأثير الأفلاك، إلا مـا تخيلتهـا الجبال لحظة واحدة زلزلت أجزاؤها أبد الدهر زلزالها، وانحلت أوصالها.

صُبت علىَّ مصائب لو أنهـا صبت على الأيام صرن لياليا

وتراكمت عليه بالإضافة إلى تلك الأهوال حوادث وهمية مـن أمثـال الرؤى والتفاؤلات حتى استولى عليه العجز والقصور كلية وعجـزت قـواه الفكرية ومخيلته عن التفكير والتدبير واستعمال الحيل.

---

(١) من أبيات لأبى الحسن محمد بن عيسى الكرجى وكان من ندماء السلطان محمود الغزنوى، ذكرها الثعـالبى فى تتمة اليتيمة فى حديثه عنه.

وذات ليلة رأى السلطان فى منامه أجسادا نورانية، شــعث الوجــوه، شعورهم مبعثرة مغبرة، يتشحون بثياب سوداء كمعزيات ربطن رءوســهن وأخذن فى النواح والعويل، فسألهم: من أنتم؟ فأجابوه: نحن أهــل الإســلام "وتكشفت له أمور كثيرة".

وفى تلك الأثناء، وبينما كان ذاهبا لزيارة مشهد طوس، رأى فى دهليز ذلك المشهد قطتين تتعاركان إحداهما بيضاء والأخرى سوداء تمثلان حالــه وحال أعدائه، فتفاعل بهما ووقف ناظرا إليهما، فلما غلبــت قطــة الخــصم وقهرت قطته انطلقت منه آهات الحسرة ومضى فى طريقه.

أهاجك والليل ملقى الجــران   غراب ينوح على غصن بانِ

يحق لعينيك أن لا تجــــــف   دموعهما وهمــا تقطـــــرانِ

ففى نعبات الغراب اغتــراب   وفى البان بين بعيد التدانـــى

ونتيجة لاستيلاء جيوش الهم والغم عليه تحول ليل الشباب إلى صباح الشيخوخة وقد ثارت على الكافور من الغالية المسك وغطى الجرب ســائر أعضائه لما احتواه فى باطنه من حمى وآلام، فظهرت حبيبات فوق جــسده كأنها فقاعات طافية فوق سطح ماء يغلى.

حكى والدى: إن السلطان حينما هُزم، وفى أثناء توجهه من بلخ، صعد ذات يوم إلى ربوة عالية ليستريح من عناء ما حدث، وأخذ يتــذكر مفــاخر أعماله ويتعجب مما فعله الزمان به، ثم نظر إلى جدك شمس الدين صــاحب الديوان وتنهد حسرة وألما وقال: إن الشيخوخة والإدبار والصمم قد اجتمعوا وأحاطوا بنا وولى الشباب والإقبال والصحة وأداروا ظهورهم لنا، فما البلسم الشافى لتلك الآلام التى هى ثمالة كأس الزمان؟ ومضى إلى حدود نيــشابور كاسف البال حزينا، ودخل المدينة فى الليلة الثانية عشرة من صفر سنة سبع عشرة وستمائة، وكان لشدة خوفه وهلعه الذى استولى عليه يبث الرعب من

جيش التتار فى قلوب جميع الناس، ويتأسف على تخريب القلاع التى شيدها إبان أيام السعادة والهناء ظناً منه أنها من الممكن أن تكون عونا له فى وقت المحنة، وكان يحرض الناس على الجلاء ومفارقة البلاد، ويقول: إن كثـرة الجموع لا يمكن أن تكون مانعا ودافعا لجيش المغول. وحقا إن هؤلاء القوم إذا ما وصلوا إلى هذا المكان الذى هو مفخرة كل البقاع وسكن صدور هـذه المملكة فإنهم لن يُبقوا على أحد حيًا، ويحصدونهم جميعا بسيف الفناء، ويقع نساؤكم وأبناؤكم فى ذل الأسر وشَرك الهوان، عندئذ لن يكون هناك مفر أو مهرب، فإذا تفرقوا الآن كتبت النجاة لأكثرهم أو القليل منهم، ولما كان جلاء بنى آدم عن أوطانهم – نتيجة حبهم الشديد لأوطانهم- بمثابة خروج الـروح من البدن، فقد ذكر الجلاء فى القرآن المجيد فى مقابل العذاب الشديد حيـث قال فى محكم آياته وهو أصدق القائلين: "ولولا أن كتب الله علـيهم الجـلاء لعذبهم فى الدنيا"[1]، ولما كانت يد الأجل قد أطبقت عليهم وأمسكت بخنـاقهم وأصبح لها حكمُ "وهو أقرب إليكم من حبل الوريد" أعرضوا عـن التفـرق، وحين أدرك السلطان أن نصيحته لهم لم تلق آذانا واعيه، أمر بترميم السور وتعمير الحائط رغم أنه كان يعلم أن قوة العضد لن تفيد، وتحصين المكان لن يفلح، فاشتغل الناس بتعمير ما أمر، ولم تكن أخبار الجيش المغولى تترى فى تلك الأثناء، بل انكسرت حدتها فظن السلطان أن الجيش المغولى لن يعبـر النهر قريبا، ولجأ إلى الهدوء والسكون، وأرسل السلطان جلال الدين إلى بلخ للمحافظة عليها، ولكنه لم يكد يقطع منزلا واحدا من منازل الطريـق حتـى سمع بعبور يمه وسبتاى للنهر واقترابهما، فعاد مرة ثانية، أمـا الـسلطان – خوفا من بث اليأس فى النفوس- فقد امتطى صهوة الجواد زاعما الخـروج للصيد، وشق طريقه، وترك أكثر تابعيه هناك.

رحل الأمير محمد فترحلـــت　　　عنها غضارة هذه النعماء

والدهر ذو دول تنقل فى الورى　　　أيـــامهن تنقل الأفيـــاء

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٣.

فترك فخر الملك نظام الدين أبا المعالى كاتب جامى وضياء الملك عارض زوزنى مع مجير الملك كافى عمر رخى لإدارة نيشابور ورعاية مصالح أهلها بالاتفاق فيما بينهم، وحين غادر السلطان المدينة توجه شرف الدين أمير المجلس – الذى كان خادما، وركنا ركينا من أركان السلطان– من خوارزم إلى نيشابور حيث عُيِّن حاكما عليها.

ولكنه بعد أن قطع ثلاثة منازل من الطريق أدركته المنية، فأخفوا خبر وفاته حتى لا يسرق الغلمان خزانته وأمواله. خرج مجير الملك مع جيش متعللا باستقباله، وأحضرهم إلى المدينة، ولكن الغلمان رغبوا عن الإقامة بها ومضوا فى أثر السلطان، وفى اليوم التالى وكان التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وستمائة وصل طايسى مقدمة جيش يمه وسبتاى إلى المدينة، فساق منهم أربعة عشر فارسا، ساقوا أمامهم قطعانا من الجمال، وسمعوا بخبر غلمان شرف الدين، فعدا بعض الفرسان فى أثرهم، ولحقوا بهم على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة، فقتلوهم جميعا وكانوا ما يقرب من ألف فارس، وجدُّوا فى البحث عن أحوال السلطان سائلين كل شخص صادفوه، مستخدمين فى سبيل ذلك شتى صنوف العذاب والإيلام، ودعوا أرباب المدينة للاستسلام فأجابهم مجير الملك قائلا: إنى حاكم هذه المدينة من قبل السلطان وإنى رجل هرم ومن أهل القلم، وأنتم ذاهبون فى أثر السطان فانطلقوا إليه، فإن أدركتموه ، وانتصرتم عليه، فالملك لكم، وأنا عبد لكم.

وأعطوا الجند ما يلزمهم فى ذلك اليوم من طعام، ثم انصرفت تلك الجماعة، وكان الجيش يصل يوما بعد آخر، يأخذ مئونته ثم يرحل حتى وصل يمه فى غرة ربيع الآخر استحضر القاضى وشيخ الإسلام والوزير حتى يرتبا لهم ما يلزمهم من مئونة وخدمات، فأرسلوا إليه ثلاثة أشخاص من أواسط الناس فى هذه الأثناء فأعطاهم خطابا مكتوبا بالخط الأويغورى وأوصاهم بتقديم الطعام لكل شخص يصل إليهم، وأن ينقضوا الجدر ثم انصرف.

وتركوا جمالهم فى كل موضع أعلن الاستسلام لهم وتركوا شحنة عليه من قبلهم، ونظرا إلى أن الجيش المغولى فترت همته قليلا وأصبح سيره وئيدا فقد شاعت الأراجيف وذاعت مرددة خبر انتصار السلطان فى العراق، ووضع الشيطان الوسواس بيضة الخلاف فى رعوس الناس، فأرسل شحنة طوس - الذى عينه المغول - الرسائل عدة مرات إلى شادياخ طالبا الاستسلام ونبذ أحاديث الخصام.

كانوا يجيبونه إجابات قاسية، وفى تلك الأثناء فإن قائد الجيش الأمامى الذى جُمع من طوس الملقب بسراج الدين، وهو أخرق يبعد عنه العقل بمقدار ألف فرسخ، قتل الشحنة الذى كان عليهم وأرسل رأسه إلى نيشابور، ولم يعلموا أن قتل ذلك الرأس قد تسبب فى قطع رقاب الكثيرين وأثارا شرًا مستطيرا من غفلته، وكما يقولون "شرٌ أهرٌ ذو ناب".

هرب سيد بوتراب -الذى عينه سيدا على سادة طوس- إلى أستوا خوفا من أرباب طوس وقادتها، وأخبر قشتمور - الذى تركوه مع ثلاثمائة فارس للإشراف على الدواب - بقتل الشحنة والثورة التى اندلعت، فأرسل رسولا إلى الأمراء لإخبارهم بما حدث، وتوجه من أستوا إلى طوس مع ثلاثمائة فارس وهاجم سراج الدين - الذى كان قد تولى الإمارة فى طوس وبجانبه ثلاثة آلاف رجل- فجأة فقتل أكثرهم وخرب قلاع المدينة قبل أن يصل الجيش الكبير، وحين وصل تغاجار كوركان[1] - وكان صهر جنكيز خان - ومعه الأمراء الكبار على رأس قوة تضم عشرة آلاف رجل كمقدمة لجيش "تولى" أسرعوا فى سيرهم حتى وصلوا إلى نيشابور فى أواسط شهر رمضان.

ولكن أهل نيشابور أعجبتهم كثرتهم، وغرهم عدد الجيش المغولى القليل فلم يمعنوا النظر فى أمرهم وخرجوا إلى المغول وقاتلوهم حيث ثقفوهم.

---

(١) كوركان بمعنى صهر -حاشية القزوينى، صفحة ١٣٧.

ونظرا إلى أنهم قد يئسوا من الحياة فقد صارعوا الأسد ، وركبوا تهكما وسخرية مع التمساح فى سفينة، حتى إذا حل اليوم الثالث اشتد وطيس القتال من ناحية برج قراقوش وانهالت السهام الدائرية وسهام القضاء من الحائط والسور، ولسوء الحظ، ولهلاك الناس جميعا، انطلق أحد السهام فأصاب تغاجار فى مقتله فأرداه قتيلا، وفرغ أهل مدينته من أمره ولم يعرفوا بأمر مقتله.

وحين انسحب الجيش وقام مقامه توركاى نوين[1] قسم الجيش قسمين وتوجه بنفسه إلى سبزاور، واستولى عليها بعد قتال عنيف استمر ثلاثة أيام بلياليها وقتل جميع من فيها، حتى قُدر من دفن منهم تحت أديم الأرض بسبعين ألفا من البشر، وتوجه نصف الجيش الآخر إلى طوس لمعاونة قشتمور، ففتح بقية القلاع التى عجز جيش قشتمور عن فتحها.

وعلى الرغم مما أبداه أرباب نوقان وقار[2] من مقاومة عنيفة وشجاعة فائقة، فقد تمكن فى النهاية من الاستيلاء على المدينتين، وقتل جميع سكانهما وتم الاستيلاء على نوقان وسمرقند فى الثامن والعشرين من شهر رمضان[3] وقتل جميع من فيهما.

وكان أهالى نيشابور يعلنون التمرد والعصيان وكانوا يرسلون جماعة من الرعاع للقبض على أية فرقة من الجيش المغولى تظهر فى أى مكان.

وارتفعت أسعار الأشياء فى نيشابور فى ذلك الشتاء، ومُنع المواطنون من الخروج ولهذا أصاب الناس قحط شديد وأصبحوا مستضعفين أذلاء.

---

(١) يذكره بارتولد Bwrakay ويذكره النسوى Borke وذكر هوداس Boyle p. 175/ yerke.

(٢) يذكر Boyle أننا من الجائز أن نقرأ قار Fash أو Faz وهى بلدة ولد بها الفردوسى.

(٣) الموافق ١٦ من نوفمبر سنة ١٢٠١.

وحينما حل ربيع سنة ثمانى عشرة وستمائة وفرغ تولى من أمر مرو توجه إلى نيشابور دون أن يعلم أحد بقدومه، وأعد جيشا كثيفا أرسله إلى ولاية طوس فتمكن من الاستيلاء على جميع قراها دفعة واحدة، وقتل كل من نجا من حد السيف من المواطنين وألحقهم بإخوانهم.

وأرسل فى المقدمة جيشا جرّارًا إلى شاد ياخ مجهزا بآلات المنجنيق والأسلحة، ومع أن نيشابور منطقة جبلية فإنهم حملوا حجارة من مناطق تبعد عنها عدة منازل وأحضروها معهم، وجمعوها فى أكوام وتلال كأكوام المحاصيل ولم يُستخدم عُشرها فى القذف والرمى.

وحينما رأى أهالى نيشابور أن الأمر جد وأن هذا القوم ليس كمن رأوا من قبل، ومع أنهم كانوا يمتلكون ثلاثة آلاف آله من السهام المعدة للعمل فوق الجدار، ونصبوا ثلاثمائة من المنجنيق وآلات القذف وجهزوها بما يلزمها من أسلحة ونفط، فقد اضمحلت قوتهم ووهنت عزائمهم وأصابهم الهلع وعجزوا عن فعل أى شيء سوى إرسال قاضى الممالك ركن الدين على بن إبراهيم المغيثى إلى تولى، فلما وصل إليه طلب الأمان لأهل نيشابور وقبِل دفع الجزية، ولكن هيهات أن يجاب مطلبه، فقد ضاعت أقواله سدى ولم يُسمح له بالعودة كذلك.

وفى يوم الأربعاء الثانى عشر من شهر صفر ملأوا كأس الصبوح على الصباح بالحرب والقتال، واستمر الحال فى هذا المنوال حتى صلاة الجمعة فاشتد وطيسها وحمى أوارها، وكان المغول فى أثناء ذلك قد أطموا الخندق فى عدة مواضع، وأحدثوا بالجدار تصدعا، ونظرا إلى أن الحرب كانت ضارية على بوابة الجمالة وبرج قراقوش، وكان بجوارهما كثير من رجال الحرب الأشداء، فقد رفع المغول علمهم على جدار سروكوشك، وصعد الجيش المغولى ودخلوا فى حرب مع الرجال الذين كانوا فوق الجدار بينما دخل جيش آخر من بوابة "شتربانان" الجمالة.

واستمروا طوال اليوم حتى المساء يصعدون الجدر ويبعدون الناس عنها، حتى إذا ما حل مساء السبت امتلأ الحائط والفصيل بالجنود المغول، وفى هذا اليوم وصل تولى على بعد ثلاثة فراسخ من جنكيز، فدخل الجنود من البوابات وبدأوا أعمال القتل والنهب، وكان أهالى المدينة المختفون فى الدور والقصور والزوايا يحاربونهم، وطلب المغول مجير الملك وجدّوا فى البحث عنه حتى أخرجوه من أحد الملاجئ، وحتى لا يخرجوه من ربقة الأحياء سريعا فقد حدثوه حديثا قاسيا أليما حيث يميتونه ذليلا كسيرا مهيض الجناح.

وساقوا من بقى من الناس رجالا ونساء إلى الصحراء وأُمروا انتقاما لتفاجار بأن يخربوا المدينة فتركوها أرضا صالحة للزراعة، ولم يتركوا بها ديارا أو نفسا ينبض بالحياة حتى الكلاب والقطط، كل هذا قصاصا لمقتله.

ودخلت ابنة جنكيز - وكانت زوجة لتفاجار - إلى المدينة مع فرسانها وقضوا على كل شخص كان قد بقى حيا بها سوى أربعمائة فرد من المهنيِّين فقد أخرجوهم وحملوهم إلى تركستان، ويوجود الآن من نسلهم بعض الأبناء، وفصلوا رءوس القتلى عن أجسادهم ثم جلسوا وفصلوا الرجال عن النساء عن الأولاد.

وحين عزم تولي على الذهاب إلى هراة، ترك عليها أميرا مع أربعة[1] من التاجيك حتى يُلحِقوا من يجدوه حيًا بالسابقين، وأقاموا الولائم للذباب والذئاب من صدور الصدور والأعيان، وعيَّدت الصقور على قمم الجبال بلحوم الغيد الحسان، ورتبت النسور الولائم والاحتفالات من نحور الحور.

---

(١) فى النسخة أربعمائة.

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم فكأنهم كانوا لها أرواحا

تساوت الأماكن والمساكن بالثرى، وأطرق كل إيــوان كــان يطــاول السماء علوًّا وارتفاعًا رأسه ذلة وخضوعًا وابتعدت الــدور عــن العمــارة والسرور , وأصبحت القصور بعد العز والإباء ذليلة فى أحــضان القبــور والهوان، وصار الحمام موقدًا وتنورا، وأضحت صفوف البقاع قاعا صفصفا.

بلى استعبدته الحادثات فأصبحت خواشع تعتاد السجود ربــــاه

وعهدى به كالمندل الرطب عوده يبيسا، وكالمسك السحيق ثراه

ذكر جلوس سلطان العالم قا آن على عرش المملكة وتولّيه مقاليد السلطة

حين امتحن الحق - تقدست أسماؤه وعظمت نعماؤه - عباده بدلالة الآية الكريمة" ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات"(١) وصهرهم في بوتقة تجربة العناء والبلاء...

إنك تقذف بى فى نار البلاء كالطين، وتختبرني على حجر الامتحان كالذهب، ونال كل واحد منهم جزاءه نكالا حسب خبث فعاله، وتذوق كل واحد منهم شرابا وبيلا جزاء لسوء أعماله ورجس خصاله، وشرب كأسَ "جزاء سيئة بمثلها"(٢)...

وطبقا لما هو مقرر بأن لكل أمر غاية، ولكل بداية نهاية، وإذا تم أمر دنا نقصه، وقال عليه الصلاة والسلام: لن يغلب عسر يسرين...

نتيجة لهذا كله فقد وجب عقلا ونقلا أن تفتح من جديد خزائن رحمة البارئ جل جلاله، وأن تعم من جديد أسباب الرفاهية والراحة عباده، وأن تسبق نعائم بره ورحمته الواسعة أنواع عذابه وعقابه، وفقا للحديث القدسى: "سبقت رحمتى غضبى"، وأن تلحق أولياتها بأخرياتها.

حينما أصل إلى فترة اليأس من عمرى ويحمل جسدى أحمالا من الذنوب فإنى لن أيأس من رحمة الخالق، فذرة واحدة من رحمته تصل الخلائق جميعا وتغسل ذنوبهم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

(٢) سورة يونس: الآية ٢٧.

ويظهر أثر ذلك بالتدريج وتتضح سماتها، وتشبيب هذه المعانى وتركيب هذه المبانى منبئ بالحديث عن انتقال الملك إلى ملك ملوك وسلاطين العالم أوكتاى قا آن ومنكوقا آن، وطبقا للترتيب والولاء فسأبدأ أولا بالحديث عن جلوس قا آن وسألتزم فى ذلك أسلوب الإيجاز والاختصار، حتى لا تتهم الجماعة التى تتكرم بمطالعة هذه الكتاب مؤلف هذه الحكايات بأنه ثرثار مكثار، ويقفوا على الهدف من ثبتها وذكرها، ويعلموا كيف ضبط القا آن الأمور ورعى صالح الجمهور وكيف عامل الأقاليم الأخرى التى توقفت بين اليأس والرجاء، وكيف أخضع بعضها بالتخويف والوعيد والأخرى بالإيناس والترغيب، فانقادت لحكمه وأذعنت لأمره وانضوت تحت سلطانه، وكيف أقام منكو قا آن - بعد وفاة أوكتاى - صرح العدل بعد ما أصابه من ميل وانحراف وكيف رفع لواءه وشيده، منحه الحق تعالى توفيق الصدق وصواب الكرامة.

كان اسم القا آن قبل توليه مقاليد السلطة هو أوكتاى، وكان جنكيز خان قد استدل من أفعاله ونوادر أقواله على استعداده للحكم والعرش وإدارة الجيش، وكان ينظر بإعجاب إلى قدرته على حل الأمور وعقدها ورتق الأمور وفتقها، ويوما بعد يوم ظهرت آثار شهامته وصرامته فى إدارة دفة أمور الدولة فكان جنكيز خان يتنبأ بقدرته على حفظ الدولة وصونها من يد أعدائها وتفرس فيه تلك المقدرة، فكان يجد وكان يغرس بذرة تلك المصلحة فى أعماق ضمائر كل واحد من أبنائه.

حتى إذا ما رجع جنكيز خان من الممالك الغربية إلى مخيمه الشرقى القديم، وتوجه من هناك إلى ولاية التنجوت[1]، وبعد أن طهر تلك النواحى من شر الأعداء واستسلمت له قيادتها وسلس قيادها له، زادت عليه وقت

---

(١) يذكر جورسيه Gorousse صفحة ٣٠٩ أنه توجه لمحاربتهم لتقاعسهم فى إمداده بالجيوش اللازمة له فى أثناء حروبه مع الدولة الخوارزمشاهية، وأشار التاريخ السرى للمغول إلى ذلك فقال إن أحد الأشراف التنقوت قد رد على طلب جنكيز بقوله: "لو أن جنكيز لم يعد يملك القدرة التى تلزمه للحرب فهو لا يستحق الملك".

انصرافه وطأة المرض الذى داهمه نتيجة عفونة الجو فـــى تلـــك الأنحـــاء واستفحل خطره وأصبح علاجه ميئوسا منه، فاستدعى إليه أبنـــاءه جغتـــاى وأوكتاى وألغ نوين[1] وكلكان وجورجتاى وأورجان[2]، وقال: " لقد تجـــاوز المرض الحد الذى يمكن فيه معالجته، وفى الحقيقة يجب على واحد منكم أن يحافظ على العرش ويمسك بناصية السلطة، ويقبض على يـــد الملـــك، وأن يرفع القاعدة التى أحكم بناء أساسها".

يكفيه إن نحن متنا أن يسب بنا وهو إذا ذكر الآباء يكفينا

ذلك أنه إذا كان الأبناء جميعا يريدون أن يكونوا ملوكـــا وحكامـــا ولا يريد آخر أن يكون محكوما يكون مثلهم كمثل التنين ذى الـــرأس الواحـــدة، والآخر المتعدد الرءوس التى جرى ذكرها فى أول الكتاب.

فلما فرغ من أمر هذه الكلمات والنصائح التى تنظم أمـــورهم وتنفـــذ أوامرهم – على النحو الذى سبق- نهض الأبناء المذكورون وجثـــو علـــى ركبهم وقالوا:

الوالد[3] هو السلطان ونحن عبيده، وقد أحنينا الرءوس إذعانا لحكمـــك وامتثالا لأمرك ورأيك.

عندئذ قال جنكيز خان: "إذا كنتم راغبين فى أن تعيشوا فى نعيم ودلال وتمضوا حياتكم فى عز وهناء وتتمتعوا بالملك، فرأيى الذى أسمعته لكم الآن هو أن يخلفنى أوكتاى على عرش السلطة لما يتميز به بينكم من رجاحة عقل وصواب رأى، كما أنه يستطيع بيمن رأيه وحسن تدبيره أن يرعى الجـــيش والرعية ويحافظ على ثغور المملكة.

---

(١) لقب تولى خان – حاشية القزوينى.

(٢) أورجتاى، مع حذف حرف القاف، وحذف حرف الحلق الذى بالوسط قاعدة مطردة فى اللغة المغولية.

(٣) الشاهنامة، الفردوسى.

ولهذا كله فإنى أعينه وليا للعهد خلفا لى، وأضع مقاليد الحكم فى قبضته الصارمة وكفاءته النادرة، فما رأيكم أيها الأبناء فى هذه الفكرة؟".

فجثوا على ركبهم مرة أخرى مقرين ومذعنين وأجابوا بالطاعة والقبول قائلين: "من يستطيع الاعتراض على قول جنكيز خان؟ ومن له القدرة على الرد عليه.

فتح الفلك السمعين، وأرهف الزمان الأسماع

استعدادًا لتنفيذ كل حكم يقره رأيك ويأمر به

وصلاح أمورنا وأمور حشمنا منوط بتفيذ الرأى الذى يقره جنكيز خان، وصواب الأمور مفوض باتباع إشاراته".

فقال جنكيز خان: إذا كانت النية موافقة للقول وما يقر به اللسان وينهج به مطابقا لما يحتويه القلب بين ثناياه فيجب أن تقروا وتعترفوا كتابة باختياركم أوكتاى سلطانا عليكم من بعدى، وأن يكون حكمه نافذا وساريا بينكم سريان الروح فى الجسد، وأن لا تغيِّروا أو تعدلوا شيئا مما تقرون به اليوم أمامى، ومن المصلحة أن لا تحيدوا عن رأيى.

فامتثل جميع إخوة أوكتاى للأمر وأقروه كتابة... وتوفى فى الرابع من رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة[1] بعد أن اشتدت وطأة المرض عليه وتعذر عليه النهوض من مقامه.

تحرك الأبناء كل إلى موضع إقامته عاقدين العزم على الاجتماع فى العام الجديد ذلك الاجتماع الذى يسمونه باللغة المغولية قوريلتاى، ووصل كل منهم إلى معسكره واستعدوا لهذا الاجتماع الكبير ، قوريلتاى ، فلما انكسرت حدة برودة الهواء وخفت شدة البرد وتحسَّن طقس البقاع والرباع لهبوب نسيم الصَّبا وأضحى الجو جميلاً والنسيم عليلا وزينت ريح الصَّبا دار الدنيا بالخضرة واكتسى وجه الأرض ببساط سندسى...

---

(١) يذكر Grousset أنه مات فى هذا التاريخ الموافق ١٨ من أغسطس سنة ١٢٢٧، وينقل عن بليو رأيه القائل إنه بهذا يكون قد مات فى الستين من عمره، ويضيف أنه توفى قبل أن تسقط عاصمة التنقوت، صفحة ٣٠٩.

أضحت الدنيا نموذجا لجنة العقبى وريح الصبا بتحقيق معجزة إحياء الأرض بعد موتها، وتكون قد سُرقت جميع معجزات عيسى عليه السلام.

وأرسل الأبناء السابق ذكرهم والأقرباء الرسل تترى لنشر خبر وفاة جنكيز خان فى أطراف العالم فشاع الخبر ، وأشاروا إلى ضرورة عقد اجتماع كبير لبحث حالة البلاد خشية أن يقع فيها ما يسيء إليها ويشيع الخلل والاضطراب فى أوصالها وحتى يقروا ما فيه مصلحة المملكة فتحرك كل واحد من معسكره ومضوا لحضور القوريلتاى، فوصل من ناحية القفجاق[1] الأبناء توشى وهردو وباتو وشيبقان وتنكوت وبركة وبركجار وتغاتيمور.

وتوجه جغتاى من قناس، وأوكتاى من إيميل قوناق، ووصل من ناحية المشرق أعمامهم أوتكين وبيلكتاى نوين[2] وإيلجناى نوين ويكو Yeku ويسونيج Yesungei[3]، ووصل كبار الأمراء وصغارهم من كل ناحية كانوا فيها.

وأما ألغ نوين[4] وإخوته الصغار فقد كانوا فى معسكر جنكيز خان.

اجتمعت الجماعة السابق ذكرها بتمامها فى ذلك المعسكر المقام بكلران، ولما كانت الدنيا قد أضحت ضاحكة لحلول الشمس فى منزل الحَمَل، وبكى الهواء من خلال عين السحاب المدرار...

ورد الربيع بحسنه وبهائه　　　فحكى هوى العشاق طيب هوائه

وتفتحت الرياحين والورود فى الخمائل، وتغزلت الفاختات طيب هوائه

---

(١) يذكر Boyle أنهم من الأتراك وقد سيطروا على مناطق الإستبس فى جنوب روسيا لمدة ٢٠٠ عام قبل الغزو المغولى The history of the world conqueror p. 183، وكان القفجاق فى نزاعهم مع المغول قد استعانوا بالروس وكانت بينهم مصاهرة فكان هناك جيش روسى مكون من ٨٠ ألف جندى روسى على مقربة من المعارك Grousset p. 308.

(٢) الأخ الخامس لجنكيز خان –جامع التواريخ جـ ٢ صفحة ١٠٠.

(٣) فى نص القزوينى الاسمان غير واضحين فنقلتهما عن Boyle.

(٤) لقب تولى بن جنكيز خان.

وغنى الحمام وشدت البلابل بمائة من الأنغام والأغنيات بألف من الألحان إعجابا بالخمائل والجنات ومدحا لها.

والآن يجب أن نحتسى خمرا سائغا شرابها، فرائحة المسك تنبعث من النهر.

وامتلأ الهواء بالصراخ والأرض بالحركة والاضطراب، وسعيد ذلك القلب الذى ينعم بالشراب، واجتمع أبناء الإمبراطور وكبار الأمراء وصغارهم، مع جيش كثيف ضاقت بهم الأرض بما رحبت واكتظت بهم الصحراء وعجزت مع اتساعها عن احتوائهم.

إذا خاض بحرا لم يبقِّ صدورَه لإعجازه فى البحر بغية شارب

وإن رام برا لم يدع سرعانه لساقية فى البر وقفة راكب

وأقاموا فى بداية الأمر الاحتفالات والولائم التى استمرت ثلاثة أيام بلياليها قضوها جميعا فى فرح وسرور مبرأة ضمائرهم وسرائرهم من شوائب الغل والحسد.

وجنوا زهرة التصابى وأدنوا شجر الوصل يانع الثمرات

فى محل سقوا به رغد العيش وعز الهوى وطيب الحياة

وبعد عدة أيام تحدثوا فى أمور الملك وناقشوا وصية جنكيز خان، وأعادوا الاطلاع على الوثيقة التى كان الأبناء قد كتبوها ثم أقروا لأوكتاى بالسلطة وأقروا تلك المصلحة، واتفق الأبناء جميعا اتفاقا لا يشوبه خبث أو نفاق وقالوا لأوكتاى: إنك امتثالا لأمر جنكيز خان، والمؤيد بالعون الإلهى، يجب أن تحكِم القبضة على السلطة –تضع القدم فوق يد السلطة – حتى تخضع لك جميع الرقاب وتقر لك بالانقياد والطاعة، وتمتثل العين والأذن لإشارتك وتصبح رهن أوامرك.

فأجاب أوكتاى: "مع أن كل ما أمر به جنكيز قد نفذ فإن هناك الأخ الأكبر والأعمام الذين هم أكثر استحقاقا منى بهذا العمل والتزاما بهذا الأمر.

وطبقا لقانون المغول فإن الابن الأصغر من البيت الأكبر هو القائم مقام والده ووريثه فى الحكم ، وألغ نوين هو الابن الأصغر من المعسكر الكبير، وكان ملازما لجنكيز خان ليلا ونهارا فى كل وقت وحين صباحا ومساء ورأى وسمع هذه العادات والقوانين ويعلم كيف تولى مقاليد السلطة على الرغم من وجودهم وحضورهم".

وأمضوا فى ذلك اليوم حتى المساء فى تشاور تغلفه الغبطة والسرور واستمروا على هذا النحو أربعين يوما يرتدون فى كل يوم ثوبا جديدا ذا لون مختلف ويشربون كئوس الخمر، وكانوا يبحثون أمور الملك فى أثناء ذلك وكان أوكتاى يلتزم بهذه المعانى فى كل يوم ويكررها فى عبارة دقيقة... وحينما انتهت الأيام الأربعون وتبسهم ثغر يوم الحادى والأربعين وأشرق صباحه...

حينما أشرق الصباح بالفأل الحسن ، وارتفع علم الدنيا المضيء

وتكشر وجه الحبشى وتقطب جبينه وخرجت مرآة العين من العين

وانتظمت عقود اجتماع الأمراء والأحرار والعبيد، واستقامت أمور الاحتفال وأقبل الأمراء عن بكرة أبيهم متفقين صوب أوكتاى وقالوا: إن جنكيز خان قد فوض إليك هذا الأمر من بين الأبناء والإخوة، وأوكل إليك النظر فى حل الأمور وعقدها وأناط برأيك نقضها وإبرامها، فكيف يتسنى لنا إجراء تغيير أو تبديل فى هذا القول؟ وكيف نجيز لأنفسنا نقضه؟ واليوم بإجماع المنجمين ورجال الدين الشامانى[1] يوم مسعود ، ووقت مبارك ومحمود، فيجب عليك أن تتبوأ مكانك على العرش بعون البارئ عز اسمه، وأن تزين الدنيا بالعدل والإنصاف وحميد الأعمال.

---

(١) القامان رجل الدين الشامانى الذى يعرف السحر، وقد عاشت الشامانية بين المغول قبل عصر جنكيز خان وبعده. ويقول Bawden : ومن المؤكد أن الشامانية ما زالت موجودة بين المغول حتى يومنا هذا .

وبعد إلحاح من جانب الأمراء والأعمام وإعراض وصدود من ناحية أوكتاى رأى من الواجب الالتزام بما أوصى به والده وأقره الإخوة والأعمام. وطبقا لعادتهم القديمة فقد رفعوا قلانسهم من فوق رءوسهم وقذفوها خلف ظهرورهم، وفى سنة ٦٢٦ أمسك جغتاى بيده اليمنى وأوتكين بيده اليسرى وأجلسوه على سرير السلطة مؤيدًا بالحظ الشاب السعيد وبرأى الشيخ المجرب السديد، وأخذ ألغ نوين كأسا طاف بها ثلاث مرات على جميع الحاضرين داخل الحضرة وخارجها، الذين جثوا على ركبهم ضارعين داعين له قائلين: بارك الله ملكه بحكمه وسلطته.

وإذا الدر زان حسن وجوه — كان للدر حسن وجهك زَيْنا

وتزيدين أطيب الطيب طيبا — أن تمسِّيه أين مثلك أينا؟!

وأسموه القا آن، ووفقا للمألوف من عاداتهم فقد ركع الأمراء للشمس ثلاث مرات خارج المعسكر خضوعا للقا آن وتعظيما له، ثم عادوا إلى داخل المعسكر مرة أخرى وعقدوا مجالس الطرب واللهو، وشذبوا ميادين النشاط من أشواك الوحشة والبغضاء.

ارتقى السلطان مالك العالم سلم الحظ السعيد مؤيدا موفقا ودخل الأمراء الحضرة السلطانية عظماء كالجوزاء قبل شروق الشمس بعظمتها واقتدارها، وعلى يسار كل واحد منهم حسناء فاتنة ذات ملاحة ويسار كأنهن الأزهار لفرط ما ينعمن به من طراوة ونضارة وكأنهن لما ظهرن به من لطافة ونظافة خضرة الربيع السندية.

ووجهها الذى يشبه روضة الورود، ربيع عالم الروح

ووجهها كبستان، جعل رقبته صبرا وضفائره كالدروع

وحاجبها الذى يشبه الكمان هلال وجه السماء

وذؤابتها التى تنفث العنبر جمال وجه الحسن

وكل شخص شاهد ذلك المجلس أخذته الدهشة واستولى عليه العجب العجاب لكثرة ما رآه من حور وولدان، ووفير الخمور والألبان، وكان لفرط دهشته يقول: إذا كان هذا هو الحال فكيف تكون جنة الخلد؟ ويستطيع الإنسان أن يعرف عظمة جنة الخلد إذا قيست بتلك.

واستضاءت عين الزمان بمكان القا آن، وأضحت الدنيا بنفوذه وسلطانه خالية من الحقد والغضب.

وانتعشت البلاد وأضحى الملك ناضرا   فقد تـوتى الأمـور راع مثلـك

وثقلـت الريح بثبـات عزمه ورأيـه   وخفـت الأرض بحلمـه وعطفـه

وارتوت وترعرعت أشجار الأمن والأمان بعد ما أصابها من ذبول، واستعاد وجه الآمال نضارته ونعومته بعد الذى أصابه من خدشان اليأس والقنوط، وعم النهار سكون الليالى الجميلة ورواؤها، وأضحت الليالى لما نعمت به من أنسِ نارِ الخمرِ وضيائها نهارا.

وأمر القا آن بفتح ودائع الخزائن التى جمعت لجنكيز خان –قبل ذلك– من بلاد الشرق والغرب، والتى لم تدوَّن حصيلتها فى بطون السجلات والدفاتر، وكمم أفواه اللائمين بالإعراض عن نصيحتهم، وقسموا هذه المبالغ على جميع الأقارب والعساكر والمقانب والعشائر من شريف ووضيع، ورئيس ومرعوس، سيد أو غلام، كل بحسب همته وعمله، ولم يترك للغد فى الخزائن شيئا قليلا كان أو كثيرا، ولم يُبق نقيرا أو قطميرا.

ولن يدْخرَ الضرغام قوتًا ليومه   إذا ادَّخر النمل الطعام لعامه

وبعد أن انتهت أمور الاحتفال وفرغ من أمر توزيع الهدايا والهبات وسيرا على قاعدة "إنا وجدنا آباءنا على أمة"، فقد أمر بإعداد موائد الطعام من أجل روح جنكيز خان ثلاثة أيام متتالية، واختاروا من نسل الأمراء وأبناء الملك الذين كانوا ملازمين لجنكيز خان أربعين من الفتيات الحسناوات فاتنات الوجوه، لطيفات المنظر جميلات المخبر، رائعات الجمال مليحات

الدلال، ذوات حركات ظريفة وسكنات لطيفة كأنهن اللائيء، و"وعد المتقون"، وأمدوهن بالكثير من الجواهر والحلى والحلل، وألبسوهن أفخر الثياب واختاروا لهن أصيل الجياد وأرسلوهن لروح جنكيز خان.

وحينما فرغ من هذه الأمور بدأ النظر فى أمور الرعية ومناقشة أحوال البلاد، وكان أول أمر سنَّه أن تظل القوانين التى أصدرها جنكيز خان سارية المفعول كما هى وأن تظل بعيدة عن مفاسد التغيير والتبديل وأن تصان من أى خلل. ثم قال: "لقد عفوت وبسطت مهاد الصفح على كل ذنب أو تقصير صدر عن أى شخص ما قبل يوم جلوسى". وكان هذا ردًا على ما تقدم به الهمازون والمشاءون بالنميمة عن كل واحد من الأمراء والحكام فى كل طرف من الأطراف، وإذا أقدم أى شخص على عمل يخالف أحكام الياسا القديمة فسينال ما يستحق من عذاب وعقاب. وبعد إصدار هذه القوانين عين الجيوش لأقاليم العالم، ولم تكن الفتنة والثورة فى خراسان والعراق حتى ذلك الوقت قد هدأ أوراها وخفت حدتها، فقد كان السلطان جلال الدين لا يزال نشيطا يثير المتاعب فسيَّر إليه جوزماغون مع عدد من الأمراء على رأس جيش من ثلاثين ألفا من المقاتلين الأشداء وأرسل كوكتاى[1] وسنتاى بهادر على رأس مثل هذا العدد من الجنود إلى قفجاق وسقسين والبلغار، ومثل ذلك إلى التبت وسلنكاى[2].

وعين قوات تزيد عن ذلك أو تقل وقرر أن يتوجه بنفسه ومعه إخوته إلى بلاد الختاى. وسيرد ذكر ذلك بالتفصيل فى عقب هذا حتى تتضح كيفية وأوضاع كل واحد منهم إن شاء الله العزيز.

---

(١) كوكتاى هو الذى اشترك فى بعثة غازان خان إلى البابا بونيفيس الثامن .

(٢) Slngay شمال كوريا أو كوريا الشمالية. المصدر السابق صفحة ١٩٠.

ذكر تحرك سلطان العالم القا آن إلى بلاد الختاى وفتحها

حينما وضعوا التاج الكسروى على رأس سلطان العالم وأجلسوا عروس الملك فى أحضان كفاءته وسيَّر الجيوش إلى إقليم الربع المسكون صمم على الاتجاه بنفسه إلى إقليم الختاى، ومضى إخوته جغتاى وألغ نوين[1] والأبناء الآخرون فى ركابه مع جيش كثيف من الرجال كأنهم التماسيح حتى بدت الصحراء بجميع أطرافها لما يتخللها من أسلحة ناصعة لامعة وخيول صاهلة متعاركة بحرا متلاطم الأمواج لا يحد البصر طولها أو عرضها ولا يلاحظ الطرف شواطئها وعمقها، صحارى تطاول الهضاب علوا وارتفاعا لما تزخر به من أفواج الكتائب وأمواج البشر، وتلال منهارة تكاد تتساوى بالثرى لكثرة ما وطئتها نعال الفرسان وأرجل الجياد.

يقود الخميس الحر غص به الفلا وأصبح هام الأكْم وهو مشدَّخ

ووصلوا فى بداية الأمر إلى مدينة يطلقون عليها اسم "خوجا تبوبسقين" وحاصروها من شواطئ نهر قراموران.

ومع الحصار الشديد الذى طوقوا به المدينة، فقد أقاموا عدة جدر محصنة أخرى وقاتلوا قتالا عنيفا طوال أربعين يوما، وأخذ رماة السهام من الأتراك، الذين لو أرادوا أن يخيطوا أحداق الأفلاك لفعلوا، يصولون ويجولون.

وكل سهم صوبوه من مسيرة الشهاب أصاب أهدافه.

وحينما غادروا تلك المدينة، أرسل ألغ نوين وكيوك فى المقدمة مع عشرة آلاف رجل، ومضى هو فى عقبهم فى تؤدة وأناة، وعلم آلتون خان

(١) لقب تولى خان.

حاكم ملك الأقاليم بأمر الجيش المغولى، فأرسل اثنين من قادته هما "قداى رنكو وقمرنكود" مع مائة ألف من أفضل الرجال المصطفين لمواجهتهم، ونظرا إلى أن جيش الختاى كان أكثر قوة وغلبة وجيش المغول أقل عددا فقد أصابه الغرور وحاصر الجيش المغولى والتف حوله حلقة فى إثر حلقة وظن أنه سيقوده مطوقا على هذا النحو إلى حاكمهم حتى ينظر حصدهم وصيدهم ويتم هو بنفسه هذا الأمر.

وحينما أدرك ألغ نوين أن نطاق المقاومة قد ضاق عليه، وأنه يستطيع مواجهة ذلك بالمكر والخداع، والحرب خدعة، وأن يطفئ شعلتهم وقناديلهم برياح الاحتيال والخداع...

كان بين صفوف الجيش المغولى قنقلى، وكان قنقلى خبيرا فى علم الياى[1] يعنى استعمال حجر المطر[2]، فأمر ألغ نوين بإجراء تجارب هذا العلم، وأمر سائر الجنود بارتداء المعاطف الواقية من الأمطار فوق ملابسهم الشتوية، وأن لا يفارقوا ظهور جيادهم طوال ثلاثة أيام بلياليها، واشتغل قنقلى بأمر تجارب الياى، حتى انهمر المطر خلف المغول وازدادت حدته وتبدلت فى اليوم الأخير إلى ثلوج صاحبتها رياح قارسة باردة، فاستولت الحيرة والدهشة على جيش الختاى لشدة برد الصيف الذى داهمه ولم يحس بمثله فى الشتاء قط، بينما كان جيش المغول يصيح فرحا وانتصارا، حتى إذا ما حل الوقت الذى ظهرت فيه الجوهرة الحمراء، الشمس، فى الصباح وتبين الأبيض من الأسود رأوا جيش الختاى كأنه قطيع من الخراف يضع أحدها رأسه فى ذيل الآخر، وقد تجمعت لشدة برودة الهواء وفرط البرد جماعات وزرافات، وجلسوا كالقنافذ واضعين رءوسهم بين أرجلهم وغطت الثلوج أسلحتهم "فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية"[3] .

---

(١) يذكر Boyle أن الياى هى الكلمة التركية، وأما جادا أوجدا Jada فهى الكلمة المغولية، ويذكر صاحب التاريخ السرى للمغول S143 أن النايمان حاولوا استخدام هذه الطريقة ضد قوات المغول بقيادة جنكيز خان ولكن العاصفة الثلجية التى كونوها انقلبت عليهم.

(٢) يقول القزوينى فى حاشية ص ١٥٢ إن حجر المطر كما يزعم الترك والمغول نوع من الحجارة له خواص خارقة للعادة، ينتج عن استعمالها واصطكاكها بطريقة خاصة أمطار وثلج ويطلقون على صاحب هذا العلم يايجى وجده جى ويده جى، وكانت هذه الحكاية شائعة بين أمم الترك والمغول .

(٣) سورة الحاقة الآية ٧.

وترك اليايجى ممارسة علم اليای، وانطلق الجيش المغولى من بين أرجلهم وانقض عليهم انقضاض الصقور على أسراب الحمام، بل الأسود على قطعان الغزلان، وتوجهوا إليهم رافعين رءوسهم وقد اشرأبت أعناقهم كرقاب الغزلان، واتسعت حدقات عيونهم كعيون البقر الوحشى، مختالين فى سيرهم خيلاء الطاوس فى مشيته، وأطبقوا عليهم من كل جانب.

وأمسك الصقر بمنقار العنف جناح الحمامة، وحطم الأسد بمخلب القهر رقبة الغزال ولم يلوثوا سيوفهم بدمائهم، بل أرسلوهم بحرابهم وهم فوق ظهورهم إلى نار سقر.

فأصبح جسم الجامد القلب منهم بقلب الحديد الجامد القلب ذائبا

وانطلق القائدان المذكوران[1] ومعهما خمسة آلاف من الرجال هاربين وألقوا أكثرهم فى الماء بسهامه وأحلوهم دار البوار وأسكنوهم باطن الأرض الأسود.

وأما هذان التعيسان اللذان يتقدمان مائة ألف من الجنود كأنهم الشياطين فقد عبرا النهر كالريح المرسلة، أما الجيش الذليل الذى كان قد عبر قبل ذلك فقد أشعلوا فيه نار الدمار، وأمر غالبية الجيش بمضاجعتهم مضاجعة قوم لوط ووفقا لما رأوه مناسبا.

إنى ودونك من سمر القنا أجم مرّ الشجاع بها فانصاع مسئوتا[2]

وأقاموا تلا عاليا من الأذن اليمنى لهؤلاء القتلى وأرسلوا الرسل والسفراء إلى حضرة القا آن مبشرين بهذا الفتح، وحينما وصل بدوره مسرعا ولوا وجوههم شطر آلتون خان الذى كان يقيم آنذاك فى مدينة نامكينك[3] فناضل نضالا شديدا لمدة أسبوع.

---

(١) يقصد قداى رنكو وقمر نكود قائدى جيش آلتون خان .

(٢) من قصيدة لإبراهيم بن عثمان الغزى، وقد مر من قصيدته هذه بيت فى (حاشية القزوينى) .

(٣) ذكرها صاحب التاريخ السرى وهى العاصمة الجنوبية للصين، وتعرف اليوم بـ "كايفونج" .

وحينما علم أن لبنة الحظ قد انهارت وولت وأن أغلب جيشه قتل، دخل مع جماعة من النساء والأبناء الذين كانوا معه إلى أحد البيوت الذى أمر بإحاطته بالأخشاب وأشعلوا فيها النار فاحترق "خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين"[١]، وحينما دخل المغول المدينة...

مدوا إلى النهب أيديهم وأعينهم وزادهم قلق الأخلاق تثبيتا[٢]

فنهبوا وأغاروا وقتلوا خلقا لا تعد ولا تحصى، وغنموا مغانم شتى وفتحوا عددا آخر من المدن، وأسروا الكثير من الصغار حسان الوجوه من الرجال والنساء الذين عمرت بهم أطراف العالم، وخربت قلوب الرجال.

وتركوا عزيز يلواج[٣] فى بلاد الختاى وعاد من هناك منصورا مؤيدا إلى معسكره وأرسل الجيوش إلى متزى وسلنكاى وغيرهما من بلاد التنقوت والتبت وسو ومغول كما سيجرى ذكر ذلك.

ولكنه خشى تجمع قواده الموالين لوالدته، فلم يتخذ أسلوب الهجوم.

---

(١) سورة الحج: الآية ١١.

(٢) بيت آخر من قصيدة الغزى المذكورة يصف فيها الترك.

(٣) يقصد محمود يلواج .

الحديث عن (القوريلتاى) ـ الاجتماع الموسع ـ الثانى

حين انتهى الملك الحاتمى العطاء المليكى المعاشرة من الاستيلاء على إقليم الختا عاد إلى مقر عرشه سعيدًا وأرسل الأمراء أبناء الملك إلى أطراف الربع المسكون.

وحين حققوا كل ما أراده الملك فى كل مكان ذهبوا إليه، فقد اقتضت همته السامية ورأيه السديد أن يستدعى أولاده وأقاربه مرة أخرى وأن يناقش معهم أمور الياسا (قانون جنكيز) والأحكام قديمها وحديثها وأن يبعثوا بالجيوش إلى الممالك التى يرون المصلحة فى فتحها، وأن يحظى جميع الأبناء والجند، الشريف منهم والوضيع، بنصيب من سجل سره ومكرمته الفياضة كمطر الربيع، فأرسل السفراء لاستدعائهم وتحرك كل واحد منهم من محل إقامته وولوا وجوههم شطر حضرته.

وحين كان عام...[1] فى الوقت الذى كانت فيه الدنيا جنة إرم وأمطرت السماء بسحبها على الأرض وابلاً سخيا سخاء ملك الجود والكرم واكتست الأرض بحلل مختلف ألوانها وارتوت الأشجار والأغصان بمياه النضارة :

نَسَجَ الرّبيعُ بربعها ديباجَةً	من جَوْهَرِ الأنْوار بالأنداء
بَكَتِ السماءُ بها رَذَاذ دموعها	فَغدت تَبَسّمُ عن نُجُوم سَمَاء
فى حلة خضراء نَمْنم وشيها	حَذكِ الربيع بِحُلّة صفراء

(١) نقاط فى المتن الأصلى، عددها أ - القزوينى بعام ٦٣٢هـ لأن مملكة الختاى كانت قد فتحت ٦٣١، كما ذكر ذلك رشيد الدين فى كتابه جامع التواريخ ص٢٦- ٢٧، حاشية القزوينى ص١٥٥.

(قد يكون المراد بـــ "حَدَك" الباذروج وهو الحبق أى الفوذنج).

وصل أبناء الملوك إلى حضرته، فتحلقت نجوم الثريا الـــسعيدة حـــول البدر المنير وتزين المجلس بأبهى حلله:

جمعوا شملهم بشَط الـــسفرات	بعد شط النوى وبُعــدِ الشَتَات
فأعادوا مَرْعى النسيب خصيبًا	ورياضَ النّشيب خُضر النبّات

كما توافدت جموع الأمراء –نوينان– وأربـــاب الأشـــغال وأصـــحاب الأعمال، وأحسن ملك العالم استقبالهم، مستقبلا أولاً إخوته الكبار وأعمامـــه وحياهم بالاحتشام والإعزاز والاحترام، وحبا إخوته الصغار وأبناءهم الذين هم فى منزلة أولاده وأفلاذ أكباده بفنون العطف وفرط الرأفة، واستمر لقـــاء الأحبة شهرًا كاملاً عمت فيه المحبة والصفاء، ودارت أيدى السعاة بالأقـــداح والكئوس صباح مساء غداة وعشاءً، قاصدين التمتع من زهرات هذا الزمان وثمرات الوقت الواهى باستيفاء جميع أنواع الملاهى، وأمضى الحاضـــرون جمعيهم أيامًا عمها الرخاء والسعادة فى ظل كرم الملـــك صـــاحب المنزلـــة الأولى الإلهية والقدرة العالية قا آن ثم أمر بإنهاء الاجتماع والاستماع لهـــذه الرباعية التى سمعوها فى قراقورم.

يا أيام العمر أصدقينى، كم من	ملـــــوك الأرض مـــــــرّوا بك
اغتنم أيام عمرك ما استطعـــت	فستمضى تلك الأيام مهما كثرت

وعلى عادة القا آن المعروفة وشيمته المألوفة فتح أبواب خزائنه التـــى لم توصد مطلقا أمام أى شخص، ووزع (نثر) ما جاءه من أمـــوال قـــد تـــم جمعها بعد الاجتماع الأول على جميع الحاضرين من الأقـــارب والغربـــاء صغارا أو كبارا كما تنثر الأنواء قطراتها على الكلأ والأشجار فـــى فـــصل الربيع.

فاضَت بناتك فى النوادى بالنّدى	فاستصرْخت غَرقا بنو الغَبْراء

وعاد التجار وأصحاب الانتجاع وطلاب الأعمال والأشغال من سائر الأطراف ظافرين بتحقيق مقاصدهم ونجاح آمالهم ومآربهم، بل وبأضعاف ما كان فى ضمائرهم، فكم من فقير أضحى ثريا وكم من مفلس صار غنيًا وكم من خاملِ ذكرٍ صار صاحب مقام عليا! وعلى هذا النحو حين انتهت مراسم الاحتفالات تفرّغ الملك للاهتمام بمهام الملك وترتيب الجيوش (الجنود)، ولما كان كثير من الأقاليم لا تزال تلعب برءوسها رياح التمرد والطغيان، عين لكل ناحية من النواحى واحدًا من أقاربه، وعزم أن يخرج بنفسه مرة أخرى قائدًا للجيوش. وبعد أن استقر الرأى على هذا، ظهر من بين الحضور "مونككا قا آن"، ومع أنه كان فى أول مرحلة الشباب فإن عقله ووقاره جعلاه يبدو فى مرتبة الشيوخ وأصحاب الخبرة (والمجرّبين) وقال: نحن الإخوة والأبناء رهن الأمر والإشارة من الملك، ونضع نصب أعيننا وآذاننا، تنفيذ المهمات والتصدى للمعضلات، هادفين أن يسعد الـ "قا آن" بوقته وأن يلتذ بعيشه وتحقيق مراده، وأن يريح نفسه من عناء الأسفار ومكابدة الأخطار، وإلا ما الفائدة من كثرة الإخوة والأقارب والجند التى لا تحصى؟

تأنّ فأوج الشمس لا يتحرك

وحين استمع الحاضرون لهذا الكلام على لسان الأمير الأوحد أيده الأمراء والقاده وامتثلوا لأمره، ونفذ كل واحد منهم المهمة الموكولة إليه، واتجه بجيشه الوجهة المخصصة له شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا.

وإذ كانت أقوام "القفجاق وكلارا" لم تخمد ثورتهم بعد فقد زاد فى الاهتمام بأمرهم وعين للقضاء عليهم من الملوك "باتو" و"منكو قا آن" و"كيوك" وسيّر مع كل واحد منهم جيشًا جرارًا من أبناء التاجيك والترك وحدد لهم بداية الربيع موعدا لتحركهم وعادوا إلى مخيمهم لإتمام الاستعداد لهجومهم والرحيل لملاقاة أعدائهم، فى الموعد المحدد.

ولم يول آلقا آن بعد ذلك أى اهتمام بأمر من الأمور واستدعى على الفور العمال والكتبة وعين لكل واحد منم وجهته من المناطق الحساسة وأغمد السيوف وأوصد الأبواب أمام أقدام الظلم والجور، وبسط يد العدل والعطاء، وأصدر أوامره السلطانية للكتاب لإيصال تلك الأوامر إلى الأطراف المختلفة، طالبا عدم التعرض لأى شخص وأن لا يعتدى القوى على الضعيف، فسكن غبار الفتنة والأحداث وأضحى الناس آمنين وانتشرت وصيته كالنسيم المعطر بريح الشمال فى سائر الأنحاء، وعم عطاؤه وعدله الآفاق كالنسر المحلق:

بَلَدٌ أقمت به وذكرك سائر	يَشْنا المقِيلَ ويكرهُ التعريسا[1]

وتمثل بجميل حديثه أصحاب (حكام) الأطراف مع رعيتهم برغبة صادقة، ورأوا سعادتهم فى متابعته ومطاوعته، ولهذا أكثروا من إرسال الرسل محمَّلين بالتحف إلى حضرته وتحدثوا عن عجيب صفاته فى أقاصى البلاد وكان حديثهم عن الملوك السابقين أشبه بالأساطير، وتسابق الخلائق إلى حضرته، ومضت الأيام على هذا النحو حيث الاستمتاع بالاستماع للأغانى والاجتماع مع الغوانى والمداومة على احتساء الشراب الأرغوانى.

ما العمرُ ما طالَ به الدّهور	العُمْرُ ما عم به السرور
أيام عزّى ونفاذ أمرى	هى التى أحسبها من عُمْرِى [2]

واستمر الحال على هذا المنوال طوال باقى العمر حتى هاجمه فجأة فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ٦٣٩ تسع وثلاثين وستمائة، هادم اللذات وأصابه سهم الأجل من مكمن القضاء.

ها هى دائماً عادة الفلك الداكن	حين يفاجئ السعداء بالزوال
فنكدّر مشرب الحياة	بتراب المنيّة المكدّر
إذا حصلت على وردة بلا شوك	فاغتنم لذة الحياة كلها
فمساكن حياتنا العتيقة هذه	جميلة ما لم يعكرها الموت الماثل خلف الأبواب

(١) هذا البيت للمتنبى، حاشية المتن ص ١٥٨.

(٢) طردية لأبى فراس، حاشية المتن ص ١٥٨.

ذكر نتائج أعمال الـ "قا آن"

منذ أن وضع فى أنمله القادرة خاتم المملكة، كما سبق القول، وأرسل الجيوش إلى الأطراف والأقطار وعادت بعد أن ظهرت أكثر الأقاليم من المخالفين، وشنفت أعماله وأقلصيص عدله وإحسانه الآذان، وقلّدت أياديه وعوارفه الأيدى والسواعد كالسوار، غدا بلاطه ملاذا للعلماء وأضحت حضرته سكنا ومأوى للعالمين، وأضاءت أنوار صباح عدله بعده منيرة بلا غبار وبلغت مساحة مملكته ممتدة من أقصى ديار الصين والماجين حتى أقصى بلاد الشام، وعم جوده جميع الخلائق دون انتظار لعام أو لشهر، وكان وجوده وجود جوادَىْ (فرسَىْ) رهان، وذاته وثباته رضيعًا لِبانا، فتلاشى بكرمه فى أيامه كرم حاتم الطائى، وأضحى حِلْم أحنف بالنسبة إلى حلمه لا شيء وأصبحت الدنيا فى عهده دنيا راحة وأمان، وأطاعت له صعاب الفلك، وغدت خانية فى زمانه...

كان قويا خضعت له الجياد الجامحة وعاشت هادئة تحت سلطانه، وأملا فى رحمته ورأفته اطمأنت القلوب، وعاش آمنا من لم تحصده السيوف، ورفرفت رايات الإسلام خفاقة حتى أقصى بلاد الكفر وديار الترك التى لم يكن قد وصل إليها روائح دين الإسلام، وبُنى فى محاذا' معاهد الأوثان مشاهد الرحمن، وصيت عدله قيد الشوارد، وأنغام بذله موجب الصيد للأوابد، خضعت لهيبته الفئات المتمردة وخضعت له الرقاب من فرط سطوته وعملت أوامره عمل السيف، وحملت صحائف كتبه بريق صحائف كتائبه:

يَفلّهمُ بالرّعب قَبْل طرادهم[1] ويهزمهم بالكُتُب دون الكتائب[2]

وجهّز الجيوش والعساكر إلى مشارق الأرض ومغاربها، وشاركهم فى الغزو بنفسه لأن:

نصف الدنيا نتيجة التوفيق والنصف الآخر نتيجة السمعة الطيبة

فإن لِنْت فلت القيود عنـك وإن شـددْتَ غُـللت بهـا

ومخالفا أقوال الناصحين ولوم اللائمين فإنه:

إذا غَدا مَلكٌ باللهو مشتغلاً فاحكم على قُلكهِ بالويلْ والخَرَبِ

فقد كان أكثر من مد بساط السعادة والمرح وداوم على مداومة الشراب والمدام ومنادمة الحسان وأفرط فى هذا، ومنح المستعطين بإسـراف حتـى وصل القاصى والدانى. وصلت عطاياه إلى الجميع دون تثبت، وقد دونـت حكايات الملوك القدماء فى البذل والعطاء وكانت بالنسبة إلى أفعاله حـشوًا، فقد فاقهم كرما وعطاء ولم يرجع سائل منهم خالى الوفاض ولم يـستمع أى واحد منهم لا أو لم:

لا فى الجواب تَقصُ أجنحة المُنى ولأجل هذا تشبه المقراضا

يَفد إليه أصحاب الحوائج من الأطراف فيعودون دون انتظار مَقضيى الأوطار، والمنتجعون والسائلون يغنمون بتحقيق أمانيهم.

وصوت المقْتَفِى أحلى وأشْهى على أذنيه من نغم السَماع[3]

وكان يصل إلى باب حضرته العصاة من بلاد بعيدة وكان يغدق عليهم العطاء أكثر من القادمين من الديار القريبة. لم يعُد من مقام حضرته يائس أو مخذول، وكان كبار رجال دولته يلومونه أحيانًا على إسرافه وكانوا يرون أن

---

(١) فى ماضى النسخ "اطرادهم": الهامش ١٥٩.

(٢) البيت لأبى الفتح البستى– يتيمة الدهر للثعالبى ٤/ ٢١٤.

(٣) هذا البيت لأبى تمام ، الديوان ط بيروت: ١٩٤، مع اختلاف .

عبيده ورعاياه أولى بهذا الإنعام والعطاء، وكان القـا آن يجيـبهم: أنـتم لا تتحلون بزينة العقل والحكمة، وكلامكم باطل لأمرين:

الأول أن سمعة سيرتنا ومنهجنا تصل إلى جماعة العصاة المتمردين.

فلا بد أن تميل قلوبهم إلى طاعتنا   والإنسان عبيد الإحسان

وبهذه الرحمة تخف أتعاب جنودنا من لقاء الجيوش والرعايا وتنتهـي المكابدة والمشقة.

والثانى أكثر وضوحا، فالمعلوم أن الدنيا غير وفيه بالإنسان، فتعصف به جراء إحسانه، فعلى المرء أن يتحلى بنور العقل ليترك له اسمًا خالدًا.

أقبل لنتخطى الدينا السيئة   ولنعمل جميعًا عملاً طيبـًا

فإذا متُّ بسمعة طيبــة   فيجب أن يبقى اسمى خالدًا

وإذا جرى ذكر أسلاف الملوك وعاداتهم ورسومهم وإذا تطرق الحديث إلى ذكر ما يكنزون من ذهب وفضه إلى الجماعة التى دفنت الكنوز الثمينـة تحت الأرض فإنهم قد حرموا من نعمة العقل السديد والرأى الرشيد، فلم يكن عندهم قدرة على التمييز بين التبر والتراب ولم يمكن استغلاله والإفادة منـه فى دفع الضرر وتحقيق الفائدة وأضحت كنوزهم التى دفنوها كالقضاء الذى حل بهم سواء فى استعبادهم أو فى إغلالهم.

أين الأكاسرة الجبابرة الأُلى   كنزوا الكنوز فما بَقين وما بَقوا[١]

نريد أن نضع كنزنا من السمعة الطيبة فى حنايـا قلـوب العـالمين، وسوف لا نترك أى شىء للغد.

---

(١) هذا البيت للمتنبى.

إن سلاطين الزمان لن يروا فى المنام تلك المال الذى هو عشر ما لدينا من أموال

لقد أعطينا ذهب العالم وفضته للناس، لذا فإنه لا خطر علينا من سخاء أكفنا.

ما ذكرناه مجمل لأفعاله، ويمكن للمستمعين والمطالعين أن يأخذوا علينا ما فى هذه المعانى من قبيل "أحسن الشعر أكذبه" لأننا قدمناه على سبيل الإيجاز المصون من عوارض البهتان والمجاز، فقد رأينا أن عدة حكايات تكفى للاستدلال والبرهان على ما ورد فى هذا التاريخ مع أنه ليس سوى قليل من كثير وليس سوى واحد من آلاف.

فقد ذُكر فى الياسا "القانون المغولى" أنه لا يجوز فى فصل الربيع والصيف أن ينزل أى شخص إلى الماء وأن لا يغسل شخص يده من جدْول ولا يرفع شخص الماء من النهر فى أوان من الذهب والفضة وأن لا ينشر ثوبا مغسولا فى الصحراء لأنهم كانوا يعتقدون أن هذا يسبب رعدا وبرقا، وكانت منازلهم ومكان إقامتهم منذ أول الربيع حتى آخر الصيف أكثر الأوقات نزولاً للمطر وتصادم الرعد اصطكاكه بشدة إلى الدرجة التى تجعلهم حين يسمعونه "يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت" ويشتد البرق إلى الدرجة التى معها "يكاد البرق يخطف أبصارهم"، وكان المشاهد أنهم يصمتون صمت الموت حين ترعد السماء وتبرق، وفى كل عام كان البرق يصيب شخصًا منه، فكانوا يخرجون قبيلته وأسرته من منازلهم، ويظل هذا الإبعاد لمدة ثلاث سنوات لا يستطيع خلالها العودة إلى معسكر الأمراء، ويطبق ذلك على أنعامهم وقطيعهم، وإذا أصاب البرق إحدى الدواب تبعد عدة أشهر أيضًا، وإذا أصاب البرق شخصا فإنهم لا يأكلون من طعامه ما بقى من الشهر، وكذلك الحال فى مراسم عزائهم فإنهم يظلون حتى نهاية الشهر فى غبطة وسرور وصراخ.

وذات يوم، حينما كان القا آن وجغتاى عائدين من رحلة صيد، رأيا مسلمًا يستحم فى النهر وسط النهار (فاستشاط چفتاى غضبا)، وكان جغتاى يحرص حرصًا شديدًا على تطبيق قانون الياسا، وكان لا يبقى على أى شخص ينحرف عن قانون الياسا حيا. فحين رأى هذا الشخص فى الماء استشاط غضبا وأراد قتله والقضاء على حياته فاستمهله القا آن وقال: اليوم متأخر، نحن الآن فى نهاية اليوم ونحن قد تعبنا، فلنترك عقاب هذا الفرد حتى الغد، فننظر فى أحواله وندرس ونقف على أسباب مخالفته لقوانيننا. وأمر الحاجب أن يتحفظ عليه حتى الغد ليحكم عليه بالبراءة أو الإعدام، وأمر حاجبه سرًّا أن يلقوا مكان استحمام هذا الرجل عملة فضية وأفهموه أنه حين السؤال عليه أن يقول: إننى رجل فقير قليل المال كثير العيال وكل ما أملك هذه الصرّة من المال لهذا تجرأت ونزلت إلى الماء. وفى اليوم التالى دُعى الرجل المتهم للحضور للسؤال والاستجواب، فشرح له ما علمه إياه الحاجب، ولقى من الملك القبول.

وبعث الملك على سبيل الاحتياط شخصا إلى ذلك النهر واستخرج الصرة من الماء، عندئذ قال "القا آن": إن كل من يخالف أحكامنا ويضمر عداءً لقانوننا يُطاح برقبته. ولكنى نظرًا إلى أن هذا الرجل ضعيف الحال قليل المال كاد يضحى بحياته من أجل صرة من المال فقد أمرنا أن يعطوه عشرة أضعاف ما كان فى الماء إضافة إلى الصرة الأولى وأن يأخذوا عليه تعهدًا على أن لا يعاود ذلك مرة أخرى، وإلا فقد روحه وسحب ماله. لهذا عفى عمن ارتكبوا هذه الأعمال فإن الكنوز الباقية أفضل.

وحكاية أخرى: فى بداية أمرهم (المغول) أنهم أصدروا أمرهم بأن لا يسمّى أحدهم (أى يقرأ البسملة) حين الذّبح، وعليهم أن يشقوا صدر الذبيحة، اشترى مسلم خروفا من السوق وحمله إلى منزله وأحكم إغلاق الأبواب ويسمل وذبح الخروف، وتصادف فى أثناء الشراء أن شاهده واحد من القفجاق وتعقبه خفية وصعد إلى سطح منزل يراقبه كيف يذبحه، فما إن

وضع "المسلم" السكين على رقبة الخروف وقطعها حتى قفز عليه وأمسك به وأحضره إلى حضرة ملك العالم، وحين شاهد "قا آن" هذه الحالة أرسل كاتبه ليرى حقيقة ما حدث، فحكى له كل ما حدث، وعندئذ قال الملك إن هذا الرجل الفقير لم يخالف القانون المغولى (الياسا). وعفا عنه وأحسن إليه وكرّمه وأمر بتسليم القفجاق إلى الجلادين.

إذا مرت نسائمك اللطيفة فى خميلة أخذت صرة غزال تترى من فم الأسد

وحكاية أخرى: كان قد قدم لاعبون من الختا وقدّموا ألعابًا من ألعاب الختا العجيبة التى لم تكن قد شوهدت من قبل، فقد كانوا يخرجون من خلف الستارة أشياء من بينها صور تمثل كل الأقوام، ويُخرِجون فى أثناء ذلك رجلاً شيخًا ابيضت لحيته وعمامة فوق رأسه وخلفه جواد يسأل قائلاً: صورة من هذه؟ قالو: صورة مُسلم عاص متمرد. فأمر الجنود أن يطردوا أمثالهم من سائر البلاد، وأمر الملكُ أن يقفوا هذه الألعاب وأخذوا من الخزانة أنواعا من الجواهر من خراسان والعراقين كالعل واللؤلؤ والفيروز[1]، وعددًا من أنواع النسيج والألبسة المزركشة والمطرزة بالذهب وأخذوا الجياد العريقة والأسلحة من بخارى وتبريز وما يستولون عليه من الختا من ثياب رخيصة قليل بالمقارنة بذلك، وقال: إن لدى أفقر فرد من المسلمين عددا من العبيد الختا، وليس لدى كبار أمراء الختا مسلم أسير واحد، وهذا من لطف الخالق فهو يعلم مرتبة كل قوم ومنزلته، وقانون جنكيز خان القديم (ياسا) يوافق هذا، فقصاص المسلم أربعون بالشا وصرة من الفضة أو الذهب[2] ، فى حين أن قصاص الختا يعادل حمارًا، فكيف تستخفون بأرباب الإسلام (بالمسلمين)، وهذا إثم وجرم يقع عليكم ويوجب عقابكم، ولكنى أهب لكم حياتكم (أعفيكم من هذا الجرم) فعودوا إلى بلادكم ولا تعودوا إلى مثل هذا.

وهذه حكاية أخرى، (رشيد الدين فى كتابه جامع التواريخ ط بلوشيه ص٦٤ يذكر أن أحد ملوك إيران أرسل إليه رسولاً يقدم له فروض الطاعة

---

(١) هذه الجملة تمت ترجمتها بتصرف فهى غير سليمة فى المتن الفارسى (المترجم).

(٢) البالش تعادل ثمانية مثقالات، والفضى أقل من الذهبى.

والولاء، ومن بين التحف المرسلة مع (الرسول) الطير، ياقوتة مسطحة، كانت قد آلت إليه من أيام الفتوح من الآباء والأجداد نقش في أعلاها "محمد رسول الله" وكتب تحتها أسماء آبائه بالترتيب فأمر الخطاطين أن يبقوا اسم "محمد" تبركا وتيمنا وأن يمحوا أسماء السلاطين ويضعوا اسم "قا آن" في نهاية اسم الرسول عليه الصلاة والسلام واسم مرسلها.

وحكاية أخرى: كان هناك فقير عاجز عن كسب قوته، ولا يحسن أية حرفة، وكان يقطع الحديد على هيئة رايات ويعلقها على قطعة من الخشب، ويترصد مرور مواكب القا آن، فوقع بصره المبارك من بعيد على هذا الفقير، فأرسل أحد مرافقيه إليه يستطلع حاله، فحكى له الفقير ضعف حاله وقلة ماله وكثرة عياله، وأعطاه الرايات.

ولما كان الرسول قد شاهد العلم ولم يحسن تقديره فإنه لم يستطع أن يحسن تقدير هذه الرايات، وعرف القا آن ذلك وأمر بإعادة الرايات إليه ومنحه عن كل راية بالشا وأن يقدموا له يد العون فهو جدير بهذا.

حكاية أخرى: قصة رجل مُسِنّ طحن قوته تعاقب الأيام والليالي، جاء إلى حضرة (القا آن) طالبا مئاتي بالش من الذهب ليشارك بها التجار في تجارة، فقال أحد أفراد حاشية الملك: إن هذا الرجل قد أوشكت شمس عمره على الغروب، وليس له أبناء ولا أحفاد ولا مأوى ولا مسكن، مثل هذا الرجل لا يعلم عنه أحد شيئا. فقال "القا آن": لقد كان هذا الرجل طوال عمره يحلم بأن يكون تاجرا ذات يوم وها هي الفرصة قد واتته، فليس من اللائق أن يعيده الخان مأيوسا محرومًا و لا ينال شيئا من علو همته، ولا يليق بملك أعطاه الله كل هذا أن لا يجيبه إلى ملتمسه قبل أن يحل أجله.

أعاذل إن الجودَ ليس بمُهلكي	ولن يُخْلِدَ النفسَ الشَحيحةَ لَومُها
وتُذكر أخلاقُ الفتَى وعِظامُهُ	مُغَيَّبة في اللحدِ بَالٍ رَميمُها[1]

(١) منسوب لحاتم الطائي: حاشية جهان كشاى جـ ١، ص ١٦٦.

فلا يجب أن نحرمه من تحقيق حلمه.

وحظى من فيض عطائه كثير من الأشخاص وقصده كثيرون.

دَلّ على إنفاقه حينهُ   كالبحر يدعُوكَ إليه الخَريرْ

وحكاية أخرى: وفد عليه شخص طالبا خمسمائة بـالش ليتـاجر بهـا، فأعطاها له وانصرف، فتحدث إليه المقربون له من حاشيته قائلين: إنه رجل حقير مُفلس فكيف تقرضه كل هذا المبلغ؟ قال "القا آن": ضاعفوا العطاء حتى يكون له نصف هذا المبلغ رأس مال له، ويدفع النصف الآخر لغريمته:

هى المكارمُ لا عَقْبانِ من لبنٍ(١)

أخرى: وجدوا رسالة عن كنزٍ، تشير إلى وجود كنز فى مكان معـين وضعه أفراسياب، وتذكر رسالة الكنز أن الدواب لا يمكنها أن تصل إلى هذا المكان، فقال: ما احتياجنا إلى كنز قد وضعه غيرنا؟ إننا نؤثر غيرنا من عباد الله وأتباعنا بكل ما نملك.

له هِممُ لا منتهى لِكِبارِهـا   وهمته الصّغْرَى أجَلُّ من الدَّهْرِ

جاءه تاجر وطلب منه خمسمائة بالش ليتاجر بها، وبعد أن أخذ المـال رجع بعد فترة معتذرا لنفاد ماله، فأمر بإعطائه المبلغ (مرة أخرى)، ثم عـاد فى العام التالى أكثر إفلاسا عن المرة الأولى، وقدّم اعتذارات أخرى فأعطوه خمسمائة بالش أخرى، وحين رجع للمرة الثالثة خشى الكتبة عرض الأمـر (على القا آن) مخافة أن يأمر بقتله (بقتل هذا الرجل المسرف) وأخبر الملك أن شخصا من أحد البلاد يتلف ما يأخذ من أموال بإعطائها للأوباش وينفقها فى المأكل والمشرب، فقال القا آن: من أين يأتى بالأموال؟ فقالوا إنه يحصل على الأموال (من الحضرة السلطانية). قال: أعطوه مثلما اعطيتموه من قبل

---

(١) صدر بيت لأمية ابن أبى الصلت (الأغانى ١٦/ ٧١) وعجزه شيبا بماءٍ فعادا بعد أبوالا.

فهو ينفقها على رعيتنا، وقولوا له أن يحجم عن إتلاف ماله:

وبَلَوْت قانيه معًا فَوَجـــدتُه   فى العَوْدِ أكْرَم منه فى الإبْدَاء[1]

أخرى: فى إقليم الختا بلدة تسمى "طانمفو"[2] طلــب أهلوهــا قرضــا جماعيا مقداره ثمانية آلاف بالش ليوزعوه على الدائنين الــذين يطــالبونهم ويلحون فى طلبهم، أو فليأمر الغرماء بتأجيل مطالبتهم حتــى يــردوا لهــم مبالغهم حين يستطيعون وإلا تفرقنا فى البلاد، فقال: إذا أمرنــا الــدائنين أن يسامحوهم فإنهم سيعذبونهم أكثر، وإن تركناهم هكذا أخرجوا مــن ديــارهم وتشرّدوا. ثم أمر مناديا ينادى فى تلك البلدة قائلا: ليعلم القاصى والدانى أن كل من عليه دين فليأت بحجة ودليل، أو فليحضر الغريم، وليأخذ ما عليه من خزانتنا نقدًا، وباب الخزانة مفتوح للجميع. فتوجه الناس إليه وأخذوا الأموال (بالش)، وكان كثير من هؤلاء لا قروض عليهم واتخذوا لأنفــسهم غريمــا أخذوا الأموال باسمه، وأخذ آخرون ضعف ما عليهم:

فإذا فاضَ جودُهُ خَجِلَ القَطْــر   ... وغاضَ الفراتُ، أين الفراتُ؟

وأخرى: أتاه شخص فى موضع صيده وأحضر له بطيختين أو ثلاثًــا، وحين قدمها لهم لم يعطوه شيئًا مــن "الــبالش" أو من الثيــاب، وكــانت موكــا خاتون موجودة بينهم، فأعطته لؤلؤتين كالفرقدين تفوقان القمر المنير فى لمعانهما، كانت تُحلّى بهما أذنيها، وأمرت بأن يُعطاهما هذا الرجــل، ولا يضن بهما عليه، فقال أحدهم: إن هذا الرجل لن يُحسن تقدير قيمــة هــاتين

---

(١) البيت لابن العميد (يتمية الدهر دمشق: ٣/ ١٨).

(٢) هكذا أوضحها بلوشين فى تحققه لكتاب جامع التواريخ لرشيد الــدين ص ٦٦، جهــان كــشاى ص ١٦٧ جـــ١.

اللؤلؤتين! والفرق عنده بينهما كالفرق بين الزعفران والحمار، وإذا أمرت يتم استدعاؤه غدا ونعطيه البالش والثياب. فقالت: هذا الرجل فقير وليس في مقدوره الانتظار حتى الغد، وحيثما ذهب فإن هاتين اللؤلؤتين ستعودان إلينا حتما:

فأعطِ ولا تَبخلْ إذا جاء سائلٌ مفدًّى له عقْل وقد زَاحَت العِلَلْ[1]

وأعطى الرجل اللؤلؤتين كما أشارت وعاد الفقير سعيدًا، فباعهما بأبخس الأثمان كالفرق بين الدينار والألفين، وسُر الشارى قائلا فى نفسه: لقد حصلت على جوهرتين نفيستين، ربما ما لدى الملك من تحف أقل منهما. وذهب إلى الملك بهما، وكانت موكا خاتون حاضرة آنئذ، فتناولت اللؤلؤتين وقالت: ألم نقل إنهما ستعودان إلينا؟ إن هذا الفقير (الدرويش) لم يعد خائبا ميئوسا من عندنا وحصل على ما كان يريد، وعادت إلينا اللؤلؤتان. وخصت صاحبهما بكثير من الإكرام:

ومن قال إن البَحرَ والقَطْرَ أشبَهــا نَدَاك فقد أثْنَى على البَحْرِ والقَطْرِ

أخرى: أحضر شخص غريب سهمين إلى الملك، وركع على البعد منه، فقال الملك: انظروا ماذا يريد هذا الرجل وما حاجته. فقال: إن حرفتى تقليم النبال، وقد اقترضت سبعين بالشا واضطربت أحوالى نتيجة ذلك، فإذا تكرّم الملك بدفع هذا المبلغ فإننى على استعداد أن أسلم عشرة آلاف نبل سنويًّا. فقال حاتم الزمان: إن هذا المعدم بحاجة إلى مال لاصلاح حاله وإنقاذ روحه، وإن هذا المال البسيط الذى طلبه لا يكفى لتقليم عدد من النبال؛ أعطوه مائة بالش نقدًا ليصلح ذات نفسه. وحين جيء بالمال لم يستطع صانع

(١) شرح الحماسة طبعة بولاق جـ ٤، ٦٤، ١٢٣.

النبال المسنّ أن يحمله، فأمر الملك أن يُمنح بقرة ليحمله عليها، وضحك وقال:

وأثقلتَهُ بالمال وهو الذى بهِ تخِفُّ على طَاوِى الفلاةِ المَراجلُ(١)

أخرى: فى الوقت الذى أمر فيه ببناء "قراقورم"(٢) ، وكان اهتمام الملك كله محصورًا فى إنجاز البناء، دخل ذات يوم إلى الخزانة رأى فيها تومانا أو تومانين، أى عشرين ألف بالش، فقال: أى راحة تعود علينا بالمحافظة على هذا المال؟ عندئذ أمر بأن ينادى المنادى قائلاً: كل من لديه رغبة فى الحصول على المال عليه أن يأتى وليأخذ ما يشاء. فأسرع الناس من المدينة واتجهوا نحو خزانة المال وأخذ الناس جميعا سواء الغنى منهم أو الفقير، الشريف أو الوضيع، الشيخ أو الرضيع... أخذوا جميعًا ما يريدون ثم عادوا شاكرين الملك وداعين له:

إنّا إذا اجْتمعَتْ يومًا دَراهِمُنا ظَلّتْ إلى طُرُقِ المَعرُوفِ تَستَبِقُ(٣)

أخرى: حين اشتدت البرودة انعدمت الزراعة حول قوراقورم، ولكن فى عهده بدأ الناس الزراعة، وكان هناك شخص يزرع الفِجْل، وكان ذلك أمرًا نادرًا، وكلما نبت الفجل عنده أحضره إلى الملك.

كان الملك يأمر بعد الفجل وأوراقه فإذا بلغ تعداد ذلك مائة، يأمر بأن يعطى مائة بالش:

إذا وجد قلب ويد كالبحر كان ذلك قلوب العظماء وأيديهم(٤)

أخرى: بنوا على بعد فرسخين من قراقورم قصرًا على طرف من التل، يزوره فى وقت ذهابه إلى مشتاه وفى أثناء عودته منه، ثم توسع المكان

---

(١) من قصيدة لإبراهيم بن عثمان الغزّى.

(٢) "قوراقورم" فى جميع المواضع.

(٣) ديوان الحماسة.

(٤) البيت للأنورى فى مدح السلطان سنجر.

وسُمّى "تزغو باليغ" أى مدينة "تزغو". زرع أحد الأشخاص أسفل التل بضع شجيرات من اللوز والصفصاف، ولم يغرس أحد قبله شجرًا فى هذا المكان، لذا لم نشاهد شجرة خضراء، ونمت الأشجار وأخضرت، فأمر الملك أن يمنح الرجل على كل شجرة بالشا:

وكادَ يحكِيهِ صَوبُ المُزنِ مُنتكبًا   لو كان طلقُ المُحَيا يَمطرُ الذّهَبا[1]

أخرى: عندما استقر على كرسى الملك وانتشرت سمعته العطرة فى الوجود، توافد عليه التجار من كل صوب وحدب يعرضون عليه بضائعهم، فكان يختار وينتقى، ويدفع أكثر مما يَطلبُون، وحين أبصر أقمشتهم ولم يعرف قيمتها سألهم عن سعرها، فراحَ بعضهم يضاعف القيمة عشرة أضعاف، وآخرون يسمون الصدَفَ درًا، وحصل الجميع على ماطلبوا... ثم عاد التجار إليه مرة أخرى وفتحوا أحمالهم وأفرغوها كما لو كانوا يفرغونها فى بحر عمان، وكانوا ينالون قيمتها، وطلب الملك منهم بضائع أخرى، وسيمنحهم عشرة أضعاف قيمتها.

وذات يوم حدّثه أركان دولته قائلين: إن دفع عشرة أضعاف الثمن فى غير موضعه ليس أمرًا واجبا، بل الواجب هو دفع قيمتها فقط وهذا هو العدل، فقال: هذه هى الفائدة التى يجنيها من يتعاملون مع خزائننا وما نرجوه لهم من النفع والخير وما ينتفعون به من الالتجاءِ إلينا، فإذا رأيتم تلك الجماعة وأتت إليكم فادفعوا إليهم حتى لا يعودوا خاسرين:

وما ثَنَاكَ كلامُ الناسِ عن كرَمٍ   ومن يُسدّ طَريقَ العارضِ الهَطِلِ؟[2]

أخرى: أحضرت جماعة من الهنود ضرسين (نابين) لفيل فسألهم عن قيمتهمَا وما مُلتمسهم فقالوا دون تردد: خمسة آلاف بالش. عندئذ أمر بإعطاء المبلغ لهم فأنكر رجاله المبلغ واستكثروه، وأضافوا إلى ذلك أن هؤلاء

---

(١) بيت لبديع الزمان الهمذانى.

(٢) البيت للمتنبى.

الرجال من بلاد متمردة، فقال: ليس هناك من يتمرد عليّ:

يبالغ جاهدًا فى الجُودِ حتى يُنيلُ نَوَالَ كفيهِ الأعادى

أخرى: حين انتشى من شرابه وثمل من كأس مدامه وسعد وقته جاءه شخص بقلنسوة من قلانس خراسان وطلب مائتى بالش فى مقابلها، فأمر الملك له بذلك، ولكن رجاله وقفوا دفع المبلغ إليه ظنا منهم أن الملك قد أمر بذلك وهو فى حالة سكره، وأمهلوا الدفع إلى يوم آخر، وحين قَدم الرجل عرضت على الملك موافقته السابقة، فأمر أن ترفع إلى ثلاثمائة وطلب أن لا يعودوا إلى مثل ذلك مرة أخرى، ثم أمر بأن يضاف له مائة بالش عن كل يوم انتظر فيه. فحسبها له الكتبة فكان أن نال الرجال ستمائة بالش، ثم جمع الأمراء والكتاب وساءلهم: أمن الممكن أن يبقى الفساد أبد الدهر؟ فأجابوا: كلا، لا يمكن. فأشار إلى صاحب يلواج وقال: إن هذا الكلام غلط، لأن الاسم الحسن والسمعة الطيبة باقيان أبد الدهر. ثم اتجه إلى الكتاب وقال: إنكم أعدائى الحقيقيون لأنكم لا تريدون أفعالى الطيبة وآثارى الحسنة أن تشيع ولا يبقى خبر عن أفعالى الخيرة باقيا، إنكم تظنون أننى أمنح وقت الشراب (وقت سكرى) وأمتنع عند صحوى فوقفتم الرجل ومنعتموه من حقه.

ما لم تقدروا أفعالى هذه فلن تستفيدوا:

غَيرِىَ طَوْعُ اللُّحاةِ غيرى يَسمَع للآثمين أمْرَا

معصيةُ اللائمين فيها لهى [1] وكلتاهما وتمرًا

أخرى: فى الوقت الذى كانت فيه مدينة شيراز لم تخضع للمثول له جاءه شخص من أهلها وركع وقال: قدمت من شيراز حين علمت بكرم الملك وبرّه، وأنا صاحب عيال، كثير الدَّين، قليل المال، ألتمس خمسمائة بالش هى مقدار ما أنا مدين به، فقال أعطوه ملتمسه، وزيدوه مثلها. ولكن رجال الخزانة توقفوا عن الدفع قائلين إن فى الزيادة إسرافا، فقال: لقد طوى هذا

---

(١) دمية القصر (٢/ ٧٨٦) عجز البيت (فهى..) وبهذا يستقيم المعنى. البيت الثانى لأبى بكر القهستانى، أما البيت الأول فلم يذكره الباخرزى، (النونجى ص ٣٠٠).

المسكين عددًا من الفيافى والجبال وتعرض للحر والبرد، وما أعطيته لا يكفيه مصاريف عودته، وقرضه وحده لا يكفى، وإن لم نزده ظل محروما، فكيف يعيش بعد ذلك؟ وهذا المسكين سيدخل على أهله وأولاده فهل يدخل عليهم مأيوسا خائبا؟ وأعطى الرجل ما أشار به على الفور وعاد إلى أهله سعيدًا داعيا للملك ومثنيا عليه.

إذا المُقتفى وافَى من البُعْدِ سائلاً يراهُ حرامًا ردّهُ وهو عائلُ [1]

وأخرى: جاء درويش إلى حضرته وقد لف عشرة جلود على قطعة خشبية ولسانه يلهجُ بالدعاء للملك، ووقف بعيدا، وحين وقع عليه نظره المبارك سألوا عن حاجته فقال الرجل: فى منزلى عنزة أطعمت عيالى لحمها وهيأت جلدها لأصحاب السلاح وأحضرتها.

أمسك الملك الجلود بيديه، وأمر ان يُعطى مائة بالش وألف رأس من الخراف، فأعطوها إياه، ثم قال: إذا جاء الرجل ثانية أعطيناه:

قد غدا سَيْبُه رَسيلَ الغَوادى ورسول الأرزاق والأقوات

وأخرى: أخضرَ أحد الأشخاص عظمة كبيرة وطلب قيمتها منة من البالشات فأمر له بذلك.

وأخرى: كان معتادًا أن يقضى فصل الشتاء كله فى الصيد، وما بقى من فصول السنة، أى تسعة أشهر، يمضيها على النحو التالى: بعد تناول طعام الغداء يجلس على كرسى خارج البلاط، يوزع ما يَفِدُ إليه من الأقطار على الناس، المسلمين والمغول، وأمر بأن يتناول ضخام الجثث ما يريدون بالنظر إلى أحجامهم، وذات يوم قدم شخص من هذا النوع من الأحجام وحمل قطعة ثمينة من القماش تكفى لعدة أشخاص، وفيما كان عائدًا سقطت قطعة منها على الأرض، وأعيدت إلى مكانها من موضع القماش، ثم عاد الرجل يطلبها ثانية فلم يُعطها! فقال القا آن: كيف تمنعونه عنها؟ اتركوها له حتى لا يتألم، ويستطيع العودة مرة أخرى.

لو كان حاتم حيًا ورأى جودَك، فليس هناك شك فى أن يقدم الطاعة لك.

---

(١) البيت لإبراهيم بن عثمان الغزى، وهو تابع لبيت سبق ذكره.

وأخرى: أحضر شخص مائتى عصا (سوط) مُهلكة غير مــا كــانوا يستخدمونه فى تلك الأنحاء وطلب بالشا عن كل سوط:

فصار المجتدون إليه طرًا ... من الأفاق طامحة الهوادى[1]

وألفوْا مِن يَديه ما تَمنّوا ... وبشّرهم نداه بالمُعـــــاد

أخرى: أحضر شخص ثلاثة من هذا النوع من المتاع فأعطــاه مائـــة بالش ثمنا لها.

أخرى: فى بداية مراحل بناء قراقورم مرّ يومًا بالسوق فوقعت عينـــاه على دكان عناب، فاشتاق إليه، وحين دخل بلاطه طلب من دانشمند حاجــب أن يأخذ من الخزانة بالشا ويشترى له عنبًا منه، حمل الحاجب طبقًــا مــن العناب، فأعطاه ربع بالش، وهو أضعاف قيمة ما اشــترى، وحــين وضــع الطبق أمام الملك قال: لقد حصلنا على عناب كثير مقابل بالش واحد، فقـــدم الحاجب بقية البالش للملك قائلاً: إن قيمته أقل من ذلك بكثير، فتـــألم الملــك وقال: من المؤكدْ أنه لن يلقى شاربا مثلنا بقية عمره، أعطوه عشرة بالشات.

واذكر صنائعهُ فَلَسْنَ صنائعًا ... لكنّهُنّ قَلائدُ الأعناقِ[2]

أخرى: عزم الملك الخروج إلى الصيد ومر فى طريقه بمنزل محمود يلواج (صاحب الرسائل)، فمدوا له مائدة، فقال حكاية سليمان والنمل وســاق الجرادة، ولما كان المكان نزهًا (روضة)، وغمره النشاط من كثرة الشراب، ومال قلب موكا خاتون إلى الخواتين الأخريات، فسمحت لهن بمجاملتها، نثر صاحب الرسائل خارج الخيمة أنواعا من الأقمــشة المنــسوجة والمطــرزة

---

(١) الهوادى أى الأعناق ومفردها هادية، والبيتان لأبى علىّ الفضل بن محمد الطرستى ذكرها الثعالبى فى تتمة اليتيمة (نسخة المكتبة الأهلية بباريس عد ٢٣٠٨ ورق ٥٦٣ وبعدها:

يُبالغ جاهدًا فى الجوْد حتى ... يُنيل نوال كفّيه الأعادى

حاشية القزوينى على متن الكتاب ص ١٧٣.

(٢) البيت لأبى الحسن البستى (تتمة اليتمة، ورقة ٥٧٥) وهو من أبيات الإجازة أى نصف له ونــصف لغيــره (النونجى حاشية ترجمة الكتاب جــ١ جهان كشاى ٢٠٢).

بالذهب، ورمى داخل الخيمة عددًا من عقود اللؤلؤ، وحين جلسا على سريرهما (العرش) عاد صاحب الرسائل فنشر اللآلئ الملكية على رءوس الحضور ابتهاجا بهما.

ولو كنت أنْثر ما تَستَحقّ نثَرتُ عليك سُعُودَ الفَلَك[1]

وأمضى الملك ذلك اليوم متنزهًا سعيدا ووزع على كل من كان حاضرًا ثيابًا وجودًا، وفى اليوم التالى أمر بأن يخصوا صاحب الرسائل - يلواج - بمزيد من التكرم والإنعام، وأضافوا إلى ذلك أربعة آلاف بالش:

"عَمَّ الرعيّةَ والرّعَاةَ نَوَالهُ"[2]

أخرى: أمر أن يعطى فقير مائة بالش، فقال القائمون على إدارة البلاط: لعل هذا الرجل الفقير لا يفرق بين البالش والدرهم. ثم وضعوا بين يديه مائة بالش، فسألهم: ما هذا؟ قالوا: بالشات الفقير. فقال: ضاعفوها له أيها الحقراء. فضاعفوها وأعطوها إياه :

قَبّل أناملَه فَلَسْنَ أناملاً لكنّهُنَّ مفاتح الأرزاق[3]

أخرى: جرت صفقة تجارية على مائة بالش بين رجل وبعض الأمراء، فأمر القا آن أن يدفع للرجل ماله نقدًا... ووقف فقير ذات يوم على باب قصر الخان، فوقع بصره عليه، فظنّ أنه الرجل الذى كان يجب أن يدفعوا له مائة بالش، فأمر أن يدفع لهذا الرجل المال فورًا، ولكن الرجل ظَلّ واقفا فى مكانه، فعاد الرجال إلى الخزانة ثانية وأحضروا للرجل مائة بالش، فقال الرجل الفقير: ولِمَ كل هذه البالشات؟ فأجابوه بأنها قيمة البضائع، ولكن الرجل كان فى كل مرة يردُّ المال، فقال الملك: وكيف تردّون مالاً خرج من خزانتنا؟

---

(١) قصيدة مذكورة فى كتاب سعدى الشيرازى: "الكلستان" إلى الروضة.

(٢) البيت لأبى الفتح البستى يتيمة الدهر، ٩٨/٣.

(٣) قريشى.

فرجعوا مرة أخرى وأعطوها لهذا الدرويش:

وَتحكمُ فى مالى حُقوقُ مرُوءةٍ   نوافلها عند الكِرامِ فروض

أخرى: بينما كانت فتاة هندية تمر بباب القصر، كان قا آن عائدًا من الصحراء، فرآها على حالها هذه، فأمر خازنة أن يدفع لها خمسة بالشات، وحين اقترب الخازن منها وضع واحدًا فى جيبه وأعطاها أربعة، وأدركت المرأة أن واحدًا قد نقص من العطاء، فطالبته به، فسأل القا آن: ماذا تقول المرأة؟ فأجاب الخازن: إنها تطالب بأكثر من ذلك لكثرة ما لديها من العيال (الأولاد) وتدعو لك. فسأل الخان ثانية: وهل لها من تعولهم؟ فقال: طفلان يتيمان. وحين دخل القصر استدعى الفتاة الهندية، وأدخلها الخزانة وطلب إليها أن تحمل ما تستطيع حمله من هذه الثياب، فاختارت ما طاب لها من الثياب الغالية وهى تدعو لهذا الرجل الثرى:

وتكفَّل الأيتامَ عن آبائهم   حتى وددنا أننا أيتام[1]

وأخرى: قدم بازيار[2] (مربى الصقور) إلى الملك وعلى يده صقر (باز)، فسأله: ما هذا؟ أجاب البازيار"مربى الصقور": باز عليل وعلاجه لحم الطيور. فأمر خازنه أن يدفع له بالشا، وأخذه الخازن إلى الصراف ليدفع له، ولكنه أخذ يماطله، وحين لقى الخان الخازن سأله عن أمر البازيار، فقال: لم ندفع له بعد. فغضب وقال: لقد وضعت بين يديك أموال العالم، التى لا يمكن أحصاؤها أو عدها، ألا يكفى لدفع ما آمر به؟ إن كل من يطلب منى شيئا يريد أن ينتفع به لا تعطونه، فى حين أن أشخاصًا لا يقدمون شيئًا ولا يطلبون يأخذون، أعرف كل من يمد شباكه ليكسب منى، وهذا ليس خافيًا علىّ، لكننى أريد أن ينال حقه كل من جاءنى بطلب أو بشىء. وأمر أن يعطى صاحب الباز الكثير من البالشات.

---

(١) البيت لأبى تمام فى مديح المأمون (الديوان ط بيروت: ٢٨٠).

(٢) بازيار: مربى البزاة، صاحب الباز.

أخرى: كان هناك رجل يمتهن مهنة صناعة الأقواس وكان يصنعها بصورة سيئة واشتهر بذلك فى قراقورم، ولم يرغب أحد فى الشراء منه، ولم يكن يعرف مهنة أخرى، فأصابه الفقر واضطربت أحواله، ولم تكن أمامه وسيلة أخرى فحمل عشرين قوسا وعلقها على عصى (عصا)، ووقف على باب المعسكر، وحين خرج الخان من المعسكر ورآه أرسل شخصًا يستفسر عن أحواله فأخبره: إننى صانع أقواس ولم يشتر أحد منى قوسا وليست لى حرفة أخرى أعيش منها وأصابنى الفقر فأحضرت للقا آن عشرين قوسا. فقال: خذوا أقواسه وأعطوه عشرين بالشا [1].

أخرى: أحضروا للقا آن حزاما نفيسا مرصّعا، وحين تفحّصه بنظره المبارك لاحظ أن فى وسطه مسمارا بارزًا، فطلب من واحد من خاصته أن يصلحه له، فأعطاه الأمير لصانع اسمه رشيد وهو تاجر، فأخذه الصانع وباعه، وكان الأمير يطالب الصانع به كل يوم، ويتعلل الصانع فى كل مرة بعلة وبأخرى، وحين طالت المماطلة عن حدها أخبر الأمير الموكل (صاحب الشرطة) بالأمر حتى يُعيد الحزام.

وبدا أن الأمر يؤدى إلى ضياع الحزام، سيق إلى الملك وعرضوا عليه حكاية إنكاره للحزام، قال القا آن: مع أن الإثم عظيم فإن ارتكاب مثل هذا الإثم دليل على عجز وضعف وفقر. وأمر باطلاق سراحه لأن الأمر لا يحتمل كل هذه القسوة، وأمر بأن يعطى من الخزانة مائة وخمسين بالشا ليصلح بها أحواله، على أن لا يعود إلى مثل ذلك:

"إذا أصبح لطفك بمقدار الجود، فإن الجسم صورة لهذه الروح"

(١) البالش: كان أنذاك عبارة عن خمسمائة مثقال من الذهب أو الفضة، ومصطلح بالش يفيد بالش الفضة. حاشية جهان كشاى للقزوينى ص ١٧٧.

ما جاد بالوَفْر إلا وهو مُقتدِرٌ وما عَفَا قَطُّ إلا وهو مُقتَدِرُ[1]

أخرى: أحضر شخص كأسا حلبية (من الصفيح) وأخذها منه جماعة من رجال القصر دون أن يُدخلوا صاحبها القصر، وعرضوها على الملك، فقال: لقد تعب حاملها حتى جاءنا بهذه الكأس الدقيقة الصنع من بلاد بعيدة. فأمر بإعطائه مئاتى بالش، وكان صاحبها جالسا على باب المعسكر يفكر ويتسمع هل وصلت أنباء هذه الكأس إلى يد الملك أم لا، وفجأة خرج الحجاب يبشرونه بذلك، وأعطوه فى نفس هذا اليوم مئاتى بالش، كما سمع فى نفس ذلك اليوم أيضًا كلام خادم حبشى، فأمر أن يسأل الصانع: هل يرضى أن يكون واحدًا من خدمنا؟ فأجاب الصانع: هذا هو عملى. فأمر أن يُعطى مائتَى بالش أيضًا، وخرج يشترى وينفق على نفسه ما يجعله مثالا للخدم، ولكنه ذهب ولم يرجع نهائيًا، ولم يتعرف أحد على مسكنه و منشئه:

وإنى لأسدى نعمتى ثمَّ ابتَغِى لها أختَها من أن أعلّ وأشفقَا

وأخرى: عاد شخص من حضرته مأيوسا إذ لم يستمع إليه، فراح يُعلن للناس من "مالين باخرز"[2] يعرف الجميع: إننى حصلت على كنز ثمين، ولن أبوح عنه بشىء حتى تكتحل عيناى بجمال القا آن. وكلما جاءه رسول يستفسر منه عن الكنز لم يغيّر جوابه، وفى النهاية وصل أمره إلى مسامع القا آن، فأمر بإحضاره، وحين مثل بين يدى حضرته سأله عن كلامه الذى شاع عنه فقال: كنت أبحث عن وسيلة ما توصلنى إليك وأنعم برؤية وجهك فلم أجد سوى هذه الطريقة، والحقيقة أننى لا أعرف شيئا عن أى كنز. وكان منظر الرجل يدل على أنه لص ولم يكن من الممكن لأى شخص أن يعجبه مثل هذا الكلام وتلك الحركات إلا أنه قد بدا تغير فى أحواله وغض الملك الطرف على ذلك وقال. ما دمت رأيت وجهنا فيجب أن تعود مرة أخرى. وأوصى رسله أن يأخذوه وأن يوصلوه إلى منزله بسلام:

---

(٢) البيت لأبى غوث المنبجى (تتمة اليتيمة، باريس، الورقة ٥٢٤).

(١) باخرز: بليدة فى أقصى خراسان، مقدمه ديوان الباخرزى، ت المقدمة.

وما السحاب إذا ما انجاب عنَ بلَدِ   ولا يُلَمُّ به يوما بمذمومِ(١)

أخرى: كان فى قراقورم شخص أنهكه الضعف والعوز، وكان يصنع كئوس الخمر من قرون الوعول الجبلية، وكان يترصد عبور موكب (الخان الملك)، وحين رأى موكب الخان قادما من بعيد، نهض من فوره وفى يده كأس قدمها له فأخذها الخان منه وأمر له بخمسين بالشا فطلب الكاتب أن يعيد الرقم الذى قال فقال: كم مرة طلبت منك أن تنفذ ولا تستكثر ما آمر به؟ فالمال مالى فلا تستكثر ما أمرت به. وقال: أرفض نصائح اللائمين. وبهذه البالشات أصبح المعدَمُ غنيا:

يا ملك الوقت والزمَان   ومن علا فى عظيم شانِ

ضدان ما استُجمعا لخلق   وَجُهك والفقرُ فى مكان(٢)

أخرى: اقترض رجل مسلم من أحد الأمراء الأويغور أربعة بالشات من الفضة وعجز عن سدادها، فقبض عليه الأمير الأويغورى وهدّده إما أن يترك دين محمد عليه الصلاة والسلام، ويدخل فى عبادة الأوثان، وإما أن يقوم بفضيحته والمرور به فى سوق المدينة وضربه مائة سوط، فطلب منه هذا المسلم أن يُمهله ثلاثة أيام، وحضر إلى حضرة القا آن وأراه آثار السوط على رأسه، فأمر الخان بإحضار الأمير الأويغورى، وحين تحقق من صدق كلام المسلم لامه على تعذيب المسلم وأمر أن يعطى زوجة الأويغورى ومنزله وأن يضرب هذا الأويغورى وسط السوق مائة ضربة، كما أمر بإعطاء المسلم مائة بالش:

بَحرٌ إذا حلّتِ الورّاد ساحته   لَم ينهَهُم عِلَلٌ عن القَلَلِ(٣)

---

(١) بيت لأبى زفافة المصرى، وبعده البيت التالى:
إن جُدْتَ فالجُودُ شىء قد عُرفت به: وأن تجافيت لم تُنسب إلى اللؤم –يتيمة اليتمية نسخة باريس وفيه ٥٠٩.

(٢) البيتان لأبى وفيق الدمياطى فى عزيز مصر ذكرهما الثعالبى فى تتمة اليتيمة نسخة باريس ورقة ٥٢١.

(٣) بيت لأبى زفافة المصرى، وبعده البيت التالى: إن جُدْتَ فالجُودُ شئ قد عُرفت به: وأن تجافيت لم تُنسب إلى اللؤم – تتمة اليتيمة نسخة باريس وفيه ٥٠٩.

أخرى: كان هناك شخص من سادة قرية جرغ بخارى (قرية كبيرة على مقربة من بخارى يُنسب إليها قوم من أهل العلم قديمًا وحديثًا -حاشية القزوينى ص ١٧٩ جـ عن معجم البلدان)، يسمّونه "العلوى الجرغى" أخذ من القا آن مالاً للتجارة، وحين حل وقت سداده قال: لقد سلمته. فسأله الكتاب عما يثبت سداده وإيصال تسليمه قال: لقد سلمته بيدى ليد القا آن. فأحضروه إلى حضرة القا آن، فسأله: فى أى وقت وبحضور من سلّمتنى المبلغ؟ فأنا لا أذكرك ولا أعرفك! أجاب: كنت فى ذلك اليوم وحيدًا ولم يكن معك أى شخص. وبعد أن فكّر الخان قال: إن وقاحته واضحة وإفتراءه بيِّن وكذبه جلىّ، وبما أنه قال هذا الكلام فلا يسمح له بأن يأخذ من الخزانة أموالا مرة أخرى. وتركه... وفى ذلك اليوم كان قد حضر جمع من التجار ومعهم أقمشة فاشتراها منهم بأثمان باهظة، وفجأة سأل السيد: من أين جاءوا بك؟ لقد ضاق ذرعك حين أمرنا بعدم إعطائك مالاً وعدم شراء بضاعتك! فتضرع السيد إليه وبكى، ثم سأله الخان بعد ذلك عن قيمة بضاعته، فقال: ثلاثون بالشا، وإن أمرت بمنحى مائه بالش فهذا تكرم منك.

أخرى: أتت امرأة من قريباته وطلبت إليه أن ينظر إلى ما تزين به جواريه ومحظياته من ثياب ولآلى ومرصّعات، فأمر صاحب "يلواج" آنذاك أن يحضر اللآلئ المعدّة، فأحضر صاحب الديوان اثنى عشر صندوقًا من اللآلئ كان قد اشتراها بثمانين ألف دينار، فأمر بإلقائها كلها بين يديها، ثم قال: اشبعي من اللآلئ حتى لا تنظرى إلى ما فى يد غيرك من النساء:

سلك ابن أرْمَكَ فى السّماح مسالكا ... لو مرّ فيها حاتمٌ لم يَهتد[1]

وسَمَا بهمته التى قد ذلّلت ... هام السّماك وقرن سعْد الأسعد[2]

وأخرى: أحضر إليه شخص رُمَّانة نادرة الشكل، فأمر أن تعدّ حباتها، وأن يكون لكل الحاضرين نصيب منها، ويدفع لصاحبها بالش عن كل حبّة:

---

(١) بيت من قصيدة لأبى صالح سهل بن أحمد النيسابورى فى أبى سعد بن أرْمك. تتمة اليتيمة ٥٨٨ .

(٢) سعد الأسعد: من منازل القمر.

فَلِذاك يزدَحِمُ الورى فى بابــه شَرْوَى ازدِحامِ الحَبِّ فى الرُّمان[١]

أخرى: قدم إليه عربى ملحد وقال: لقد رأيت فى منامى جنكيز خـــان، وقال لى: قل لابنى أن يقتل المسلمين جميعًا لأنهم قوم سيئون. وبعد أن أمهل نفسه ساعة للتفكير قال للمترجم: اسأله هل قال لك هذا الكلام أم قاله لنفسه؟ أجاب: قال هذا الكلام لنفسه وبلغته، فسأله: أتعرف التركية أو المغولية؟ قال لا. فقال: لا شك لدى فى أن والدى لا يعرف لغة أخرى غير المغولية، وهذا دليل على كذبك. وأمر أن يقتلوه.

أخرى: يقال إن مسلما كانٍ فى ناحية "تنكــوت" بموضـــع يقـــال لـــه "قراتاش"[٢] أحضر إلى الملك طبقًا من المأكولات آملاً أن ينال حريته ويسمح له بالعودة إلى بلاده، فأمر أن يُعطى بالشا ويطلق سراحه.

أخرى: كان هناك أحد الأشخاص حضر احتفالا ذات يوم، وانتظر حتى رأى الحرس وقد أصابهم السكر، فدخل القصر وسرق قدحا ذهبيا ثم هرب، وفى اليوم التالى طلب القدح فلم يجده فأمر بأن ينادى فى الناس أن من يجـــد القدح ويعيده فهو آمن ويعطى ما يتمناه، فجاء السارق فى اليوم التالى ومعه القدح، فسأله. لِمَ فعلت هذا؟ قال: حتى يأخذ القا آنِ (ملك العالم) حـــذره ولا يأمن لحراسه الذين يسمونهم طرفاقان (ومفردها طرفاق أى الحارس الليلى)، ولا يعتمد عليهم وإلا فقد الكثير من متاع خزانته. فقال جميع الأمراء: إنـــه يجب أن ينال جزاءه ليكون عبرة للآخرين ولا يقدم إنسان آخر على ارتكاب مثل فعلته.

عندئذ قال القا آن: لقد أعطيته الأمان من قبل، وإلا كيـــف سيـــصدقنا غيره؟ وإن مثل هذا الشخص يجب أن لا يقتل لأن قلبه ممتلئ ندمًا. وأمر له بخمسمائة بالش وخيل وثياب، وعيَّنه أميرا على عدّة آلاف وأرسله إلى الختا.

---

(٣) من قصيدة للغزّى.

(١) ذكرها صاحب جامع التواريخ ط بلوشيه ص ٧٧ بهذا الشكل، ويعلق القزوينى على ذلك بأن هذا قريب من الصواب. حاشية جهان كشاى ص ١٨١.

وأخرى: بعد أن نما الزرع بَرد الجو بردًا شديدًا وهبت عاصفة ثلجية حتى هلك الزرع، عندئذ ارتفعت الأسعار واشتد الغلاء فى قراقورم، حتى بيع المَنّ الواحد بدينار ذهبا، وكان ذلك أمرا نادر الحدوث، فأرسل مناديا ينادى: لا يتألمن أحد من تلف مزروعاته ولا يعتره أى إحباط، وليحاول الزرع مرة ثانية هذا العام، فإن لم يجن المحصول الذى يريد، فإنه سيعوض عن ذلك من خزانة الملك وأهرائه. وما حدث هو أن الأرض قد غلّت غلات كثيرة فى العام التالى، بحيث لم يعمّ مثل هذا الخير على المنطقة منذ زمن بعيد.

وأخرى: سيق ثلاثة أشخاص كانوا قد ارتكبوا جرمًا، وأمر أن يقتل الثلاثة، وحين خرج من البلاط رأى امرأة تُعفر وجهها بالتراب وتبكى، فسأل عن سبب بكائها فقالت: إن من حكم عليهم بالإعدام أحدهم زوجى والثانى ابنى والثالث أخى، فقال اختارى واحدا منهم نبقيه لكى يحيا قالت: الزوج يُعوّض، والابن أيضًا مرجوّ، أما الأخ فلا سبيل إلى تعويضه. فأمر بالعفو عن الثلاثة [1].

وأخرى: ذات يوم رغب فى مشاهدة مصارعة، كان يأتيه فى البداية جماعة من المغول والقفجاق والختا، وحين إستولى على خراسان بدأ يفد عليه مصارعو خراسان والعراق، وأرسل رسولاً إلى "جورماغون" ليحضر إليه مصارعا فأرسل من همدان بطلا ضخمًا كالفيل، وحين دخل على القاآن أعجب بمنظره وشكله وتناسب أطرافه مع ضخامة جثته، وحين وفدت إليه جماعة أخرى من المصارعين أمرهم ببدء المصارعة.

وتمكن هذا المصارع من إنزال الهزيمة بالجميع ولم يستطع أحد أن يطرحه أرضا ويلمس ظهره الأرض، فأمر أن يعطى هذا المصارع خمسمائة بالش، ثم أمر له بجارية كالبدر فى تمامه كالطاوس فى مشيته حلوة الحديث،

---

(١) هذه الحكاية بنصها مذكورة فى مرزبان نامة، تأليف سعد الدين الوراوينى، وقد ألف الكتاب قبل تأليف عطا الله لكتابه جهان كشاى بخمسين سنة، وتنسب هذه الحكاية إلى الضحاك، حاشية جهان كشاى جـ ١، ص ١٨٣.

ولكن هذه الفئة من الناس تعرض عن معاشرة النساء حفاظًا على قوتها وكمال أجسادها، فاعتذر عن أخذ الجارية. وجاءت الجارية ذات يوم إلى معسكر الملك وسألته عن عدم قبولها، وكيف يكمل العرب نصيبهم من اللذات، فى حين أن هذا المزاج موجود بين المغول. فى حين أننا نعلم أن عضو الذكر عند العرب مشهور بكبره كما يقول الشاعر:

وَيْحَك يا أيْرى أما تَستَحِى تَفْضَحُنى ما بَيْن جلاّسي
تَخرُج عن جَيْبِى بلا حِشمةٍ وترفَع المِنْديلَ عن راسى[1]

وقالت الجارية: ولكننى مشتاقة إلى التمتع معه والسرور به دون غيره. فطلب الملك البطل، وبحث معه الأمر فأجابه: لقد حظيت فى حضرة الملك بالشهرة، ولم يتمكن أحد أن يغلبنى، ولا أريد من أجل النسْوة أن أضعف قوتى. فقال الملك: أن هدفى أن تنجب أطفالاً، وبعد ذلك نعفيك من المباريات. طلب المصارع واسمه "محمد شاه" أن يرسل رسولاً يستدعى أبناء حرفته، وحين وصلوا نازلهم جميعًا فى ميدان وهزمهم جميعًا، ثم ركع هذا الضخم على ركبتيه وقال: ها قد رأيت يا مولاى كل قوّتى وأنا طوع أمرك، فأمر بتزويجه بالجارية، وبعد خمسة أيام منحه من الأموال الكثير وأصبح محل عنايته وأمر له بسبعمائة بالِش:

تتقيض الأموالُ حين تَحلُ فى كفّيهِ أن لَيَستْ بدار مُقَام[2]

وأقام للعروسين حفلة زفَاف، وأجرى عليهما، كالماء الجارى، الثياب والجلود والتحف، كما سمح لهما بأن يختارا بأنفسهما ما شاءا من أنواع الملبوسات.

حكى واحد من الأصدقاء والثقات قال: كنت فى بلاد الروم فى عهد

---

(١) البيتان لأبى السمّط الرُسْعنى أى المنسوب إلى رأس عين ذكرهما الثعالبى فى تتمة اليتيمة (نسخة باريس ورق ٥٢٠، نقلاً عن حاشية جهان كشاى جـ١، ص ١٨٤).

(٢) هذا البيت لأبى الحسن علىّ بن محمد التّهامى المشهور وقبله هذا البيت :

يقْضِى بحكم الجودِ فى أمواله وقضى بحكم الله فى الأيْتام

تتمة اليتيمة، باريس ورق ٥١١، نقلاً عن حاشية جهان كشاى جـ١، ص١٨٤.

السلطان علاء الدين كيقباد[1]، وكان بين المنافسين (الناس) شخص مختل العقل وكان يحصل على قوته عن طريق السخرية، وكانت أقاصيص ملك العالم وكرمه الحاتمى حديث الناس، وأن ملكا فى المشرق من نسل المغول يستوى عنده التبر والترب (أى التراب والذهب).

"لدى مقدار همته العالية، يتحول النقد قليل العيار إلى سبعة نجوم".

وفكر هذا الرجل الماجن (المسخرة) فى السفر، وانطلق فى رحلته، ولم يُمدّه رفاقه بالزّاد، واشترى حمارًا ومضى فى سبيله، وبعد ثلاثة أعوام وبينما هو سائر فى السوق، رأيت راوى الرواية سيدًا عظيمًا يملك الخيل والبغال والجمال والغلمان الخطا عن اليمين وعن الشمال، وحين رآنى ترجل من فوره عن الحصان ورحّبَ بى وأبدى سرورًا كبيرًا برؤيتى، ودعانى بإصرار إلى ضيافته، وقدّم لى كل ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات فى أوان من الذهب والفضة، والقينات والمغنون والسقاة يقفون فى نظام حولنا، كما هى عادة أصحاب المروءة والفتوة فى تلك الأيام، وألحّ على البقاءِ معه يومين أو ثلاثة محتفيا بى محاطا بكرمه، دون أن أتذكره، حتى عرّفنى بنفسه قائلاً: أنا صاحبَ الحمار. فسألته عن أحواله: "إنى رأيتك سفيها فمتى صرتَ فقيها؟" قال: حين سافرت من بلاد الروم معدما على حمارى، قصدتِ قصر ملك وجَه الأرض، وكنت أحمل معى آنذاك قدرًا من الفاكهة المجففة، وجلست أعلى تبّة فى طريق عبوره، وحين أبصرنى أرسل شخصًا إلىَّ يسألنى عن أحوالى، فشرحت له ما أنا فيه من الفقر المدقع، وقلت له إنى خرجت من بلاد الروم قصدت قصر الملك قاصدًا الآلاف من نواله وعطاياه فلعل الملك السعيد طويل العمر يرفق بحالى ويحول حالى التعيس إلى طالع مسعود:

"إذا أراد أن يهدينى إلى طريق النور، قدّم لى النصح، نصح العجوز المشهور (المجرب)، وإذا هربت فارًا مثل السهم، فاقصد صاحب الدولة فى القمة.

---

(١) علاء الدين كيقباد الأول، من سلاجقة الروم فى تركيا، حكم (٦١٦- ٦٣٤ هـ ت).

وفى أثناء الحديث وضعوا أمامه طبقًا من الفاكهة وإلى جانبه وعاء فيه ماء [ليغسل فيه الفكهة حسبما هو واضح فى حاشية ص١٨٦ من المجلد الأول من جهان گشاى]، وأركان الدولة ينظرون إلىّ من طرف خفى، فوضع فى الطبق بضع حبات من الفاكهة، ثم اتجه نحو رجاله وقال: قدم هذا الرجل من بلاد بعيدة، مارًا ببلاد كان يمكنه أن يلقى لدى أمرائها العون الذى ينشده، وهم كذلك سيغنمون من مُساعدته، لذا رميت عددًا من حبات الفاكهة فى وعاء الملك لآكل منها أنا وأولادى، وأترك بعضا منها تقتسمونه فيما بينكم. وساق الجواد حتى وصل إلى المعسكر، عندئذ أخرج الفاكهة من الطبق وأحصاها، واتجه إلى دانشمند حاجب وسألة عن منزلى فأجاب: لا أعلم أين يسكن. ثم استدعاه مرة أخرى ثم سألنى: أى مسلم أنت؟ فقير قدمت إلينا من بلاد بعيدة، ولا تعرف ماذا ستأكل أوْ تشرب، وأين تنام وتستيقظ؟ اذهب أيها الحاجب إلى أهلك، وأحسن ضيافته وأكرم وفادته وهيِّئ له مسكنا مناسبًا. وهكذا أخذنى وأنزلنى فى السوق وأخذ يبحث يمينًا ويسارًا حتى أنزلنى فى منزل له.

وفى أحد الأيام طلب من دانشمند حاجب أن يحصى عدد البالشات فى الخزانة، فأخبره أن بالخزانة سبعمائة بالش، جاءته من فتح "فيزى"[1] فأمر باستدعائى وأعطانيها كلها، ثم أمرنى أن أمر به بعد عدة أيام، فكان كلما جاءته عائدات البلاد منحنى إياها، وهكذا تحولت حياتى من ضيق ذات اليد إلى ثروة وغنى وسعة:

وإذا أتاه سائل ربُّ الشُوَيْهة والبعير[2]
أبْصرْته بِفنائه ربَّ الخورنق والسّدير

---

(١) هى الصين الجنوبية والتى كانت تسمى "ماجين ومهاجين" أى الصين الكُيزى ويطلق عليها المغول اسم"تكياس" - حاشية جهان كشاى ص ١٨٦ نقلا عن بلوسيه.

(٢) البيتان لأبى بكر الخوارزمى (تاريخ يمينى طبع دهلى: ٧٢) وقد نظمها على قصيدة المنخل اليشكرى المشهورة والمذكورة فى (شرح الحمامة ٢/ ٤٥) ويروى أن القصرين بناهما النعمان بن المنذر فى الحيرة لبهرام كور، ومعنى الخورنق: القصر الصيفى العظيم، والسدير: القصر ذو القباب الثلاث .

وأخــرى: كان مغولى يدعى سنقولى بوكا (توكا فى إحدى النسخ) كان يملك قطيعا من الخراف. فهجم على قطيعه ذات ليلة باردة ذئب فقتل منهــا الكثير وهرب بعضها، فجاء المغولى إلى الملك فى اليوم التالى وشرح له ما أصاب قطيعه من الذئب، وأخبره أنه فقد ألف رأس فى تلك الليلة، فسأله: إلى أين هرب الذئب؟ ومصادفة أتى إليه جماعة مــن الــصيادين المــصارعين المسلمين وأحضروا له الذئب حيًا وفمه مكمم.

فقال لهم: أشترى هذا الذئب منكم بألف بالش. وقال لــصاحب قطيــع الخراف: إن قتل هذا الذئب لا ينفعك فى شىء. وأمر له بألف خروف.

وقال: سأدع الذئب طليقًا، ليخبر أصحابه عن هذه الحكايــة. ومــا إن أطلق سراح الذئب حتى انقضت عليه الكلاب كالأسود، وطفرت به وقتلتــه، فتغير القا آن وغضب وأمر أن يقضى للذئب من الكلاب، ودخل المعسكر – البلاط– مفكرًا مهمومًا، ثم نظر إلى رجال قصره وقال: حين أردت إنقاذ هذا الحيوان أصر الحق تعالى أن يضع الحق فى نصابه، لأن هذا الحيوان نجس، وليس كما أخطأت وفكرت، وهكذا انتهت حياته. وليس خافيا على المفكرين أن الملوك ملهمون من عند الله، وقد ورد نظير ذلك فى الكتب، فيحكــى أن المأمون أرسل طاهر بن الحسين وعليًا بن عيسى بن ماهان[1] لمحاربة أخيه محمد الأمين إلى بغداد.

وفى تضاعيف القصة أن حماذا الرّاوية كان من ندمائك، فقال حمــاد: كنّا اليوم نتنزه ونَشْرب، وفيما نحن كذلك رسا زورق فيه بعض الجــوارى، فركبْنا معهن وكان بينهن جارية جميلة من بين الجوارى اسمها قبيحة، ومن بين أسنانها سن ذهبية أكملت حسنها وجمالها، وكان فى يد الأمين كأس مــن

---

(١) هذا سهو وخطأ، فمن المعروف أن عليًا بن عيسى بن ماهان كان قائد جيش بغداد من قبــل الأمــين، وأن طاهر بن الحسين كان قائد جيش خراسان من قبل المأمون، فقتل على فى المعركة، ولم يكونا معا فى جيش واحد.

الياقوت حمراء نارية صُنعت على هيئة السفينة، وتُعَدُّ هذه الكأس من نفائس الدنيا ونوادر البلاط، وحين علا الصّخب وعم السرور نهضت قبيحة من مكانها لأمر تقتضيه، فعلق ثوبها بحذائها فسقطت على الكأس فانكسرت.

واصطدمت سنتها الذهبية بحافة الكأس فانكسرت وهى التى كان محمد الأمين مشغوفا بها، فاتجه إلى حمّاد وقال: دنت نهايتنا، وهى كذلك نهاية الندماء. فدعا ربه أن يبعد عن محمد هذا التشاؤم. وبينما كان الحديث يجرى بينهم على هذا النحو من التَطيّر سمعوا هاتفًا يقول "قضى الأمر الذى فيه تستفتيان"، فقال محمد الأمين: أسمعت يا حماد؟ ولكن حمّادًا أصم أذنيه عن سماع الصوت، وعاد الهاتف ثانية يعيد الآيه، عندئذ قال محمد الأمين لحمّاد: عندئذ لم يعد هناك شك بعد الآن، انهض، وانتبه لأمرك، لقاؤنا أنا وأنت يوم القيامة.

أخرى: قدم رجل عجوز من حدود بغداد، وجلس فى نهاية الشارع المؤدى إلى قصر الملك فوقعت عينا الملك عليه فى أثناء عبوره، فاستدعاه إليه فسأله: لم أنت واقف هنا فى نهاية الشارع؟ أنا رجل مسن وفقير ولى من البنات عشر فتيات، ولشدّة فقرى لم يتقدم لخطبهن أحد. فقال الملك: لماذا لا تذهب إلى الخليفة ما دمت أنت من بغداد؟ فأجاب: كلما طلبت من الخليفة صدقة منحنى عشرة دنانير ذهبية، أصرفها على عيالى. فأمر الملك أن يعطى ألف بالش فضة.

فقال أركان دولته طالبين منه أن يكتب إلى حاكم ولاية الختا آمرًا أن ينقده من الخزانة، وحين أحضروا البالشات من الخزانة، ووضعوها أمام هذا العجوز قال الرجل المسّن: كيف أحمل هذا المال الوفير من هنا وأنا رجل ضعيف؟ واكتفى بأخذ بالش أو اثنين، فأمر الملك بإعداد حمار وأجوال وأن توضع الأموال فى الأجوال، وأن يرافقه الحمال بالأجوال فى سيره إلى بلده فقال العجوز: إننى لا أستطيع أن أصل والمال معى سالمًا إلى بلدتى، فإن حصل فى الطريق واقعة ما، حرمت بناتى من أنعام الملك. فأمر الملك أن يحرسه فى طريقه اثنان من جنود المغول حتى ولاية "إيل"، وبينما كان

المغوليان يسيران مع العجوز فى طريقه إلى بلدة أزركته وافته المنية فى الطريق، فأخبرا الملك بذلك، فقال الملك: ألم يبلغنا الرجل بعنوانه؟ وألم يخبرنا العجوز أين تسكن بناته؟ فأجابه المغولان: بلى، قال لنا، فأمر الملك عندئذ أن يحملا المال إلى بغداد ويسلماه إلى بناته، وأن يقولا: هذا المال صدقة الخان لزواجِكنّ.

أخرى: أعرست إحدى قريباته وأُرسلت إلى زوجها، وأمر لها بصندوق مملوء باللؤلؤ يحمله ثمانية أشخاص زينة لها، وحين حملوا ذلك الصندوق إلى الملك كان الملك مشغولاً بالشراب والطرب، فأمر أن يفتح الصندوق، وكل لؤلؤة منه قيمتها دينار أو ديناران، ونثره على الحاضرين، فقال له أحد رجال حاشيته: كان هذا الصندوق معدًا لجهاز الفتاة الفلانية. فقال: فى الخزانة صندوق آخر مثله، أرسلوه غدا إليها.

أخرى: أرسل أمير شيراز (أتابك) أخاه البطل إلى القا آن يحمل له بعض الهدايا ومن بينها قربتان مملوءتان ذهبا، بحكم الآية "كل حزب بما لديهم فرحون" متباهيا بما يقدمه، وأدرك قا آن ذلك، فأمر بصندوق حديدى كبير ملؤه لآلئ كبيرة الحجم، فأصابت الدهشة الرسول والحاضرين، فقال القا آن: اشربوا واسعدوا.واقتسموا ما فى الصندوق فيما بينهم:

إذا حملت قطرة إلى البحر العميق ظنك الناس مجنونًا بهذا الاتجاه

لقد ذكرت هنا بعض ما يجب ذكره، راجيا من الله حلمه وعفوه وعطاءه وعدله وتربيته، وهذا قليل من كثير، وقصدت من هذا القول بأن لكل زمان صولة رجاله، كما فى سالف الأزمان حاتم وأنوشروان وغيرهما، وذكر كل واحد فى حياته حتى نهايتها كعين الشمس المشعّة، وحكاياتهم ورواياتهم مذكورة ومسطورة، و"فى كل ما قَرْن سدومٌ وجُنْدبٌ"، ولو أننا تقصينا هذا الميدان لاطنبنا، فاكتفينا بهذا المقدار من الاختصار، على أنى أختم هذا القول بحكاية تدل على قهره وصولته وسياسته وهيبته، وكما أوضحنا ما عرف عنه من فيض نعرض فى هذه الحكاية ما اشتهر به من السطوة والانتقام وكيف يُذلل ذلك كله:

له يَومُ بُؤسٍ فيه للناسِ أبْؤسٌ ويوم نَعيمُ فيه للناس أنعُمُ
فيمطِرُ يُومُ الجودِ من كفّهِ النَّدى ويَمْطِرُ يومَ البأسِ من كفّهِ الدّمُ[1]

كان فى قبيلة "أويرات" أمير ألف، تناقلت فيه الأنباء أنه أمر أن يستولى بعض رجاله على بنات البلاد التى يفتحها، فاعترى أهل الفتيات الخوف وخطبوا أكثر بناتهم لخصومهم، وانتشر هذا الخبر وتناقلته الأفواه حتى وصل إلى سمع الملك، فعين عدة أمراء للذهاب إلى هناك والتحقق من النبأ، وحين جاءه الخبر اليقين أمر أن يجمعوا الفتيات اللاتى تعدين السابعة من عمرهن وأن يعيدوا كل شخص سلم بناته إلى خصمه، ووجد أن عددهن قد بلغ أربعة آلاف كالأقمار فى حُسنِهن:

حين بدا حسنها من وراء الستار خجل القمر وانخسف

وأمر فى البداية أن يفصل بنات الأمراء منهن، ثم أمر الحاضرين أن يختلوا بهن، وكان من بينهن فتاتان فى غاية الجمال، أما الباقيات الصالحات فقد أوقفوهن صفوفا، ومن كانت لائقة أرسلوها إلى الحرم الملكى، وأشبعوا الفهود والجوارح من لحوم فئة منهن، وخصوا ببعضهن رجال البلاط والعاملين فيه، وحولوا فئة منهن إلى منازل الرسل، ليؤدين الخدمات اللازمة، أما الباقى فيهن فكان بإمكان أى مغولى ومسلم أن يختار ويأخذ ما يشاء، فى حين أن الآباء والإخوة والأقرباء والأزواج كانوا يرقبون هذا بعيونهم وقلوبهم تحترق كمدا أو عجزا وتتفتت، من غير أن يجرءوا على المعارضة. وهذا الحديث دليل واضح على قهره وتنفيذ أحكامه، وانقياد عساكره ورجاله لأوامره.

---

(١) البيتان للحسين بن مظير الأسدى (شرح الحماسة ط بولاق: ٣/ ٢- حاشية جهان كشاى ط ١٩٠).

ذكر منازل قا آن ومراحله

حين استقر حاتم الزمان وحاكم العالم على عرشه وارتاح خاطره من أمر الختا سعى إلى معسكر أبيه الكبير، الذى هو موضع إقامته فى حدود "إيميل"، أمَّر ابنه كيوك على بلاده ومقرّ إقامته، وهى الممتدة من حدود مياه "أرقوت" وجبال قراقورم، ولم يكن فى تلك المنطقة مدينة أو قرية، سوى أثر لحائط يطلق عليه اسم "معسكر باليغ" ووجدوا وقت جلوسه سورا حجريا مسجلاً عليه أن بانيه هو "بوقا خان"، وتفاصيل ذلك مثبته فى أثناء الحديث عن بلاد الأويغور، وأطلقوا عليه اسم "مآو وباليغ"، وأمر الملك أن يبنوا أعلاه مدينة سمّوها "معسكر باليغ" ولكنها عرفت باسم مدينة قراقورم، واستقدموا من بلاد الختا أصحاب الحرف وكذلك جلبوا من بلاد الإسلام الصناع والزراع فبدأوا عمليات الزراعة.

ولكثرة المياه وفيضان المواهب وغزارة الرغائب بدأوا العمل فى جميع المناحى وانتهوا من تشييد المدينة خلال فترة قصيرة وشيدوا له فى أعلى الجهة المقابلة بناءً وشيدوا لهذا البناء بوابة خاصة تفضى إلى ممر خاص للملك، وبوابة لأولاده وأقربائه، وثالثة للحريم، ورابعة لدخول العامة وخروجهم، وشيد الصناع الختا وسط ذلك قصر الملك، تتصل أبوابه ببوابات المدينة بحسب توزعها، وبنوا عرشا بثلاثة أجنحة: الأول للملك ، والثانى للملكة، والثالث للسقاة والطباخين. وعلى يمين القصر وشماله منازل الإخوة والأبناء والحرس، وزينوا القصر والعرش والمنازل بنقوش وزخارف، ووضعوا فى مساكن السقاة جرارًا ضخمة لا يمكن حملها أو نقلها، كما بنوا كل ما يلزم للآلات الأخرى أو لمرابض الفيلة والجمال والخيل، ومنازل مخصصة للمشرفين عليها، حتى إذا أقيم احتفال جيء بالأشربه والأطباق الذهبية والفضية المرصّعة بسهولة.

وكان الملك ينزل فيه مرتين فى العام: فى الوقت الذى تحل فيه الشمس فى برج الحمل، وحين تبتسم الدنيا، وتبدو فيه الأرض من بكاء سحاب الربيع ضاحكة الأزاهير منّداة بالظل، ويمضى فيه شهرا مستمتعا بالشمس، يقيم فى العرش احتفالا، وحين تبلغ الأمطار مرتبة فيضه، يُنعم على الصغار والكبار فيتّحول فقيرهم إلى غنى.

ما ضرّ أهلَ الثغر إبطاء الحيا — عنهم وفيهم يوسف بن محمد

وحين بلغ الربيع غايته من الجمال، وبلغت الأعشاب قمة نضارتها وخضرتها، بحث عن مُتنزَّه آخر أشرف على هندسته المهندسون المسلمون على الرغم من أن من بناه وأعدّه بناءون ختائيون، وسمّى هذا المكان "قرْشى سورى"[1] وهو قصر جميل شاهق، محلًّى بأنواع النقوش والفرش الملونة، وبنوا عرشه فى صدر البناء، وفى مجلس الملك أنواع نادرة من الأوانى والقدور الياقوتية الحجر، والمرصعة باللآلئ، وإلى جانبها ما يناسبها من أدوات وأوان، وفى القصر حوض وجداول فيها من الطيور (من بنات الماء) [2] السابحة عدد كثير، وكانوا يستمتعون بعيدها، ثم ينعمون بالشراب بعد ذلك، وبساط الكرم فيه لا يُغلق ولا يُطوى، ويوزع هباته وعطاياه كل صباح، طوال بقائه فى هذا القصر، وكان يعيش سعيدا فى هذا القصر، فيدمن

---

(١) قرْشى بالمغولية تعنى قصر الخان.

(٢) ابن ماء: طائر يكون بالماء وهو نكرة كابن أوبر ويجمع على بنات ماء (المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٣٤٨، ٣٥١- ٣٥٣ وشرح الحماسة للتبريزى جـ ١ ص١٩٩ان نقلاً عن حاشية جهان كشاى جـ ١، ص١٩٤).

العشرة والشراب، فكأنه سمع قول القُهُستَانى[1]، وانتصح به:

تمتع من الدنيا فأوقَاتُها خُلَسٌ	وعُمرُ الفَتَى مُلّيتَ أكثَرهُ نَفَسٌ
وسَارِعْ إلى سَهْمٍ من العيشِ فائزٍ	فما ارْتَدَ سَهْمٌ مَرَّ قطُّ ولا احتَبسْ
وقَضٌّ زمانَ الأنس بالأُنسِ وانتَبهْ	لَحظِّكَ إذ لا حَظَّ فيه لِمَن نَعَسْ
ولا تتقاض اليومَ هَمَّ غدٍ وَدَع	حديث غد فالاشتغالُ به هَوَسْ
هِيَ الروحُ كالمِصبَاحِ والرّاح زيتُها	فَدونَك عَنّى إنّما الرأىُ يُقتبسْ
أنبّيكَ عن نَفْسِى وعمّا اختبرتُ لا	أحاديث تُروى عن قَتَادةَ عنْ أنَسْ

حين بلغ الربيع مرحلة الاكتهال، ونهاره آل إلى زوال، عاد إلى مصيفه، ولما كان طريقه يمر على القصر والبستان أقام فيه، على عادته أياما، حيث يأمر فيه بالمعروف، ثم يتجه من هناك إلى غايته التى تبتعد ثلاثة أميال عن المدينة، وهناك قصر صغير بُنى على حافة تَل، يعود إليه كذلك حين يئوب مشتاه، وفى كل مرة يُمضى بضعة أيام فى التجول والنزهة بين تلك الربوع.

ويمضى صيفه بين الجبال، حيث بنى له الختاتيون بلاطا جدرانه خشبية متشابكة، ونوافذه مذهّبه، وسقوفه مغطاة باللباد الأبيض، واسم مصيفه "سيراردو"، وفى هذه البقعة مياه باردة، وأعلاف كثيرة، ويستمر فى مصيفه حتى ينذر الثلج بالنزول، وهناك أيضا فى تلك المتنزَّهات يعم سخاؤه وكرمه.

وحين أشرف فصل الخريف على الانتهاء وبدأت بواكير فصل الشتاء انتقل إلى مشتاه وعاد إلى كل ما يوجب الفرح والسرور لمدة ثلاثة أشهر،

---

(١) يعنى أبا بكر على بن الحسن القهستانى من أعيان شعراء السلطان محمود الغزنوى، وقصيدته مذكوره فى تتمة الثعالبى، ورقة: ٥٧٤.

وفاضت فيها نعماؤه وعطاياه وهباته، ويذكر في هذا الموضع بيتان من ذوات الوجهين:

لقد حالَ دُون الورْدِ بَرْدٌ مَطاوِلٌ   كــأن سُعُودًا غُيِّبــت فــى منــاحسِ

وحُجّب فى الثلج الرّبيع وحُسنَه   كما اكْتَنّ فى بيضٍ فِرَاخُ الطّواوِسِ[1]

وبحمد الله تعالى ما زالت هذه المنازل المباركة مسعدة الملك المبارك ملك الملوك المشهور أنوشروان الزمان منكو قا آن ومَزّينة بوجــوده، والدنيا مستظلة بسياسته وعدله، والرباع مزهرة بخيره، وهَبَه الله تعالى مزيدًا مــن العدل ونفاذ الرأى والأمر والنهى، وحباه الله عمرًا مديدًا، وقوّى بسلطانه دين الحق.

(١) البيتان لأبى منصور قسيم بن إبراهيم القاينى الملقب بزرجمهر من شعراء السلطان محمود الغزنوى (تتمــة اليتيمة باريس ورقة ٥٦٣ ولباب الألباب لمحمد عوفى طبع بروان جــ ١ ص٣٣ نقلاً عن حاشــية جهــان كشاى جــ١ ص١٩٥).

ذكر توراكينا خاتون

حين نفذ حكم الله تعالى ورحل ملك العالم وحاتم الزمان القا آن عن الدنيا ولم يعُد ابنه الأكبر "كيوك" من حربه مع جيش القفجاق، فقد اجتمعت الخاصة والعامة على باب مقر زوجته "موكا خاتون" وهى التى ورثها عن أبيه جنكيز خان طبقا لعادتهم واستعانوا بها على تنفيذ الأحكام، ولما كانت زوجته الكبرى وهى "توراكينا خاتون" أمًّا لأولاده الكبار واشتهرت بذكائها ودهائها عن "موكا خاتون" فقد أسرعت بإرسال السفراء والرسل إلى أبناء الملوك من إخوة القا آن وأبنائه، تشرح لهم ما حل بالبلاد من أحوال وما وقع فيها من حوادث، وتطلب منهم تحديد وقت لتعيين خان جديد، ويجب أن يكون حاكما ورئيسا يتعهد أمور الدولة بحزم ويرعى أمور الحكم ولا يهمل أمور الرعية، ويثبت دعائم الجيش والحشم، فأعلن جغتاى وغيره من أبناء الملك أن "توراكينا خاتون" هى أم أولاد الخان الراحل وأكثرهم استحقاقا للخانية فإنها تتسلم إدارة البلاد حتى يحين موعد انعقاد "القورلتاى- الاجتماع الموسع لأبناء الملوك والأمراء" الرسمى العام - وسيساعدها أكفاء القصر حتى لا تختل القوانين القديمة والجديدة ولا يحدث انحراف عنها، وكانت توراكينا معروفة بدهائها وكفاءتها.

وهكذا كانت، فقد أثبتت توراكينا خاتون براعة فى متابعة حكم القا آن، فضبطت أمور الملك بالمهادنة والحيل والكياسة، وجذبت إليها قلوب الأقرباء بأنواع الحيل والهدايا والتحف، ومال إليها أكثر الأجانب والعشائر والأقارب، وانقاد الناس إلى أوامرها ونواهيها طواعية ورغبة، وانضووا تحت قوانينها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جُبلت القلوب على حُبّ من أحسن إليها وبُغض من أساء إليها"، ووقف الناس جميعا بجميع فئاتهم إلى جانبها، واتبعها جينقاى وخيرة رجالات بلاط القا آن وكذا ولاة الأطراف والأقطار.

وفى أيام القا آن كان لتوراكينا خُصوم وحسّاد، واستطاعت بعد أن دان لها الحكم أن تضعهم فى موضعهم المناسب ولم يستطع أن يثبت أحد على منازعتها ومناقشتها، منتهزة فرصتها قبل فوات الأوان، بحكم القول: "بادر فإن الوقت سيف قاطع"، وأرادت أن تتشفى فيهم وأن تكافئ كل واحد منهم على ما فعل، وأرسلت سفيرا إلى الختا ليستدعى الصاحب "يلواج" كى يقبض لها على الأمير "جينقاى" ولكن "جينقاى" تفرّس بذكائه وحذقه فأيقن أن سببا يخصه جعلها تستدعى صاحب الرسل ففكر فى النجاة بنفسه، لم يجد سوى الهروب وسيلة لتحقيق ذلك فولى وجهه شطر ابنه "كونان" [(١)] طلبا للحماية، وحين وصل السفير إلى الصاحب يلواج تلقاه بالترحاب والإعزاز والإكرام، وكان كل يوم يتلقاه بنوع من أنواع التقدير، وحين مضى يوم أو يومان على قدوم السفير أعدّ العدّة والجواد فى الليلة الثالثة ليلا وفرّ مع بعض الفرسان، فأيقظ الحرس صاحب الرسل وأخبروه بهروب يلواج مع بعض الفرسان متجها إلى "كونان" ووجد عنده الأمان.

فأبْت إلى فهم ولم أك آئبـاً وكم مثلها فارقتها وهى تَصْفِرُ [(٢)]

وحين وصل الاثنان الكبيران إلى بلاط كونان وضمنا اللجوء إليه، وأمّنهما أرسلت توراكينا خاتون رسولاً يطلبهما فأجاب ابنها: لقد احتمت بغاث الطيور بى هربا من مخالب الباز القوية، وهى الآن فى حمايتى، تتمسك بأهداب دولتى، وإرسالها مخالف ومحظور طبقًا لشروط المروءة والهمّة وبعيد عن نهج المكرمة والفتوّة ولا عذر فى ذلك لدى القاصى والدانى ولا عند الترك والتاجيك.

---

(١) كونان من أبناء أوكتاى قا آن وأمه توراكينا خاتون.

(٢) هذا البيت من أبيات لتأبط شرا، شرح الحماسة ط بولاق جـ ١ ص ٣٧ إلى ٤١ نقلاً عن حاشية جهان كشاى جـ ١، ص١٩٧.

وقريبا سينعقد الاجتماع الرسمى الموسع "قوريلتاى" وسنعرض ونناقش إجرامها وآثامهما ويناقش ذلك فى حضور الأمراء والأقرباء، وسيحددان الحكم المناسب. وتكرر إرسال الرسل، وكان "كونان" يجيب نفس الإجابة السابقة، وحين أدركت توراكينا خاتون أن استرجاعهما غير ممكن، اتفقت مع الأمير عماد الملك الختنى الذى كان من رجال القا آن، وكان على اتفاق تام معهما منذ زمن على تلفيق التهم ضدهما كى تتمكن من إلصاق التهم بهما ووضع القيود فى أرجلهما أيام محاكمتهما فى أثناء الاجتماع الرسمى، وحتى تتم إدانتهما.

ولما كانت شيم العظماء تقتضى الوفاء والكرم، ولم تكن فى نفسه أحلام بعيدة المدى، فإنه لم يقبل بالوشاية ولا بسعاية، وقرر سجن نفسه اختياريا حتى ينقذه الله من هذه الورطة الهائلة بسبب ما جُبل عليه من عقيدته الطاهرة وغيرها من الصفات الحميدة، ولهذا كانت له مكانة كبيرة فى عهد "كيوك خان". وكذلك حين لاحظ الأمير مسعود بك هذه الأوضاع عن كثب، رأى من الصلاح أن لا يمكث فى ممالكه في تلك الأثناء وفضل المبادرة بالرحيل إلى "باتو"، أما الأمير "قرا أوغول"[(١)] وخواتين جغاتاى وقوربغاى فقد صحبوا الأمير "أرغون" رسولاً إلى كوركوز[(٢)] ليعيدوه إلى العاصمة.

وفى هذا الوقت كانت هناك امرأة تدعى "فاطمة" تمكنت تمكنًا تاما فى أعمال بلاطها وخدمتها واستطاعت أن تسيطر سيطرة تامة على العديد من الأعمال الملكية مستفيدة من كفاءتها وحسن رأيها، فأقالت عبد الرحمن من منصبه فى بلاد الختا، وعيّنت مكانه محمودًا[(٣)]، وسيرد ذكر هذه المرأة منفصلاً فى نهاية هذا الفصل. وحين قاد الأمير أرغون "كركوز" إلى توراكينا خاتون حبسته لضغينة قديمة بينهما وعينت الأمير أرغون مكانه على خراسان، أما من كان على علاقة وُدّ معه فكانت ترسل إليه الرسل محملين بالأموال والهدايا، إلا من كان من طرف "سرقويتى بيكى" وأولادها فإنها لم تفرض عليهم شيئًا ولم تخضعهم لقانون معين.

---

(١) قرا أوغول أو قرا هولاكو: حفيد جنتاى.

(٢) كان أميرًا على خراسان.

(٣) هو نفسه محمود يلواج الصاحب.

وكانت "توراكينا خاتون" تستدعى السلاطين شرقًا وغربًا، وكذلك الأمراء والعظماء والملوك لعقد الاجتماع الرسمى مع أن كيوك لم يكن قد وصل بعد وساحة الخانية ما زالت خالية طبقا للقول المشهور:

"مَن عَزّ بَزّ وعِزُّ الحُرِّ فى طَلَقِه"[1]

فقد تهور أوتكين" (عم جنكيز خان أو ابنه أو أخوه فى بعض الروايات) بسعيه للوصول إلى الخانية، فقد أعدّ جيشًا وتوجه به إلى معسكر القا آن، وحين وصل إلى هناك وجد أن الحفيد "منكلى أوغول" مع عدد كبير من أقوامه وأفواجه قد ترصّد له، فأدركته الندامة لفكرته، وأعلن أنه قادم لتقديم التعازى، وعلى هذا الأساس قُبل اعتذاره. فى تلك الأثناء وصل خبر يفيد بوصول "كيوك" إلى معسكره على شاطئ إيميل، فازداد أوتكين ندما.

وحين وصل كيوك إلى أمه لم يشرع فى إدارة أمور الملك، بل اكتفى بتنفيذ أحكام أمه حتى استقر له الحكم بعد ذلك، فلم يمض شهران أو ثلاثة حتى قتلت فاطمة كما سيلى، وماتت كذلك الأمّ بدورها.

(١) صدر بيت للغزّى، ورقة ٥٨ وعجزه :
فإنما يُسغب الهرماسُ أنفه.
غير أن الديوان يذكر خلْقه، مكان "طلقه".

ذكر فاطمة خاتون

حين استولى المغول على مشهد الإمام الرضا المقدّس، عليه أفضل الصلاة والتحية وقعت فاطمة فى أيديهم أسيرة، وأتوا بها إلى قراقورم، وبيعت فى سوق الدلالة على يد دلاّلة، فعلّمتها هذه الدلاّلة كل فنون الذكاء والدهاء، وكانت تأتى بها كثيرًا إبان حكم القا آن إلى معسكر توراكينا خاتون... وحين تغيّرت الأحوال، وعلا أمر الأمير "جنيقاى" تقربت منه حتى أصبحت محرم أسراره وموضع أسراره الخفية (ومكمن ما خفى من أسراره) وتمكنت من السيطرة عليه وحرمت أركان دولته من مباشرة أعمالهم وتهيئة السبل أمامهم حتى ملكت مقاليد الأمر والنهى، فتقرب إليها العظماء من سائر الأطراف يطلبون وُدّها، خصوصا كبار عظماء خراسان وجمعا من سادات المهد المقدس الذين تقربوا إليها ظنًا منهم أنها من نسل سلالة السادات العظام. وحين تولى كيوك خان السلطة كان هناك واحد من أهل سمرقند كانوا يقولون إنه علوى المذهب اسمه "شيره"، وادّعى ساقيه قداق[1] أن فاطمة قد سحرت كوتان[2] قاصدة من وراء ذلك الغمز بعلاقتهما، ولهذا السبب أصابته العلة، وحين عاد كوتان، واشتد مرضه الذى ألمَّ به، أرسل رسولاً إلى أخيه كيوك خان مبلغا إياه أن ما أصابه من علة إنما هو من فعل سحر فاطمة، فإن أصابه مكروه فعَلَيْك القصاص منها. وفى أثر ذلك جاء خبر وفاة كونان، وكان جينقاى قد تمكن من السلطة فأخبره بهذا القول وبتلك

---

(١) قداق : أمير من أمراء قبيلة نايمان، كان مسيحيا. كان أتابك كيوك ومربيه وقد وصل إلى مرتبة الوزراء فى عهد خانية كيوك.

(٢) كوتان أخو كيوك.

الرسالة، فأرسل رسولا إلى والدته طالبا إحضار فاطمة ولكن الأم لم توافق على إرسالها متعللة أنها ستحضرها معها، وتكررت رسالة إحضارها عدة مرات، وتكرر اعتذار الأم عن إرسالها بأسباب مختلفة، مما سبب غضبا كبير وسوءًا فى علاقتهما (علاقته بأمه)، واستدعى سمرقندى حتى إذا طلب إرسال فاطمة وتم الاعتذار مرة أخرى، كلفه بإحضارها، وحين لم يعد للاعتذار مجال أرسلت فاطمة ولكن الأم ماتت عقب ذلك، واستجوب فاطمة وعارضته، عندئذ تركها عارية جائعة ظمئة عدة أيام وليال، وسامها أنواع التعذيب والتنكيل والتعنيف والتهديد، حتى وصل بها الأمر فى نهاية المطاف إلى الاعتراف بجرم لم ترتكبه وجرم لم تقترفه خضوعا للغماز الهماز والتزوير، وضاق بها الحال، عندئذ أمر بِلَفّها داخل لباد وإلقائها فى الماء :

أحضرت واحدا ونصبته ملكا عندئذ تكون قد ألقيت فى البحر سمكة

عندئذ أمر بإعدام كل شخص كانت له علاقة بها. وأرسل السفراء والرسل إلى مشهد يستدعون كل من ادّعوا قرابتها وعذبوهم عذابا نكرا.

وفى تلك السنة التى خلف فيها كيوك أباه اتهم على خواجة أمير "إيميل" شيره بالتهمة نفسها، وهى أن شيره يسحر خواجة[1]. فوقع شيره كذلك فى الأسر والقيد، وسجن عامين ذاق خلالهما صنوفا من التعذيب والقيد، حتى يئس من حياته. وحين أيقن شيره أنه يعاقب – كما عوقبت فاطمة- أدرك أن هذه العقوبات "هذه بضاعتنا ردت إلينا" وأن الموت حتم مقضى ورحب بقضائه وقدره، أقرّ بما لم يرتكب من ذنوب، وألقوه بدوره فى اليمّ، ولحقه أبناؤه ونساؤه الذين قطعوا رقابهم جميعا. قتلوا الكبار فبقى وحيدا ولم تقرأ الدنيا بدورها منشور قتله.

---

(١) خواجة : هو خواجة أوغول بن كيوك خان، وأمه أوغول غايمش خاتون.

وفى تلك السنة أيضا حل السعد المبارك وتسلم منكوقا آن مقاليد السلطة وعرش الخانية، وعُيّن "بزنكو تاى[1] على بيش باليغ". وفى هذا الوقت استدعوا خواجة، وكان خواجة من أقرب المقربين إليه، فاستدعوه كذلك لأن شخصا ادعى على خواجة بالسحر السابق الذكر، وأمر أن يضرب من كل جزء من جسده حتى تكسرت جميع عظامه ومات، وأسَرُوا أسرته كلها وعذبوها وأذلوها.

لا تسعد بما يصيب شخصا لا تسعد به لنفسك

وارتفع صوت القضاء قائلا : يَدَاكَ أوْكَتَا وفُوك نَفَخْ[2]،

إن كنا حريرا فأنت غزلْتــه وإن كنا شوكا فأنت غرسته[3]

وقد صدق سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام حين قال :

قَتَلْتَ وقُتِلتَ وسَيُقتل قاتلك.

وقديما قيل :

وما من يد إلا يد الله فوقها وما ظالم إلا سيُبلى بظالم[4]

وعلى العاقل الفطن أن يتبصر بنور هذه المعانى، ويتأمل ويتأنق بها.

ولم يعد خافيا أن عاقبة الخداع وقصارى المكيدة إنما تنجم عن خبث الدخيلة وفساد النحلة وهذا أمر مذموم، وخاتمته شؤم. والسعيد من اتعظ بغيره.

ولو علموا ما يُعقِبُ البغى أهله

ولكنّهم لم ينظروا فى العواقب

عافانا الله من أمثال هذه المقامات، والتخطى إلى خطط الخطيئات.

---

(١) ورد الاسم دون تنقيط فرأى المحقق (القزوينى) أن يلفظ كما كتب فى المتن.

(٢) المثال فى مجموع الأمثال للميدانى (باب الياء).

(٣) البيت من أبيات الشاهنامة للفردوسى.

(٤) فى رواية أظلم.

ذكر جلوس كيوك خان
فى جهار بالش الخانى

فى ذلك العام الذى ودّع فيه القا آن حياة الدعة، وامتنع عن نعمة الدنيا الدنية أرسل السفراء إلى كيوك خان ليتسلم زمام الأمور، فبادر إلـى تنفيـذ الأمر بكل همة وعزيمة. وأسرع امتثالا لأمره فطوى المسافات طيا محاولا تدارك الأمر والمصيبة التى لحقت بالدولة، وحتـى يرفـع حجـاب البائنـة والمهاجرة ويرفع ما نزل من القضاء، إلا أن القدر لم يمهلـه ولـم يمـنح الفرصة لأحد، ولا لقطرة تروى سكان الباديـة مـن زلال الوصـل ولا أن تكتحل عَيْنَا أب بولده، وحين أبلغوا كيوك بخبر هذه الحادثة التى لا مرد ولا علاج لها رأى من الواجب أن يعجل كثيرا فى حركته حتى وصل إلى "إيميل" وسمع بحادثة "أوتكين" فتوجه مباشرة إلى معسكر والده فكان وصوله حـسمًا وقضاء على أطماع الطامعين. وأقام إلى جوار أمه وأقر أمور السلطه طبقـا لرأى والدته " توراكينا خاتون" وأصبحت كل أمور الحل والعقد طوع بنانـه ملتزما بقوانين الياسا – التشريع المغولى المعروف – دون أن يتدخل كثيـرا فى أمور الملك، أو يناقش أى أمر. ولما كان قد أرسل الرسل إلـى أقاصـى البلاد وأدناها داعيا الملوك والأمراء والسلاطين والكتاب، فقد تحركوا جميعا كل من موطنه وبلده تلبية لأمره، ولما كان قد دار الزمن دورته وأقبل الربيع مبشرا بالخير، ووضع على النجوم قدم السعد ورسم قلم النسيان على صفحة البستان صورة إرم، وازدانت الوديان بأزهار فروردين ووفود الرياحين من جميع الألوان، وشكر فصل الربيع فضل البديع بـالبراعم المتفتحـة ولهـج السوسن مبتهجا بكل لسان، وخسرت الحمائم المطوقة مداعبة العـشق مـع الفاختات، وغنت البلابل مع العصافير فى الفضاء هذا الغزل :

"تصبت خيل الربيع خيامها فى الربّى فأصبح واجبا علــى المــرء أن ينصب خيمته هناك، فليشرب من الصباح حتى العشى، وليقطف الأزهار من المساء حتى السحر".

وتسارع وصول الأمراء كل فى خيلــه ورجالــه وخدمــه وحــشمه، ودهشت أعين البشر من تنظيمهم وسهم فى عين مخالفيهم، فقد وصلت فــى بادئ الأمر "سرقويتى بيكى"[1] وأولادها فى موكب مهيب وعدة لم ترها عين ولم تصغ إليها أذن (بما لا عين رأت ولا أذن سمعت).

ووصل من الشرق كوتان مع أولاده، وأوتكــين وأولاده، وإيلجتــاى، والأعمام، وأبناء الأعمام. ومن معسكر جنتاى وصــل "قــرا[2] وييــسو[3] وبورى[4] وبايدار[5]، ويسنبوقه[6]" وصغار الأمراء من الأبناء والأحفاد. ومن بلاد سقسين والبلغار لم يأت باتو بل أرسل بدلا منه أخاه الكبير "هردو" [الابن الأول لــتوشى] وإخوته الصغار: شيبان وبركه وبركجار وتقاتيمور، وعددا من الأمراء الصغار المعتبرين. وقدم من بلاد الختا الأمراء وكبار رجــالات البلاط. ومن بلاد ما وراء النهر وتركستان وصل الأمير مسعود بيك يرافقة كبار رجالات الحدود. وقدم فى صحبة الأمير أرغــون مــشاهير رجــالات خراسان والعراق واللور وآذربيجان وشروان. ومن بلاد الروم السلطان ركن الدين والسلطان باكور (تاكور)[7]. ومن جورجيا [كرجــستان] "الــداودان" [اثنان]، ومن حلب شقيق حاكم حلب، ومن الموصل رسول الــسلطان بــدر الدين لؤلؤ. ومن دار السلام بغداد قاضى القــضاة فخــر الــدين وســلطان

(١) زوجة تولوى خان وأم منكولا قا آن وقوبيلاى قا آن وهولاكو خان وأريق بوكا. جهان كشاى حاشية، ص ٢٠٤.

(٢) هو قرا أوغول الذى سبق ذكره.

(٣) الابن الخامس لجغتاى وقد ورد اسم أجنادا "ييسو منكوه".

(٤) بورى ابن ماتيكان بن جغتاى.

(٥) بايدار الابن الخامس لجغتاى بن جنكيز خان.

(٦) أخو بورى بن ماتيكان.

(٧) ملك أرمينيا.

أرضروم، ورسل من الفرنجة، ورسل كذلك من كرمان وفارس. ومن طرف علاء الدين حاكم آلموت قدم شهاب الدين وشمس الدين حاكم قهتان، ومع كل واحد منهم ما يليق بالخان من الأحمال، كما وصل من الأطـراف الأخـرى رسل وسفراء عديدون، حتى بلغ عدد الوافدين قرابة الألفين".

وقد أعد لهم جميعا المكان المناسب الذى يلائمهم فأعدوا لهم ألفى حمل حمار. ووفد إلى المكان التجار من سائر أنحاء الـبلاد مـشرقها ومغربهـا حاملين النفائس والطرائف. ومثل هذا الاجتماع لم يروا مثله فى حياتهم وليس له سابقة من التاريخ، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت وتعذر وجود مكان بجوار هذا المعكسر، كما تعذر وجود أماكن أخرى للقادمين :

فمن كثرة الخيام والرجال وستائر القصور لم يبق فى الصحراء مكان واحد

وغلت الأسعار وندرت الأعلاف، وقد اتحدت كلمة الأمـراء وأبنـاء الملوك على الأخذ بتقليد الخانية وتفويض مقاليد المملكة إلى أحد أولاد القـا آن.

عاد الهوس إلى رأس "كوتان" [الابن الثانى لأوكتاى قا آن] لأن جـده أشار إلى ذلك يوما. إلا أن قَوما آخرين كانوا يرون تولية "سيرامون"[١] الذى كان قد كبر فى السنّ وكان قادرًا على تولى أمور حكم البلاد. وكان كيـوك من بين الأبناء أكثر غلبة واقتحاما وشططا وكان ذلك معروفا عنـه، وهـو الابن الأكبر سنًا من إخوته وأكثر مُمارسة لصعاب الأمور، فقد عركته الحياة بحلوها ومُرّها وشاهد سراءها وضراءها. وبين أن "كوتان" مريض عليـل، وأن "سيرامون" لا يزال طفلا. وكانت توراكينا خاتون تؤيده وتقف فى صفه، وبيكى – أى سرقويتى بيكى أم منكوقا آن– وأولادها موافقون علـى ذلـك، ومعهم عدد من الأمراء والقادة. وهكذا استقر الرأى على تعين كيوك حاكمـا

---

(١) هو ابن كوجو بن قا آن. وكان ولى عهد قآ آن ابنه الثالث (كوجو) ولكنه مات فى حياة والده، لهـذا عـين حفيده سيرامون وليا لعهده.

للبلاد. وكان من المعتاد أن يمتنع كيوك عن قبول ذلك، وبعد كثير من المحايلة والتشجيع والملاطفة يقبل ذلك حتى قبل أخيرا. عندئذ قام الأمراء جميعا رافعين قبعاتهم تحية وإجلالا، وفتحوا أحزمتهم وتناولوا كئوس الشراب. وأنهضه هردوا وآخر... وأجلساه على العرش وركع كل من كان فى المجلس وخارجه ثلاث مرات، وأسموه ... "كيوك خان". وعلى عاداتهم تعاهدوا كتابة على أن يأتمروا بأمره ولا يحيدوا عن قوانينه، ودعوا له، ثم خرجوا من القاعة وركعوا للشمس ثلاث مرات.

وحين جلس الباز على عرش العز، أصطَفّ عن يمينه الأمراء وعن شماله الخواتين. كان المنظر عجيبا بهيجا لكثرة اللآلئ اللامعة والدرر الثمينة. وقام على أعمال السقاية كل غلام لطيف المظهر بنفسجى العذار، أحمر الخدّين لامع الوجنتين سروى القدّ زهرى الفمّ لؤلؤى الأسنان صبيح الطلعة :

فلو أنه فى عهد يوسف قُطِّعت	**قلوب رجال لا أكفُّ نساء**
إذا نظر المشاهدون جمالهم	**قدم الزهاد إلى الفهد ينبركون**

وربطوا أحزمتهم فى وسطهم واستقبلوا هذا اليوم بكئوس الشراب وأقداح النبيذ :

إذا رقص الحبابُ بحافتيها	**رأيت الدّرَّ فى حُمر الحِقاق**

أخذت كوكبة الزهرة تتطلع إلى ذلك المجلس، وتشيع أنغامها على سقف القبه الخضراء، ففار القمر والمشترى فنشرا أشعتهما المنيرة على الأرض، وانطلق المغنون يُغنون فى حضرة ملك العالم بنغمات "باربدية"[1]. وأغلق الحاضرون أفواههم هيبة وتقديرا، واستمروا فى فرحهم ومرحهم على هذا النحو حتى انتصف الليل وهم فرحون ويشربون، والأمراء يحوطون الملك خاضعين له راعين له :

(١) نسبة إلى المغنى الفارسىّ الشهير "باربد".

"على أنغام الأوتار وعزف الناى، وقف كل غلام صبيح على خدمة المليك، وكانوا يحتسون الخمر حتى انتصف الليل والمطربون يقدمون أعذب الألحان[1]، وحين أضحوا سكارى ركعوا أمام الملك ثناءً ودعاءً، واستأذنوا للخلود إلى النوم. وحين طرح النور ثقاب السواد نهض الملك :

حتى إذا مد الصباح رواقه ومضى الظلام يجر فضل ردائه

وقدم أبناء الملوك والأمراء وعامة الناس إلى بلاط الملك يتبخترون، منشرحي الصدور مستبشرين، وحين ارتفعت الشمس إلى كبد السماء، ورغب الملك الجبّار السعيد فى أن يخرج من خلوته:

"ارتدى الحلل الملكية الذّهبية، وتقلد التاج الملكى، وبخيلائه وكبريائه أقبل يتمايل من خلف ستائر القصر، تتبعه الرايات البراقة، وجلس على عرشه فى "جهار بالش" فى بلاطه بحشمة ووقار. شرع يُنعم بالإذن للدخول عليه للخاص والعام. وجلس كل واحد هادئا فى مكانه :

وأثنوا على البطل، بأنك يقظ وسريع سرعة خاطفة

فلتدم الدنيا تحت قدميك، ولتبق على عرشك على الدوام

وتمايلت الخواتين والمحظيات بثيابهن حين توافدت مواد السرور وكاسات الخمور:

حييت خديك بل حييت من طرب وردًا بوردٍ وتفّاحا بتفّاحِ

وتمايل الرجال والنساء والبنون والبنات على طرف الشمال كنسيم الشمال، وتدثروا بثياب وشيت باللآلئ، فلمعت وبرقت وكأنها أنجم السماء تناثرت غيرة من تناثر اللآلئ، ومدّوا أيديهم إلى أقداح اللهو والسرور، وأنصتوا إلى ميادين الطرب، ومتعوا أنظارهم برؤية الغوانى، وشنفوا آذانهم بالاستماع للأغانى وتواترت عليهم لذات الحياة، ففى يدهم الأقداح، وبين

---

(١) هذان البيتان من شاهنامة الفردوسى.

أناملهم ضفائر الغيد الملاح. وهكذا مضى اليوم السعيد، وتبعته سبعة من الأيام، من المساء حتى الفلق ومن الصباح حتى الشفق. واستمتعوا بمعاطاة كئوس المدام من أيدى الحسناوات جميلات الثياب أنيقات الهندام:

ونفخة شادن توحى يداه إلى الأوتار آيات اشتياق

حتى إذا تمت ليالى الحبور فتحت أبواب الخزائن ووزعت الأثواب والنقود والجواهر عن طيب خاطر وسرور، وفوضت "سرقويتى بيكى" بأمر التوزيع لأنها أحكم من فى المجلس، فرأت أن يكون النصيب الأول لأبناء الملوك الذين هم من نسل چنكيز خان وأرومته، ممن حضروا هذا الاجتماع من الرجال ومن النساء، مهما كانت مراتبهم، يليهم الأحفاد فأمراء العشرة الآف، فأمراء الألف، فأمراء المائة، فأمراء العشرة، ثم كل أعوان الملوك وأنصارهم وكتابهم وأرباب أعمالهم والمتعلقون بهم كائنا من كان، ولم يحرم أحدٌ ممن حضر هذا المجلس من نصيبه بل أخذ كل واحد منهم ما يليق به من العطاء ثم بدأ بعد ذلك فى استعراض أمور الملك ودراستها، وكان أول أمر ناقشوه قضية "أوتكين"، ورأوا ضرورة تقصى البحث عن موضوعه، واستقر الرأى على التروى والتلطف عند بحث أمره إذ لم يجد أحد فى موضوعه جرما بعد أن استعرض الموضوع كل من "منكو" وهردو، وحين قتلوا الموضوع بحثا استقر الرأى على الرجوع إلى قوانين الياسا فى حقه، ومضوا فى قضاياهم كلها على هذا النمط من البحث والفحص دون أن يبدى أى من الحاضرين اعتراضا على ذلك.

وتوفى جغتاى بعد وقت قصير من رحيل القا آن، فخلفه حفيده قرا أوغول، دون أن يعارض ييسو، ابنه من صلبه، ومع أن ييسو مع كيوك خان على صداقة وصفاء، فإنه تساءل : كيف يرث الحفيد مع وجود الابن؟ فى حين أن قا آن وجغتاى – إبان حياتهما – اتفقا على تعيين قراغول وليًّا للعهد[1].

---

(١) الصحيح أن ماتيكان هو الابن الأكبر لجغتاى ولكنه قتل فى عهد جنكيز خان فى أثناء حصار قلعة "باميان". فاتفق أوكتاى قا آن وجغتاى آنئذ على تسليم ولاية العهد لابن ماتيكان وهو "قرا أوغول" (قرا هولاكو) أى حفيد جغتاى. وحين تولى كيوك الحكم لم يرض بالحفيد وعين ييسو الابن الآخر لجغتاى. حتى إذا تسلم الأمر منكوقا آن أعاد الحكم إلى قرا أوغول ليكون ملكا على "ألوس" وأمر بقتل ييسو.

وهكذا خلف ييسو أباه جفتاى وسانده وعضده فى حكمه. ولكن منذ وفاة قا آن أقدم أبناء الملوك وغيرهم من العظماء على طلب تدوين عهودهم على براءات مسجلة ومختومة بأمر من كيوك خان نفسه لإبرازها عند الضرورة تصديقا لما ورد فى القرآن الكريم "اقرأ كتابك".

كانت بيكى[1] وأولادها موجودين، ولم يجرؤ أحد على مخالفة أمرها (أى لم يكن لأى شخص حظ مخالف لما تنص عليه الياسا). وكان كيوك خان يتخذها مثالا يحتذى فى أحاديثه ويثنى عليها وعلى اهتمامها بالياسا وتطبيقها على كل من يستخف بها، وأعلن منذ اليوم الأول لجلوسه أن كل قرارات القا آن أبيه نافذه ولا تقبل التغيير أو التبديل، وأعلن أن كل مرسوم ممهور بإمضاء أبيه ينفذ دون عرضه عليه ولا حاجة إلى توقيعه مرة أخرى.

وبعد تقديم هذه النصائح تشاوروا فى أمر ترتيب الجيش وإرساله إلى سائر أكناف العالم، وحين اتضح أن "منزى"[2] التى تقع فى أقصى بلاد الختا لم تخضع بعد لسلطانه اختار لفتحها "سبتاى بهادر" وجنان نوين، وأرسلهما إلى هناك مع جيش جرّار مزوّد بالعتاد، كما أرسل الجنود إلى تنكت وسلنكاى، كما أرسل "إيلجيكتاى" على رأس جيش جرار نحو الغرب وأمر أن يرافق كلَّ أمير اثنان من عشرة ممن يخصونه، ويبقى الآخرون، ويذهب من التازيك اثنان من عشرة للحرب، على أن تبدأ الحرب بالملاحدة، وقرر أن يتحرك بنفسه فى أثرهم، ومع أنه أمر بأن يكون الجيش كله والعشيرة تحت حكم "إيلجيكتاى" وأن يحارب الملاحدة فقد أضاف إلى مهامه بلاد الروم والكرج وحلب والموصل وديار بكر حتى لا يفكر أحد آخر فى الدخول إليها، وأضاف أن على ملوك تلك الديار وسلاطينها أن يتصلوا به مباشرة، وسلّم أمور مملكة الختا إلى الصاحب المعظم محمود يلواج، وبلاد ما وراء النهر وتركستان وبلاد أخرى غيرها والتى كانت تحت حكم الأمير مسعود بك وأن تضاف إلى سلطانه أيضًا.

---

(١) يقصد سرقويتى بيكى وأولادها منكو قا آن وهولاكو خان وقوبيلاى قا آن ورايق بوكا.

(٢) الصين الجنوبية.

أما العراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وجزء من بلاد الهند فتخضع للأمير أرغون، ومنح كل واحد منهم فرمانه ممهورا بختم رأس الأسد، أما سلطنة الروم فقد أبقى عليها السلطان "ركن الدين" لأنه "صالحه" وقدم إليه وعزل أخاه الأكبر، وعين داود ابن ملكة الكرج بعد أن حكم على داود الآخر. كما منح سلاطين باكور وحلب والسفراء مراسيم ملكية، أما وفد بغداد فبعد أن أكرمه وعززه ومنحه المرسوم الملكى فإنه عاد واسترجعه منه وحمّله لومًا وشتمًا لأمير المؤمنين بسبب شكوى جاءته من سيرامون بن جورماغون، كما أعاد وفود "ألموت" بالإذلال والإهانة. وأجابهم على مذكراتهم بما يليق من المعاملة السيئة الخشنة.

وبعد أن فرغ من مهمات الأمور وعظائم الأعمال، وبعد أن انتهى الأمراء من تقديم فروض الولاء للملك، عزموا العودة وأخذوا يستعدون لتنفيذ ما أمر به كيوك خان وتحدث فيه من حيث ترتيب الجيوش وإرسالها (إلى المناطق المختلفة) وتعيين الأمراء. فانتشرت أخبار، تولى كيوك خان العرش فى كل مكان، ورافق هذا ما اشتهر به من خشونة وهيبة سياسية، سبقت شهرته تلك قبل أن تصل الجيوش إلى المخالفين، فتملكها الخوف والهلع حتى توجس خيفة منه الجرىء والشجاع.

"وَجّه لخصمك سهام جيشك الجرّار، يُعِدْ جيشك هيبتك ويضعها فى حصن حصين وكل من سمع بسطوته وصولته "يبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء". لا أرى عدوا فى العالم، لا ظاهرا ولا باطنا إلا ويجب أن يضطرب من سماع اسمك، إنه لا يضطرب فحسب بل ويفقد روحه"[١] .

ولم يكن هناك مجال لأركان حضرته ورجاله المقربين وخاصته للدّنو منه، ولم يستطيعوا التحدث فى مواضعهم لعرض رغباتهم، حتى القادمون من بلاد قريبة أو بعيدة لم تكن لهم الجرأة على الاقتراب من مرابط خيوله

(١) هذان البيتان من شاهنامة الفردوسى.

بمقدار شبر واحد إلا ذلك الشخص التى اعترض من اليوم الأول ورجع، والذى طبعه بهذه الطباع ورسخها فى تربيته كالنقش على الحجر قداق المسيحى العقيدة، فقد كان مربيه منذ نعومة أظفاره، فعلمه أن يكون شديدا قاسيا، وأضاف جينقاى على تلك الشدّة قلقا، كأنه من القساوسة والنصارى، وتعلم أيضا عنهم حسن الاستقبال، وحين ذاع صيته هذا بهذه السمات توافد عليه القساوسة من ديار الشام والروم وبغداد وروسيا والآس. وكان يلازمه كذلك كثير من الأطباء وكانوا من النصارى غالبا، وبسبب ملازمته لقداق وجينقاى كان من الطبيعى أن يخليا طبعه من بغض وكراهية للدين وإنكار للدين المحمدى عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولما كان الملل من طبع هذا الملك، فقد أسند أمور الحل والعقد فى كل الأمور إلى "قداق" و"جنيقاى"، كما أسند إليهما أمور الخير والشر والصلاح والفساد، فارتفع أمر النصارى فى عهده، ولم يكن لأى مسلم كفل من ذلك. وكان كيوك خان يريد أن يرجح فى كرمه ما كان عليه أبوه، حتى بلغ حد الإفراط فى هذا المجال، من ذلك أنه أمر بتقويم البضائع التى كان التجار قد أحضروها إلى والده من سائر الأقطار القاصية والدانية وكذلك النفائس والطرائف وأن يكون تقويمها بقيمتها التى كانت عليها فى عهد والده، ودفع قيمتها سبعين ألف بالش، وأمر أمراءه فى المشارق والمغارب من بلاد الختا حتى بلاد الروم أن يجمعوا هذه البضائع، ويسلموها فى يوم واحد، وقسموا متاع كل إقليم إلى أقسام يضم كل قسم نوعا واحدًا، وقال له أركان دولته إنه يتعذر حمل ونقل تلك الأمتعة وأوكل أمر نقلها إلى خزانة قراقورم وأصر الملك على ذلك قائلا إن المحافظة عليها واجب وإن الفائدة المرجوة من ذلك لن تعود على الجنود والحاضرين فحسب، بل ستصل إلى الناس جميعا، وقسمت البضائع على جميع العشائر من اليمين ومن الشمال والأطفال والجماعات التى جاءت من قريب ومن بعيد من السادة ومن الغلمان، وفى النهاية وجدوا أن ما أنفق لم يتجاوز ثلثى ما هو موجود، فأعاد التوزيع مرة ثانية، ومع هذا بقى بعد ذلك الكثير.

ذات يوم خرج من المعسكر فرأى فى الخزانة أموالاً كثيرة فقال : ألم أقل لكم وزعوا الأموال على الجيش والرعية؟ فأخبروه أن هذا المال الكثير هو ما بقى بعد أن أخذ كل شخص نصيبه مرتين، فقال لمن كان حاضراً أن يحمل ما يستطيع حمله من الأموال.

وبعد أن أمضى تلك السنة فى مشتاه، وأقبلت السنة الجديدة، وولى برد الشتاء، وحلّ الدفء، وتلونت الأرض بألوان الربيع، وارتوت الأشجار والأغصان بجديد المياه، وهبت الرياح اللواقح، وغدا الهواء كهواء العاشقين وتوردت البساتين كخدود النساء وائتلفت العصافير مع القواضم من الجوارح، وانتهز العاشقون أيام طربهم قبل أن يأتى فصل الخريف، واتخذوا هذا البيت دستورا لهم :

انهض واحمل بمحبتك هدوء الياسمين كى نلتقى وقت ازهراره

تُقطف الورود من خد البستان الملون.. تُشرب الخمر من الشفاه الياسمينة

عندئذ عزم كيوك خان على ترك مقر مملكته، وكلما مر بمزرعة ورآه جمع أمر بإعطائهم البالشات والثياب ليزيحوا عن كاهلهم ذُلّ الفقر والفاقة، ومضى على هذا النسق والهيئة محاطا بالهيبة والقوة حتى وصل إلى البلاد الغربية، وحين وصل إلى سمرقند والتى تبعد عن "بيش باليغ" مسيرة سبعة أيام ، هناك فاجأه الأجل الموعود[1]، وهكذا لم يمهله القدر قيد خطوة، ولم تنفعه سطوته ولم تُمهله صولته، ولا خدمته جيوشه ولا عدّته. عجبا لهذا الفلك الجافى! "ما أكثر مما لم يتحقق من الأمال"، والأعجب من هذا أن المرء يرى ولا يتعظ من ذلك كله، بل ترى الناس يزدادون حرصا وجشعا ونهما، وتزداد السطوة فى كل ساعة وهذه الحكمة البالغة ليس لها من سميع ولا مجيب ولا رادع من العقل.

---

(١) توفى ٦٤٦ هـ.

تقول لك الدنيا فى كل زمان : اتعظ وانتصح ولا تغتر

ألم تر الدنيا كيف لعبت بالإسكندر، وتركته بلا روح

وكيف أهدت قصة عشق الملك دارا المحبة واللطف؟

ألم تر الـــــدنيا تتقلب وتتلـــون كل ساعـــة؟

"فكم من الأعيب ونكبات وقعن فى حبالها؟

ذكر أحوال أوغول غايمش
خاتون وأولادها

حين أصابت كيوك خان الحالة التى لا مفر منها والتى لا بد أن يتذوقها المخلوقات، وكما هو معترف به ومعهود، أن الملك إذا أصيب بمكروه تغلق الطرق، وطبقت قوانين الياسا التى تنص على أن يقف كل شخص فى موضعه وما وصل إليه فى العمار أو الخراب.

وبعد أن هدأت الأمور وخبت نار الواقعة بعثت الرسل إلى "سرقويتى بيكى" و"باتو" مخبرين بما وقع من فاجعة، ثم قدحت فكرها واستشارت المقربين من الملك: هل تعود إلى معسكر القا آن أم تسارع إلى "قوناق" و"إيميل" حيث معسكر كيوك خان القديم. وتحركت حسب هواها إلى ناحية "إيميل"، وحسب العادة فإن سرقويتى "بيكى" أرسلت إليها ما يلزم من النصائح وثوبًا و"بغتاغا"[1] وكذلك فعل "باتو" محاولاً التخفيف عنها لما أصابها. وأشار عليها أن تباشر مصالح الملك بنفسها كما كان يفعل "أوغول غايمش" يعاونها رجال البلاط. وذهب "باتو" بنفسه إلى "الأقماق" وأخبر الأمراء والأبناء طالبا حضورهم جميعا، للتشاور فى أمور الخانية وتفويض "بيكى" فى أمور الخانية حتى تعود إلى نسقها الذى كانت عليه سابقا حتى لا يصيبها خلل، وعلى "خواجة" و"ناقو" أن يأتيا، وأنه لا حاجة إلى وصول "قداق" فأسرع خواجة ونافو تخو باتو فى الأقماق، أما قداق حين أصابه الغرور وعلا نجمه فقد أخذ يهذى هذيانا لا حد له، ويصدر عن لسانه حماقات وجهالات وأقوالا حتمت إبعاده، حتى إن "أوغول غايمش وولديها نفروا من تصرفاته، وما إن وصل خواجة وباتو إلى الأقماق، حتى سارعا إلى مغادرة المكان سريعا خلال يوم

(١) بغتاغ : ضفائر حريرية مغولية تعلقها النساء المتزوجات على شعورهن توضع على الشعر بقلنسوة.

أو يومين، وقبل أن يصل الأمراء الآخرون، بسبب حظهما التعس، وأوكلا تيمور نوين ليقوم مقامهما، يوقع عوضا عنهما على كل ما يتفق عليه الأمراء والملوك.

ولما وافق الجميع على تعيين منكو قان ملكا وقع معهم تيمور نوين، وقد راعى الأخوان أن يبقى الحكم فى أيديهما إلى حين انعقاد المؤتمر الثانى الكبير. وأرسلوا إليهم رسولاً يقول : لما كان جينقاى منذ عهد بعيد وحتى الآن موضع الثقة ومحل الاعتماد، ويتصدى لمعضلات الأمور، وقد ألهمه الحق تعالى السداد فى تسيير الأحداث والمصالح، فقد بقى يسوس أمور الدولة، ويكتب المرسوم الذى اتفقوا عليه.

ومن هناك عاد الأمراء إلى مواقعهم استعدادًا للاجتماع الرسمى الكبير، وعاد كذلك تيمور لخدمة "خواجة" و"ناقو" وأعلمهما عن اتفاق الأمراء على تعيين منكو قا آن، وأنه وقع باسميهما على هذا مع هؤلاء القوم، ولكن الأخوين خططا للغدر بـ "منكو قا آن" لذا أعدًا كمينا فى طريقه بنبل الغدر، ولكن الحظ اليقظ ووجود المحبين والإقبال السعيد وفضل البارئ، جلّت نعماؤه وكثرت آلاؤه، كان قرينه. وكانت جميع الخلائق ناصرة له ومعينة. أقلع الأخوان عن سوء قصدهما وخرجا من مكامنهما، واتجه الجميع إلى العمل لمصلحة البلاد، وهدأت الأمور ، واتجهوا إلى الانشغال بأمور التجار، وبإرسال الرسل إلى سائر النواحى والأمصار ومعاقبة المحصلين المغالين. كانت "غايمش" تختلى فى أكثر الأوقات مع رجال الدين "القامان" وتسرح فى تجلياتها مع خرافاتهم، وكان ابناها "خواجة وناقو" على خلاف مستمر معها. وهكذا جلس على العرش ثلاثة فى منزلة حاكم واحد فى حين كان الأمراء يسيرون فى إدارة أمور البلاد حسب مشيئة الرعية.

أما الكبراء وأعيان النواحى فإنهم يسيرون وفق هوى كل شخص منهم يميلون إليه، واضطربت الأمور واستعصت على الحل لما كان بين غايمش وولديها من خلافات ومشاحنات بين الأقرباء، فتنكبت جادة الطريق وابتعدت

عن اتخاذ التدبير الصواب. وأصبح الأمير جينقاى عاجزا عن معالجة الأمور وضل الطريق التى تساعده على تهدئة الأمور لعدم انصياعهم إلى نصائحه. فقد استبد الولدان بآرائهما الفجة، وتمادت غايمش فى ردع أهل الرأى والصواب مسايرة لهواها :

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان

أما النساء فَميْلهن إلى الهوى وأخو الصبًا يجرى بغير عنانِ

وعلى هذا فقد كتبوا إلى باتو يخبرونه بعدم موافقتهم على ملك آخر :

قضاءٌ جرى وكتاب سبق فهل ينفعنْ جَزَعٌ أو قلق؟

قضى الله ما شاء فى حكمه ففيم اضطرابك والأمْرَ حَق؟

كما أرسلوا أمثال هذه الرسائل إلى "ييسو". وكان كثيرا ما يكتب إليهم داعيًا إلى التصافى والتوافق، ويأمر الولدين بضرورة الإشفاق على أمهما. كما لم يقصر بيكى وباتو فى إسداء النصائح. وهكذا أصبحت الحاجة ماسة إلى عقد الاجتماع الرسمى العام مرة أخرى ويجتمع الإخوة الكبار والصغار ويتشاوروا.

وأرسل الثلاثة إلى "باتو" رسالة أعربوا فيها عن رأيهم القائل :

إن تثبيت حكم "منكو قا آن" سيعود بالخير عليك حتما

ولما كان الاثنان ينظران إلى الأمور بمنظار البطر والصبيانية، ولم تعركهما صروف الزمان ولم تصقلهماِ التجارب، فقد أصرا على رأيهما. ووافقهما قداق خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه من أقوال وأفكار، فقد سعيا إلى تثبيط الهمم لعقد الاجتماع الرسمى العام، محاولين تأجيله قدر استطاعتهما، ساعين إلى بث الخلاف بشأن هذا الاجتماع. ولكن وصل فى نهاية الأمر رسول أفاد وصول الأمراء. فمضى ناقو على الفور، وتبعه خواجة ومن بعدهما غايمش.

وسيأتى ذكر جلوس ملك العالم، وكيفية تردّى الأوضاع بسبب قصر النظر والاستبداد بالرأى، فقد حار العقلاء فى إيجاد السبيل لتسوية الوضع وتعذر الخروج منه.

ذكر توشى[١] وأحواله
وجلوس باتو خلفا له

حين وصل توشى الابن الأكبر[٢] إلى حدود "قلان تاشى" للقاء أبيه وعاد من هناك، وافاه الأجل المحتوم. استقل كل واحد من أبنائه السبعة بمكانه الذى كان فيه وهم : بمخل[٣] وهردو وباتو وشيبقان وتنكوت وبركة وبركجار، فحل باو محل أبيه، وخلفه على الحكم مع إخوته. وحين تقلد قا آن أمور المملكة استعاد سيطرته على تلك الحدود من القفجاق وآلان وآس والروس، وبلاد أخرى كالبلغار ومكس وغيرها. وحدّد لباتو مقامه من حدود "إيتيل" [نهر الفولجا كما ذكره ياقوت]. وبنى باتو هناك مدينة أسماها "سراى" وسيطر سيطرة تامة على جميع الممالك. وكان ملكا لا يدين بدين ولا يميل إلى أية ملة ولا يعترف بإله، ولم يكن متعصبًا لأى دين أو عقيدة، كان كريما يدفع بلا حساب سخيا إلى أقصى حدّ، يهب القاصى والدانى. وفد عليه ملوك الأطراف والأكناف المختلفة فى سائر الأنحاء وقدّموا له الهدايا الثمينة.

وإذا وصلت إليه التحف والأموال وزعها على من كان موجودا فى حضرته من المغول والمسلمين قبل أن تدخل إلى الخزانة ولم يلتفت إليها قلّت أو كثرت. وكان التجار يأتون إليه حاملين بضائعهم ومتاعهم، فكان يدفع إليهم أضعاف قيمة بضائعهم. وينعم على سلاطين الروم والشام وغيرهم. ولم يرجع أحد من عنده خائبا دون أن تتحقق رغبته فكان يأمر لهم بالمراسم والبراءات.

---

(١) يذكر اسم توشى فى جامع التواريخ باسم "جوجى".

(٢) الابن الأكبر لجنكيز خان.

(٣) ورد اسمه فى جامع التواريخ "بوقال" ويرى بلوشيه أن الكلمة فى الأصل "بمخل" والقاف والغين فى لغة المغول تختلطان دائما، وقد حرفها النساخ وهذا رأى قريب إلى الصواب.

وحين جلس كيوك خان على العرش استدعاه إليه فلبى باتو دعوته، وحين وصل إلى "الأقماق" بلغه موت كيوك خان فتوقف في هذه البلدة واستدعى أبناء الملوك إليه، فلبوا دعوته، وقرّروا تنصيب منكوقا آن، وسيصل تفاصيل ذلك عند الحديث عن منكو قا آن والحديث عن أحوال تنصيبه. وعاد من هناك وانشغل بأمور بلاده ومعيشته الهينة . وكان حين إعداد الجيوش يرسل حسب الاقتضاء، يرسل إلى الأقرباء والأنساب والأمراء. حتى إذا حلت شهور سنة ثلاث وخمسين وستمائة طلب منكو قا آن عقد اجتماع رسمى موسع آخر. فأرسل باتو إلى منكو ابنه سرتاق، الذى كان يدين بالنصرانية، وقبل أن يصل سرتاق إلى منكو بلغه أن أباه توفى فجأة فى شهور سنة...[1]

وحين وصل سرتاق لخدمة منكو قا آن لقى منه كل إعزاز وتكريم، وحباه برعاية أبوية خاصة، وأغدق عليه الكثير من الأموال اللائق بالملوك. ولكنه قبل أن يرجع إلى بلاده، توفى ولحق أباه. فأرسل منكو قا آن الأمراء أمرًا بتخفيف الحدث عن النساء والإخوة. وأشار إلى أن تتولى براقجين خاتون، وهى أكبر نساء باتو، تتولى زمام الأمور فى البلاد. وتتعهد بتربية أولاغچى بن سرتاق، حتى إذا كبر واشتد عوده حل محل أبيه. ولكن القدر لم يمهله لتحقيق ذلك، فقد توفى "أولاغچى" فى نفس العام.

(١) بياض فى الأصل.

ذكر استخلاص البلغار وحدود آس والروس

حين عقد القا آن الاجتماع الرسمى الكبير للمرة الثانية، تـشاور مـع الأمراء حول ضرورة استئصال الطغاة وقمع بقاياهم. واستقر الـرأى علـى بسط سلطانهم إلى حدود البلغار وآس والروس المتاخمة لحدود حكم "بـاتو" والذين لم يكن قد تم استئصال شأفتهم بعد، وكانوا مغرورين بكثرة رعيـتهم ولذا اختار الأمراء لمعاضدته (باتو). واستعد منكو قا آن وأخوه "بوجـك"[1] ومن أولاده كيوك خان وقدغان والأمراء الآخرون مثـل : كولكان بـورى، وبايـدار، ومن إخوة باتو : هردو وتنكوت، وعدد آخر من الأمراء. ومـن الأمراء المعتبرين : سبناى بهادر. فقد خرج كل واحد مـن الأمـراء مـن معسكره يقود ما تم إعداده من الجيوش فى مطلع الربيع، متجهين نحو حدود البلغار، وأخذت جموعهم تتوافد حتى ضاقت عليهم الأرض بمـا رحبـت، وامتلأ الجو بالصراخ والهياج وذهلت الوحوش من كثرة ما رأت من جيوش. واستطاعوا فى البداية الاستيلاء على مدينة البلغار التى اشتهرت بكثرة جندها ومناعة موقعها، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا حتى تكون عبرة لغيرها. كمـا أسروا أعدادًا كثيرة منهم. ومن هناك اتجهوا إلى بلاد الروس فأخـذوا فـى الاستيلاء عليها جزءًا جزءًا، وتم لهم ذلك حتى وصلوا إلى مدينـة "مكـس" فصادفوا منها خلقا كالنمل والجراد متجمعين فى الغياض وغابات القـصب، حتى إن الثعابين لا تستطيع أن تفترسهم. واتفق الأمراء على أن يقفوا بجانب الغابات، ويختاروا ساحات شاسعة يؤلفون فيها حلقات متباعدة، وينصبون فى وسطها المنجنيقات، ويقذفون بها السكان... وخلال بضعة أيام لم يبـق مـن المدينة إلا اسمها، وغنموا منها مغانم شتى. وأمروا أن تقطع الأذن اليمنـى بكل من كانوا فيها فكان عدد ما جمعوا من أذن مائتى ألف وسبعين ألفا مـن الأذن. عندئذ عزم الأمراء على العودة والرحيل .

---

(١) الأخ غير الشقيق.

ذكر خيل كلار وباشيغرد

ولم تكن بلاد الروس والقفچاق وآلاق قد خضعت بعد، وكانت "كلار" و"باشغرد" يدين أغلب أهلهما بالنصرانية ويصفونهم بأنهم على صلة بالفرنجة، لذا عزم باتو على سحقهم وأعد الجيوش لتحقيق ذلك، وحين أهل العام الجديد بدأ حملته، وكانت تلك الجماعة مغرورة بكثرة عددها وشوكتها وعُددها إلا أنهم ما إن سمعوا بقدوم باتو حتى هبوا استعدادًا لاستقباله بأربعمائة ألف فارس مغوار. وقد أرسل باتو أخاه "شيبقان" فى طليعة الجيش ومعه عشرة آلاف من الرجال الأشداء، ليكتشف قوة العدو وقوته. سار أخوه بطلائعه تنفيذا لأمره، وعاد بعد أسبوع مخبرا بأن عددهم أضعاف جند المغول، وكلهم رجال حرب أشداء.

واستمر باتو فى طريقه حتى اقترب الجيشان، فصعد "باتو" إلى أعلى التل وحيدا ذات ليلة وبقى يوما وليله صامتا متضرعا نائحا، وأمر من معه من المسلمين أن يجتمعوا ويبتهلوا إلى ربهم بصوت عالٍ. وبدأت المعركة فى اليوم التالى، وهناك أب كبير (نهر سايو) فعبره جيش باتو بينما التحم جيش شيبقان بجيش العدو وشن عليه حملات متتاليات، ولما كان جيش الخصم قويا فلم يتحرك من مكانه أرسل إليهم جيشا من خلفهم ومن أمامهم، وحملوا عليهم حملة واحدة وقطعوا أوتاد خيامهم بسيوفهم. وهكذا انهزم جيش "كلار" فاستطاع المغول السيطرة على البلاد. وكان هذا الانتصار من الأعمال العظيمة والحروب الكبيرة التى حققوها.

ذكر جغتاى

كان جتغاى خان معروفا بالتهور والغلبة والسياسة والخشونة. وحـــين فتح بلاد ما وراء النهر وتركستان، اتخذ من سمرقند حتى بيش باليغ مقرا له ولأولاده وجنده. وقد أحسن اختياره للمكان، فهو مكان متنزه، ولائق بالملوك. وكان مصيفه "الماليغ" و"قوناس"، وهو فى الربيع والصيف أشبه بجنات إرم، يتألف من أودية عظيمة يدعونها "كول"، تجتمع فيها أسراب الـــبط المـــائى، وبنى فى هذا المكان قرية أسماها "قنلغ"، وكان يمضى خريفه وشـــتاءه فـــى "مراوريل إيلا". وكان يُعد مخازن أطعمته وشرابه منذ البداية حتى النهايـــة، وكان يشغل أوقاته فى معايشة الحسناوات صبيحات الوجوه. وكان حشمة فى غاية الانضباط خوفا من عقابات الياسا. ولم يجرؤ أحد فـــى عهـــده علـــى التعرض لجيشه. ولم تكن أية طرق فى حاجة إلى حراســـة، ومبالغـــةً فـــى وصف الأمن والخوف قالوا : إن المرأة كانت تمشى وحيدة حاملة طشتا من الذهب فوق رأسها بلا خوف. فقد كان يسن القـــوانين الـــصارمة والدقيقـــة ويطبقها على التازيك وعلى الناس جميعا تطبيقا حازما، ومن ذلك عدم الذبح على الطريقة الإسلامية وعدم الجلوس نهارا فى الميـــاه الجاريـــة. وكانـــت قوانينه هذه، لا سيما الذبح الشرعى للخراف، موزعة على الأمصار، كانـــت القوانين تطبق بدقة، حتى إنه لم يعرف أن شخصا ما فـــى خراســـان ذبـــح خروفا بشكل علنى، كما أمر المسلمين بأكل لحم الميتة. وحين توفى القـــا آن أضحى هو مرجع الخلائق، يأخذون رأيه من قريب ومن بعيد. ولم يطل بـــه الأمر حتى أصابه مرض عضال استعصى علاجه وكان له وزيـــر تركـــى يُدعَى هجير كان قد استدعاه فى أخريات أيامه، وتولى غالب الأمـــور فـــى الدولة فى أخريات عمر جغتاى حين هدّه المرض. وكان يعالجه الطبيب مجد الدين، ويخلص فى علاجه ويأسى لما آل إليه حاله. وحين حُمّ القضاء أمرت

زوجته الكبرى "يسلون" أن يقتل هجير ومجد الدين (كلاهما) مع أولادهمـــا. وقد استطاع الأمير حبش العميد الذى فتح بلاد مـــا وراء النهـــر، واســـتمر صديقا مخلصا لجغتاى، أن يحظى بمنصب الوزارة، وقد علا شأنه فى عهد الملكة، وقال أحد الشعراء ويدعى سديد الأعور عدة أبيات فى يوم العيد فـــى الأمير حبش العميد :

غدا واضحًا أن ظلام هذه الدنيا مصيدة البلاء

ووضح أن الدنيا تظهر الدلال وهدفها الغدر[1]

ماذا استفاد قرجى وكيول[2] والجيش الجرار؟

أتت الدنيا بالآجال وحصدت يمينا وشمالا

من كان فى الماء لا يغوص فيه خوفا منه

والغرق يكون فى البحر المحيط لعمقه واتساعه

خلّف جغتاى كثيرا من الأولاد والأحفاد، ولكن ابنه الأكبر "ماتيكان" هـــو الذى كان يرد اسمه كثيرا وقتل فى "باميان". وله كذلك قرا[3] الذى مات فى حياة جنكيز خان. وتسلّم ولاية العهد بعده قا آن وجغتاى. وعين بعده اثنان، فبعد موته أشرفت على الحكم زوجته "يسلون" فى حين أن جيش عميد الملك وأركان الدولة أقبلوا على قرا.

وحين تولى كيوك خان الحكم ولصداقته مع ييسو فقد اجلـــسوا ييـــسو على العرش، وفوضوه فى أمور الحل والعقد. وكان ييسو ثملا مشغولا دائما بالشراب من الصباح حتى المساء. فحين تولى السلطة فقد غضب على جيش عميد بتعضيده لقرا وجعله هدفا لإيذائه له. فى بداية الأمر كان جيش عميد قد سلّم أولاده لأبناء جغتاى واختار لكل واحد من أولاده أميرا من أبناء جغتاى.

---

(١) هذان البيتان لأبى الفرج بن أبى حصين القاضى الحلبى (تتمة اليتيمة، الورقه ٥٢٠).

(٢) يرى بلوشيه أن هذه الكلمة يجب أن يكون أصلها "كوتوال" بمعنى حارس القلعة.

(٣) يعنى قرا هولاكو، والمعروف بقرا أوغول.

وكان قد ألحق بهاء الدين المرغينانى لما كان ينعم به من علم وفضل إلى ييسو مرة ثانية. ونظرًا إلى قدم خدمته (بهاء الدين) وكفاءته فقد تبوأ منصب الوزارة فى عهد ييسو، وأنهى خدمة جيش العميد. ومع أن الأمير بهاء الدين كان يؤدى مراسم الملك والخدمة خير قيام، وتوسط مرارا لدى ييسو للعفو عن حبش العميد ومنعه من إيذائه، فإن ما جُبل عليه حبش العميد من ضغينة فى قلبه كان يتحين الفرصة للتشفّى".

وكما كان معلوما فإن منكو قا آن حين جلس على العرش لم يكن ييسو موافقا أو راضيا عن ذلك، لهذا فإن منكو خلع ييسو وعين "قرا" مكانه حيث أعاد كل شىء إلى ما كان عليه حسب ما ورد فى الوصية. وأولاه العناية واللطف الأمين، ومات فى الطريق فقد وقع القدر المحتوم. فقرر أن يخلفه ابنه (ابن قرا) وسلم مقاليد الأمور إلى زوجته التى كانت تسمى أورقينة، لحداثة سن ابنه.

وحين وصل إلى معسكرها وكان ييسو قريبا من تلك البلاد استأذن باتو الذى كان قد وصل إلى مقره فى أن يقيم مخيما فى أراضيه. ولكن الأجل لم يمهله. وتمكن الأمير حبش العميد وابنه ناصر الدين وعلت منزلتهما فى بلاط الخاتون مرة أخرى. وفى تلك الأثناء عاد قرا مرة أخرى، فانتقم من بهاء الدين المرغينانى وسلّم أمواله لحبش العميد وقبض عليه وقيده بفلكة ذات فرعين فقال بهاء الدين هذه الرباعية :

إن من حبسوا عمرى، أنقذونى من محن الدنيا وآلامها

تكسر جسدى من ذنوبى، وبهذا أعادوا إلى جسمى وصله

ثم أرسل الرباعية التالية مستعطفا :

خذ أيها الملك لحمة نسيجى وسداها، وإن احتجت إلى روحى فخذها

لقد بلغت الروح التراقى وأضحى صدرى خاليا، فلا فائدة من التضرع والتوجع.

كما كتب هذين البيتين وبعث بهما إلى حبش العميد :

عملتُ مع العدو ومع الصديق بإخلاص ومشيت

وهكذا تمضى حياتنا مسرعة

سلّمنى أجلى المحتوم الحب المسهّل لانتشال الروح

وأرسلت منه لعنة نقدا لحبش ومضيت

فأمر حبش أن يلفّوه داخل لباد، ويُشددوا عليه اللّف حتى تتكسر عظامه حتى يموت.

وفى شهور سنة تسع وأربعين وستمائة وفى أثناء العودة من عاصمة غايمش ذهبت إلى ييسو، وكان آنذاك فى خدمة أرغون، وحين تشرفت بلقاء الأمير الإمام بهاء الدين خاطبنى بهذا البيت قبل أن يبادرنى بالحديث:

إن السّرِىّ إذا سرى فبنفسه وابن السّرىّ إذا سرى أسراهما

ورعانى وأولانى كل الإعزاز والإكرام، وهو ذو نسب عال وشرف مكتسب، جمع بينهما فأحسن، فهو من ناحية آبائه يرجع إلى شيخ الإسلام فى فرغانه، واستمر المنصب فى عقبهم أبا عن جد. وأما والدته فيعود نسبها إلى طغان خان، أما شرف الاكتساب فهو فى علو مقامه فى الوزارة، وفى تحصيله لأنواع العلوم الدينية والدنيوية معًا.

والحق أننى رأيت فيه مجمع بقية فضلاء العالم، ومرجع صدور الآفاق، له فضل على كل إنسان، يمنح البرَّ والشفقة، وذكر مناقبه وفضائله كثيرة لا تُعد ولا تحصى، وليس هنا مقامه، ومتى أعطى الزمان كلّ ذى حق حقه حتى يستثنيه؟

متى أعطى الزمان العلو لإمام أو زعيم فإنه لا ينحنى أو يطأطئ الرأس أمام الأوجاع .

يا دهر ما لك طول عهدك ترتقـــى روض المكارم ضاربا وجميما

يا دهر ما لك والكرام ذوى العلـــى ماذا يضرك لو تركت كريمـــا(١)

وبقى للأمير بهاء الدين أولاد وأطفال، وكم كان يود الأميــر حــبش العميد أن يُلحق أبناءه الذكور به .

تم الجزء الأول من تاريخ جهان گشاى

ويليه الجزء الثانى بإذن الله.

(١) البيتان لأبى الفرج بن أبى حصين القاضى الحلبى (تتمة اليتيمة، ورقه ٥٢).

المؤلف فى سطور :

هو: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن شمس الدين الجوينى، ولد فى العاشر من ربيع الأول عام ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ، وتوفى فى أواخر عام ٦٨٣هـ أو أوائل ٦٨٤هـ تقريبًا .

احتلت أسرة الجوينيين مكانًا بارزًا فى التاريخ الإسلامى ، فهى واحدة من أشهر الأسر التى أنجبتها إيران. اضطلعوا بالمناصب المهمة فى حكومات سلاجقة إيران والخوارزمشاهيين والمغول .

أسندت إلى عدد من أفراد الأسرة بداية من والده بهاء الدين منصب "صاحب الديوان" وتعادل وزير المالية . ولهذا عرف معظم أفراد هذه الأسرة بهذا اللقب . وشغل بعضهم مناصب أكبر مثل أخيه شمس الدين محمد الجوينى حيث كان الوزير العظيم فى عصر أباقا بن هولاكو – ٦٦٣هـ إلى ٦٨٠هـ، ومع هذا عُرف فى التاريخ بلقب "صاحب الديوان".

ظل علاء الدين حاكما للعراق طوال ثلاث وعشرين سنة، ومع هذا فقد اشتهر بهذا اللقب أى "صاحب الديوان".

فقد ظل حاكما للعراق طوال حكم هولاكو منذ ولاه حكم العراق فى عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م حتى وفاة هولاكو فى ١٩ من ربيع الآخر ٦٦٣هـ/١٢٦٥م ، وطوال حكم أباقا الذى استمر سبعة عشر عاما من ٦٦٣ إلى ٦٨٠هـ/١٢٦٥إلى ١٢٨٢م .

المحقق فى سطور:

محمد بن عبد الوهاب القزوينى

عالم حمقق يرانى ولد فى طهران عام ١٢٩٣ هـ ق (هجرى قمرى). وتوفى فى طهران ١٣٦٨ هـ ق. الموافق ١٩٤٩م.

تلقى العلم فى المرحلة الأولى على يد كل من الشيخ فضل الله نورى أستاذ الفقه والشيخ على نورى أستاذ الفلسفة.

سافر إلى لندن عام ١٣٢٢ هـ.ق بدعوة من أخيه ليرزا أحمد خان، حيث بقى بها فترة توجه بعدها إلى باريس دارسا ومحقق للنصوص والمتون الفارسية المختلفة أمضى فترة الحرب العالمية الأولى فى "برلين" ثم عاد إلى باريس وأقام بها وظل طوال فترة وجوده فى أوربا على صِلَة وثيقة بالمستشرقين والمهتمين بتاريخ إيران وحضارتها.

عاد إلى طهران بعد اندلاع الحر العالمية الثانية حيث أمضى العشر سنوات الأخيره من عمره بها.

اشتهر فى إيران بدعوته المستمرة إلى انتهاج المنهج الغربى فى الدرس والتحقيق ودراسة النصوص المتون المختلفة.

ألف العديد من المؤلفات منها:

١- رسالة فى أحوال سعود سعد سلمان (الشاعر الفارسى).

٢- مقدمة تذكرة الأولياء (فن التصوف) لفريد الدين العطار.

٣- رتجمة أحوال "أبو الفتوح الرازى".

٤- بيت مقالة قزوينى من مجلدين: أى عشرو مقالة للقزوينى.

ب- تحقيق وتصحيح المتون التالية:

١- لباب الألباب د. محمد عوفى المجلد الأول.

٢- المعجم فى معايير أشعار العجم شمس بن قيس الرازى.

٣- چهار مقالة (المقالات الأربع) نظامى عروض السمرقندى.

٤- جهان گشاى جوينى أى فاتح العالم للجوينى موضوع عملنا.

٥- ديوان حافظ الشيرازى.

المترجم فى سطور :

- وُلِد فى ١٩٤١/٨/٨ بالمحلة الكبرى - محافظة الغربية .

- حصل على ليسانس الآداب عام ١٩٦٣ بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف من كلية الآداب - قسم اللغات الشرقية - فرع لغات الأمم الإسلامية .

- حصل على الماجستير فى عام ١٩٨٦م بتقدير جيد جدًا فى موضوع " جلال الدين الرومى وكتابه فيه ما فيه " .

- حصل على الدكتوراه عام ١٩٧٢م بمرتبة الشرف الأولى فى موضوع " عطا ملك الجوينى وكتابه تاريخ جهان گشاى " .

- شغل منصب رئيس قسم اللغات الشرقية من سنة ١٩٨٣م إلى ١٩٨٩م وفى نفس الوقت شغل منصب وكيل كلية الآداب بنى سويف .

- عين عميدًا لكلية الآداب جامعة القاهرة فرع بنى سويف من ١٩٨٦م إلى ١٩٨٩م .

- عين خبيرًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة للغتين الفارسية والتركية اعتبارًا من ١٩٩٢م وحتى الآن .

- رئيس تحرير مجلة "الدراسات الشرقية" التى تصدر عن جمعية خريجى أقسام اللغات الشرقية لمدة ثلاثة أعوام .

- رئيس تحرير مجلة "رسالة المشرق" التى تصدر عن مركز الدراسات الشرقية منذ عام ١٩٩٢ حتى ١٩٩٧م .

الإنتاج والأعمال العلمية :

أولاً الكتب :

١- اللغة الفارسية (نحو وصرف وتعبير) ، عام ١٩٧٥- ٢٠٠٠/٢٠٠١م .

٢- النثر الفارسى منذ نشأته حتى نهاية العصر القاجارى فى إيران ، عام ١٩٧٨م .

٣- الثورة الإسلامية فى إيران من وجهة النظر الإيرانية ، عام ٢٠٠٠م ، الموسوعة العامة، مقاتل من الصحراء [المملكة العربية السعودية] .

٤- عبد الوهاب عزام ، رائدًا ومفكرًا ، القاهرة ، الكتاب المصرى اللبنانى، يناير ٢٠٠٥ .

ثانيًا الترجمات :

١- " تاريخ إيران القديم " تأليف حسن بيريا والترجمة بالاشتراك مع د. محمد نور الدين عبد المنعم ومراجعة د. يحيى الخشاب .

٢- " الإسلام فى إيران " تقديم وترجمة " الكتاب عن الفارسية " لمؤلفه الروسى بطرشوفسكى ، الطبعة الرابعة ، مارس ٢٠٠٥م .

٣- " من الفكر الصوفى الإيرانى المعاصر " تأليف صادق عنقا مع كتابة مقدمة وافية، والترجمة بالاشتراك مع د. إبراهيم الدسوقى شتا .

٤- ترجمات لمواد خاصة بإيران وتركيا وتاريخ آسيا الوسطى فى الدوريات المختلفة .

٥- كتابة ترجمة عدد من أعلام الفكر والتاريخ الإسلامى ورواد الدراسات الشرقية لليونسكو .

٦- مراجعة المعجم الذهبى : " فرهنك طلائى - المعجم الفارسى العربى - تأليف الدكتور النونجى - مراجعة الدكتور السباعى ، لونجمان ١٩٩٦، القاهرة .

التصحيح اللغوى : محمـــود عبد الرازق

الإشراف الفنى : حســـــن كامـــل